
رواية
جيوكوندا بيللي
بلد النساء
ترجمة: صالح علماني



رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

الإخــراج الفني

إينــاس الدكــروري

الإشـــراف الفني

عصـــام المرســي

التصحيح اللغـوي

أمــل أحمــــد

المتابعة

ســحر محجــوب

بلــد النســـاء

جـيوكـونـدا بيللــي - ترجمة : صالح علماني

ط ١ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ٢٠١٧

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي: ١١٧٩٤
تليفون: ٢٥٧٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C.: 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

بيللي، جيوكوندا.

بلد النساء/ جيوكوندا بيللي؛ ترجمة: صالح علماني. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧.

٢٩٢ ص؛ ٢٣ سم.

تدمك ٢ ١٦١١ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأمريكية.

أ ـ علماني، صالح. (مترجم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٩٠٢/ ٢٠١٧

I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 1611 - 2

ديوى ٨٢٣



بلد النساء

جيوكوندا بيللي

ترجمة

صالح علماني



٢٠١٧

• الكتاب: بلد النساء.

EL Pais De Las Mujeres

• تأليف: جيوكوندا بيللي.

Gioconda Belli

• ترجمة: صالح علماني.

• الطبعة الأولى 2017.

• طبع في مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الرئيسة

كان مساء رياح وبرودة من شهر يناير/ كانون الثاني. عصف ريح الشمال القوية يشوش المشهد باختلاطاته. وفي المدينة، كانت زوابع أوراق الأشجار المتساقطة تشكل حوامات تطفو من رصيف إلى آخر وتلامس حواف الطريق بجلبة جرجرة سُلَّم صول مينور. ماء البحيرة قبالة قصر فاجواس الرئاسي كان مائجًا وقاتمًا كلون القهوة بالحليب. تنبعث منه رائحةَ صفراء، رائحةُ أزهارٍ برية فاسدة، رائحة أجساد متعرقة متزاحمة.

وفوق المنصة، أنهت الرئيسة "بيبيانا سانسون" إلقاء كلمتها ورفعت ذراعيها عاليًا بحركة انتصارية. كان يكفيها أن تهز ذراعها حتى ينفجر الميدان كله بتصفيق متجدد. إنها السنة الثانية لولايتها، والسنة الأولى التي يُحتفل فيها، بكل أبهة، بـ "**يوم المساواة بكامل معانيها**"، وهو اليوم الذي أمر حزب اليسار الإيروتيكي (ح.ي.إ) بإدراجه ضمن تقويم أهم أيام البلاد. كان التأثر يعكر عيني الرئيسة. فكل أولئك الناس الذين ينظرون إليها بحماسة عظيمة، هم السبب في وجودها هناك وشعورِها بأنها مبعث سعادة في العالم. الطاقة التي يبثونها فيها قوية إلى حدٍّ رغبتْ معه في مواصلة الحديث عن الأحلام الجنونية التي تحدّت بها توقعات الكثيرين بأنه لا يمكن لها الوصول إلى الحُكم أبدًا، وأنه لا يمكن لها أن ترى، مثلما تفعل الآن، نتيجة الجرأة والجهد العظيم الذي ثابرت عليه مع رفيقاتها في حزب اليسار الإيروتيكي.

نظرتْ في ما حولها. هنالك فتيات فوق سطوح الأبنية المحيطة، وفتيات يتسلقن أشجار الحديقة المجاورة، وحتى فوق سطح مستديرة وسط الميدان، ورجال يجلسون على أدراج القصر الرئاسي. بينما تنتشر، حول المنصة، شرطيات الحزام الأمني، يتلفتن بحذر تحت ضغط الحشود. يا للمسكينات، فكرتْ بينما هي لا تزال تهرول من جانب إلى آخر، تهز ذراعيها عاليًا، تجول على المنصة الدائرية. لم تكن تريد شرطة، لكنَّ إيفا تصرّ على حمايتها؛ ويُقلقها إلقاؤها الكلمات وسط الميادين.

كان العرق يسيل على ظهرها بعد تينك الساعتين من التنقل من مكان إلى آخر. لم تُلق خطاباتها قطّ من وراء حواجز. وبأسلوبها الشبيه بأسلوب مغنيات الروك في الحفلات الموسيقية ـ بالأسود السابغ وبجزمة عالية ـ كسرت تقليد السياسيين الذكور القدماء الذين كانوا يحتمون، على الدوام، وراء مناضِد وحواجز أمامية. أما هي، فلا. إنها تريد أن يلمس الناس وجودها بالقرب منهم، وأنه يمكن لهم الوصول إليها. منذ توليها المنصب كرئيسة لفاغواس؛ بل قبل ذلك، منذ حملتها الانتخابية، كانت تتكلم على الدوام وهي وسط الحشود، ممسكة الميكرفون بيدها. وقد صرحتْ بأن الدائرة هي احتضان، وأن الكلمة السحرية لإدارتها هي "**اتصال**" الجميع على اتصال: تلامس متبادل، إحساس متبادل. الدائرة هي المساواة، هي المشاركة، هي البطن الأمومي الأنثوي. الرمز يؤكد إيمانها بقيمة الإدراك والإحساس بالقلب وليس بالعقل وحده، وكانت هذه هي صرختها التي طبعت بها سياسة البلاد، وأتاحت لها أن تُحاط بدفء الآخرين، هذا الدفء الذي يجعلها تتعرق تحت الشمس البديعة في ذلك النهار الآخذ بالانطفاء.

واصلت بيبيانا جولتها عبر المنصة الدائرية، لقد كانت تتمتع، وهي في الأربعين من عمرها، ببنية جسدية تُحسد عليها: جسد سَبَّاحة أسمر

فاتح اللون ومتين البنيان، وشعر إفريقي أسود مجعد يصل حتى كتفيها ـ إرث الأب الخلاسي الذي لم تعرفه قطّ ـ ووجه أمها النحيل ذو التقاطيع الناعمة، ولكن بعينين واسعتين سوداوين، وفم بشفتين ممتلئتين حسيتين. في ذلك اليوم، كانت بيبيانا ترتدي بلوزة سوداء بفتحة عنق عميقة يبرز من خلالها الثديان الوافران اللذان لم تعترف بفائدتهما إلا عندما دخلت ميدان السياسة. ففي مراهقتها أزعجها حجمهما إلى حدّ أنها راحت تمارس رياضة السباحة حين انتبهت إلى أن جميع السبّاحات ملساوات الصدور، مثل منضدة الكواء. ولكنها، على الرغم من أنها لمعت في مآثرها المائية، وتوصلت إلى أن تكون بطلة وطنية في السباحة، إلا أنها لم تكد تُحدثُ تأثيرًا يذكر على الحدّ من النمو المندفع لثدييها الشهيرين. ولم يبق أمامها في نهاية المطاف سوى احتضان أبعادهما السخية وتقبلهما. وانتهت إلى التفكير بأنه عليها الاحتفاء بهما وتحويلهما إلى مرادف لالتزامها بأن تقدم لشعب تلك البلاد أنهار الحليب والعسل التي ضنَّ بها عليهم سوء إدارة الرجال. في بعض الأحيان كانت تلوم استعراضيتها تلك، ولكنها استعراضية مجدية ولها مفعولها. وهي لن تكون أول ولا آخر امرأة تكتشف مفعول التنويم المغنطيسي الذي يمارسه جسد مترف بالشهوانية.

بعد أن أكملت، راكضة، ثلاث جولات دوران أخرى على محيط المنصة الدائرية، متوقفة بين حين وآخر لترفع ذراعيها في إشارة نصر، قررت بيبيانا أن ذلك كافٍ. الإحساس بالانتصار يبعث على النشوة، لكنها كانت متعبة ولا تريد المبالغة. فكَّرتْ: كفى عبادة للذات. فمن الخطير، برأيها، زيادة تغذية عبادة الناس لها. منذ البدء أصرت مارتينا وإيفا وربيكا وإيفيخنيا على وجوب أن تركب موجة التأثير المغناطيسي الذي تمارسه على الحشود. وهي تتولى القيام بذلك الطقس مرة بعد أخرى؛

تحمل الجماهير إلى فورة الحماسة، ولكنها تشعر بعد ذلك بدافع أمومي يدفعها إلى تهدئتهم، وتضطر إلى كبح رغبتها في أن تغني لهم أغنيات مهد أو أن تروي لهم حكايات، مثلما تفعل مع ابنتها بعد جولة صخب جيدة بتراكضهما عبر البيت والصراخ والدغدغة والتقلب. فعندما كانت سيليستي صغيرة، كانت قادرة على تهدئتها دومًا إلى أن تخلفها نعسة، وجاهزة لتنظيف أسنانها وارتداء البيجاما. لا يمكنها استخدام الأسلوب نفسه مع الحشود، ولكنها تحاول أساليب أخرى: تُبدِّل الإيقاع، تسترخي، تدخل في مشي هادئ، تهز ذراعيها بنعومة، المشي ببطء، ثم بمزيد من البطء، حول الدائرة. وجهت إشارات إلى رفيقاتها في حزب اليسار الإيروتيكي، ممن بدأن معها فكرة ذلك الحزب، كي يصعدن إلى المنصة ويمشين جميعهن معًا ممسكات بأيدي بعضهن بعضًا كفرقة مسرحية عند انتهاء العرض. يروقها أن يشعرن أنهن محبوبات، وأن يستمتعن بانتصار ينتمي إليهن بالتساوي. إيفا سلفاتييرا، مارتينا ميليينديث، ريبيكا دي لوس ريوس، وإيفيخنيا بورتا كن نساء جذابات أيضًا ونابضات بالحيوية. فإيفا حمراء الشعر، ضئيلة، مع نمش على خديها، ولها صوت أغنّ، فيه شيء من المراهقة الخفيفة، خلافًا لفعاليته القاتلة. أما مارتينا فشقراء كستنائية، أقرب إلى الامتلاء منها إلى النحافة، شعرها أملس. وقد ولدت مزودة بموهبة حس السخرية الخالي من الاحترام. عيناها الصغيرتان والقاتمتان تضعان كل شيء تقريبًا موضع الشك منذ البدء. أما ريبيكا دي لوس ريوس، فطويلة القامة، سمراء، رشيقة مثل قصبة، كما قالت دونيا كورين تييادو، إنها جمال قاتم وغامض، ولها القوام الأكثر أناقة ورهافة بينهن جميعًا. وإيفيخنيا، إيفي، نحيلة، بوجه متطاول وأنف بارز؛ جميعهن يحببنها لأنها تشبه فيرجينيا وولف.

تعالى إيقاع التصفيق للحظات، لكنه مالبث أن راح يخفت مع بدء بيبيانا التكلم ببطء: جميعنا سنذهب الآن إلى البيوت، قالتها عبر

الميكروفون بعذوبة، كمن تهمس الكلمات، باسمة، ومكررة: شكرًا، شكرًا، كدعاء، كتعويذة تتيح لها هي نفسها تقبُّل الذهول البهيج بأن كثيرين قد منحوا ثقتهم لها ولحكومتها.

عند هذه النقطة، تبدأ حماسة الجمهور بالانخفاض عادة، فهي تخرج من الصدور والحناجر والأفواه كروحٍ منهوكة، لتتحلل وتذوب في هواء نهاية الاحتفال. وكانت الرئيسة قد اعتادت على مراقبة العملية بافتتان: النشاط المتراكم وهو يتضاءل ويختفي في الأجساد مثل دفق ماء مسكوب يضيع في الزوايا، بينما الحشود المتراصة تنفرج مثل يدٍ ممدودة مودعة.

ولكن ذلك اليوم ما زال يحتفظ بمفاجأة مع ذلك: ألعاب نارية مهداة من سفيرة الصين. سُمعت الفرقعة الأولى بعيدة. توقفت الحشود عن المغادرة. مظلة أضواء وردية مشتعلة راحت تنزل ببطء من السماء فوق الميدان. تلاها شلال بتلات بيضاء وثُريات خضراء، وندف ثلج زرقاء، ومجسات صفراء مضيئة. ارتفعت الوجوه كلها لترى البريق المبهر بينما راحت الهتافات تتعالى من الحناجر. ابتسمت بيبيانا. إنها تحب الألعاب النارية. كانت إيفا، وزيرة الأمن والدفاع، قد اقترحت عليها النزول، هي والأخريات، عن المنصة والانسحاب لمشاهدة الأضواء من مكان أكثر أمنًا، لكن بيبيانا لم تتحرك من مكانها، وقفت مبهورة بالضوء وبتأثير السماء المشتعلة فوق وجوه تلك الحشود التي انتقلت فجأة إلى دهشة الخوارق الطفولية. وفي نسيانها لدورها كبطلة ذلك الاستعراض، ومع عودة انتظام تدفق الأدرينالين في سلوكها العام، تمكنت في لحظة الراحة تلك أن تمعن النظر إلى رجل تغطي رأسه قبعة زرقاء، كقبَعات سائقي الشاحنات، يشق طريقة وسط الحشود. رأته يقترب، وعندما رفع ذراعيه من مسافة قريبة كمن يريد أن يخلع بلوزة عبر رأسه؛ أدركتْ حقيقة نواياه بعد فوات الأوان. لم تسمع صوت الطلقة، غير أن سخونة لزجة

صفعتها بقوة شديدة في صدرها وفي جبهتها، أفقدتها التوازن. سقطت إلى الوراء دون مناص، هوت بكل طولها. وقد تمكنت مع ذلك من سماع جلبة الصراخ التي تعالت حولها. رأت رجلًا نحيلًا، يضع قبعة أيضًا، له وجه سامريٌّ طيب، ينحني فوقها. ومنكسرة في السائل اللامع الزلق الذي أحست أنها تغطس فيه ببطء، رأت وجوه إيفا ومارتينا وريبيكا كانعكاسات تطل على بُركة راكدة. وعندما سمعتْ صفارات سيارات الإسعاف النائحة، كانت أفكارها، كما لو أن أحدهم قد فتح لها شرخًا لتهوي منسكبة في صمت شامل.

(مادة تاريخية)

استنساخ كامل لرواية
خوسيه ديلا آريتمِتيكا

إيفا سالفاتييرا: اسمكَ ومعلوماتكَ الخاصة من فضلك.

خ. آ.: اسمي خوسيه ديلا آريتمِتيكا، خمسون عامًا، متزوج، أسكن في حي بولغا... هل يكفي هذا أم أقول المزيد؟

إ. س.: حسنًا، هذا يكفي يا دونِ خوسيه، أريد منك أن تخبرني، من فضلك، بما جرى في الميدان، أين كنتَ تقف عند انطلاق الرصاص؟ وماذا رأيت؟

خ. آ.: انظري، إذا كنتِ تريدين أن أخبرك برأيي حول من أطلق النار، فعليكِ أن تسمعي مني الحكاية كلها من البداية؛ لأنني أعتقد أن الأمور لا تحدث فجأة بين يوم وآخر، وسوف أخبرك بانطباعي منذ اليوم نفسه الذي تولتْ فيه الرئيسة بيبيانا الحكم؛ لأنني كنت هناك، أتسمعينني؟ أنا لا أتخلّف عن اجتماعات الحشود أو المسيرات أو المظاهرات. أعيش متابعًا السياسة وكل صخب آخر، إنها بالنسبة إليَّ مثل موسم عيد الميلاد بالنسبة للتجار، فأي شخص يقف تحت الشمس يروق له أن يتناول ثلجًا مبشورًا مع رحيق، وثلجي المبشور من أجود الأصناف.

لم أتخيل قطّ أنكن، أنتن معشر النساء، ستحكمن؛ بل إنني ضحكت عند بدء حملتكن الانتخابية، أقر بذلك؛ منذ يوم ظهوركن لتقدمن حزبكن مع راية دعسة القدم الصغيرة. صحيح أنه كانت لديكن شخصية مرشحة للرئاسة من نوع بيبيانا سانتون، إلا أن ذلك لم يَبْدُ لي كافيًا. فإذا كان يقال

إن المسوح لا تصنع كاهنًا، فأنا أقول إنه لا يمكن لبرنامج تلفزيزني أن يصنعه أيضًا. لا أنكر أنكن جميعكن بدوتن لي ذكيات جدًّا، حين تحدثتن عن أنكن قد ضجرتن من مواصلتنا، نحن الرجال، تبديد البلاد، وسرقة الدولة وارتكاب التجاوزات؛ لقد كنت أفهم بالطبع ما الذي كنتن تعنينه، مع أنني لست امرأة. ولماذا الإنكار: لقد أعجبتني تلك الفكرة بأنكن ستصبحن أمهات لكل المحتاجين، وأنكن ستنظفن البلاد كما لو أن المسألةَ هي مسألة بيت مهمل وغير معتنى به، وأنكن سوف تكنسنه وتنظفنه وتلمعنه. ليتكِ رأيتِ زوجتي وبناتي وافتتانهن وهن يسمعن هذه الأمور.
أما مسألة الإيروتيكية فبدت لي غريبة؛ لأن الإيروتيكية بالنسبة لي هي رسوم التقاويم التي تقدمها محلات الخردوات كهدية في أيام عيد الميلاد، وتكون عليها صور نساء فاتنات بمايوهات صغيرة جدًّا. حديثكن عن هذا الأمر لم يبدُ لي جديًّا، لم يبد لي أنه يتوافق مع الخطابات التي يحتاج إليها حكم الأمة، وإن كان عليَّ أن أوضح لك أنني لا أشارك الرأي أولئك الذين ينتقدون ويقولون إنكن توافقن على أن كل شخص حرّ بممارسة الجنس مع من يشاء: رجال مع نساء؛ نساء مع نساء، رجال مع رجال. فأنا لا أتدخل في نهاية المطاف. وكل شخص مسؤول عن سرواله الداخلي أو فتحة بنطاله. كلٌّ وشأنه. وتفسيراتهم لما يفعلون سيقدمونها لكُلِّيّ القدرة الذي هناك في الأعالي، أما أنا فلا يهمني شيء من ذلك كله ما دمت غير مضطر لرؤية عرض حي. ربما كان السبب هو أن لي خمس بناتٍ، فليحفظهن الله، وإذا قلتُ شيئًا فسوف يَنقضِضن عليّ، لا يرضين حتى أن نقول عن الشاذين إنهم مخنثين، تبين لي أنهم يسمونهم اليوم غيي، وشركاء، وما أدراني أنا بهذه التسميات.

إ. س.: دون خوسيه...

خ. آ.: أيوه، عذرًا، أظن أنه من الجيد أن تسمعي حضرتك ما يفكر به شخص مثلي، مواطن عادي. المسألة هي أنه بعد انفجار البركان، وبعد أيام الظلام تلك، تعرفين حضرتك كيف صارت حالنا نحن الرجال: إننا واهنون وخاملون. لم يعارضكن أحد. كسبتن الرئاسة وحصلتن على الأكثرية في الجمعية بأصوات النساء. أما نحن فلم تكن لدينا حماسة لأي شيء، كنا مثل أدوات كهربائية منزلية قام أحدهم بفصلها عن التيار الكهربائي. إنني أتذكر ذلك جيدًا! حالة الذهول التي دخلنا فيها جميعنا المعركة، وأُخرجنا منها مذعنين صاغرين. أيها الرب المقدس، أيها المقدس القوي! أي أيام هذه! لقد رأيتِ حضرتكِ كيف أن جاراتي كنَّ يضحكن عليّ حين رأينني أمر دافعًا عربة الثلج المبشور في طريقي إلى المظاهرة التي احتفلتن فيها بانتصاركن، كنت أمشي مثل تلك الكلاب التي تخفي ذيلها بين ساقيها. في تلك الأيام بدا كما لو أن الرجال لن يرفعوا رؤوسهم إلى الأبد، ولكن الذروة جاءت بالطبع ـ ولم أفقد الصبر ـ حين قررت الرئيسة أن حكومتها كلها، بما في ذلك قيادة الجيش والشرطة، ستكون مؤلفة من النساء فقط؛ وأنه لن يبقى في حكومتها أي رجل، ولو كان سائقًا، أو حارسًا أو جنديًا. هل تتذكرين حضرتك؟ قالت إن النساء بحاجة إلى أن يحكمن وحدهن لبعض الوقت، وفي أثناء ذلك، على الرجال الاهتمام باستعادة قواهم في رعاية أبنائهم والقيام بواجبات أسرية فقط. وهكذا سيستعيدون عافيتهم مما أصابهم من سموم البركان... من نقص ذلك الهرمون... ما اسمه؟

إ. س.: تستوستيرون يا دون خوسية، دخان البركان قلص لديكم مستوى التستوستيرون، هذه هي تسمية الهورمون.

خ. آ.: لا أستطيع حتى لفظه. في الحي يقولون إن اسمه "تيرونا"، ولكن الأمر، كما تعلمين حضرتك، أنهن استبعدن هذه القلة من الرجال دون أي تأثر. لم يبدُ لي ذلك التطرف مناسبًا بأي حال. فحين كان معظم

الوزراء والشخصيات المهمة في الحكومة من الرجال، ظلت هناك على الدوام السكرتيرات، والمحاسبات، ومن يتولين أعمال النظافة، الآن لا يردن لنا أن نشتغل حتى في هذه الوظائف. إذا ما تعطلت سيارة، ثُقبت عجلتها وفرغت من الهواء، سيكون كذبًا القول إن حضراتكن، معشر النساء، ستتمكن من عمل ما يعمله رجل. هناك أمور يمكن لكل منا أن ينجزها بصورة أفضل. وفي هذا الشأن لا مجال للتفكير وتقليب الأمر، أنا لن أدخل في جدال مع زوجتي حول أنواع العصائر المناسبة مع الثلج المبشور، فهي من تعرف اختيار أفضل ثمار الأناناس، ومقدار السكر الذي يجب إضافته إلى الحليب، وكم من الوقت يجب طهوه كيلا يصير كثيفًا جدًّا.

إ. س.: لعلمك فقط يا دون خوسيه، أفضل طهاة العالم هم من الرجال، وعليك أن تتذكر أيضًا أن هذا الإجراء مؤقت.

خ. آ.: ولكنك ترين مقدار الضغينة والاستياء الذي استحوذ على البعض، لا بد أن يكون من أطلق النار على الرئيسة واحدًا من الحاقدين.

إ. س.: ممكن، وهذا ما نريد أن نعرفه، وضِّحْ لي أمرًا يستثير فضولي: كيف تحمل حضرتك اسم خوسيه آريتمتِكيا؟

خ. آ.: أمي كانت امرأة أمية، أرادت أن تطلق عليّ اسم قديس، القديس الذي دفن يسوع.

إ. س.: خوسيه دي أريماتيا؟[1]

خ. آ.: إنه هو في الغالب، ولكنها قررتْ أن اسمه أريتمتِكيا، رأت أن لهذا الاسم وقع اسم شخص ذكي.

إ. س.: دعني أسألك: هل رأيت الرجل الذي أطلق النار؟

---

[1] المقصود يوسف الرامي، أحد تلاميذ المسيح.

خ. آ.: رؤية بمعنى رؤية، لم أره، كنت أحرس عربتي لأنه في مثل تلك التجمعات الصاخبة، مثلما لابد أن حضرتك تعرفين جيدًا، يتواجد دومًا ذوو الأيدي الطويلة، إضافة إلى أن الألعاب النارية تسبب لي حرقة في العينين. والألعاب النارية هي أحد تلك الأشياء التي يراها أحدنا مرة واحدة وكأنه رآها في كل المرات، هل تفهمينني؟ لا تبدو لي أمرًا عظيمًا. ولهذا تقدمت كي أصير بمحاذاة المنصة وأرجع إلى بيتي قبل أن يخرج جميع الناس متدافعين، حسنًا، وكنت أريد المرور قريبًا من الرئيسة، وكان أن رأيتها عندئذ متيبسة، كما لو أنها قد تجمدت، ثم قامت بعد ذلك بتلك الحركة الغريبة التي يقوم بها من يصابون بالرصاص، ارتعش جسدها. عندئذ لم أفكر في الأمر، تصوري، لقد أيقنت أنهم قد أصابوها، صعدت فوق عربتي، وقفزت إلى المنصة، ووصلت حين كانت تتهاوى لتسقط، نظرتْ إليَّ مذعورة، إن بدني يقشعر كلما تذكرتُ ذلك.

إ. س.: من أين أتت الطلقة برأيك؟

خ. آ.: من الجهة المقابلة لها، كان هناك شخص يقف مقابلها تمامًا، وراء الحاجز الشرطي.

إ. س.: هل رأيته؟ أتستطيع تقديم وصف له؟

خ. آ.: لقد التفتُ لأنظر إلى الناس، حين صرت مع الرئيسة، ولأرى إن كان يمكن لي رؤية من هو الفاعل، رأيت أحدهم يختفي بين الناس وكان يضع واقية، قبعة على رأسه، قاتمة بعض الشيء، زرقاء اللون، على ما أظن.

إ. س.: رجل؟

خ. آ.: أظن ذلك، ولكن كل شيء جرى بسرعة، ساد اضطراب وفوضى عظيمان، أكاد لا أصدق ما أقوله، يمكن أن أكون مخطئًا، من الممكن جدًّا، ولكنني الآن، وأنت تلحين عليّ، أظن أنني رأيته، أجل. إذا ما تذكرتُ شيئًا آخر، سوف أخبرك به.

إ. س.: وهل سمعت دوي الرصاصة؟

خ. آ.: (صمت) انظري، الآن وأنت تقولين لي هذا، تذكرت أن ما كان يُسمع هو صوت الأسهم النارية، ولكن لم يُسمع صوت رصاص. أمر غريب، أليس كذلك؟ وأعذريني على التساؤل: ما هي أخبار الرئيسة؟

إ. س.: إنها في المستشفى، وسوف نعلن عن أي خبر، أريد أن أوصيك شيئًا يا دون خوسيه، بما أنك تتجول في كل مكان وتتبادل الحديث مع أناس كثيرين، أيكون كثيرًا الطلب منك أن تأتي إلى هنا بين حين وآخر وتخبرنا بما تسمعه؟ من المحتمل أن يكون هنالك شيء آخر وراء هذا، أتفهمني؟ ولكن من المهم كذلك، مثلما قلت أنت، سماع ما يقوله مواطنون آخرون مثلك. سأعطيك هذه البطاقة، اتصل بي على هذا الهاتف، وإذا كنتُ غير موجودة، اسأل عن النقيبة مارينا غارسيا، وسوف ترد عليك. اتفقنا.

العنبر

أول ما فعلته بيبيانا سانتوس عندما استيقظت هو تلمس صدرها مذعورة. مرت بيدها على أضلاعها وهي تخشى من أن يدها ستتبلل بالدم، ولكنها حين رفعتها كانت نظيفة. يا للأمر الغريب! وكم هو غريب الصمت، صمت قبوري. اقشعر بدنها كله، لم يعد يُسمع صفير سيارة الإسعاف، ولا صراخ الناس، ولا كلام إيفا ومارتينا وريبيكا المتعجل، إنها وحدها، وحيدة بالمطلق. رأت فوق رأسها سقفًا من التوتياء، تتخلله عوارض خشبيه، وأسلاك ثخينة ومصابيح كهربائية يشع منها ضوء ضعيف وأصفر. كيف وصلت إلى هذا المكان؟ وعلى الرغم من غرابة المشهد غير المألوف، لم تشعر بالهلع؛ بل كان شعورها أقرب إلى الذهول، إحساس خامل بالشك وعدم التصديق. انحنتْ ببطء، لا شيء يؤلمني، فكرتْ براحة وارتياب في آن واحد، رأت أمامها ممرًّا طويلًا يحدده بصورة غائمة بريق شاحب ينبعث من مصابيح صغيرة. وعلى جانبي العنبر الطويل والضيق، توجد رفوف خشبية مرتجلة، عليها أشياء مصفوفة لم تتمكن من تمييزها، يبدو أنه قبو، ما الذي تفعله هي في قبو؟ كان عليها أن تكون في المستشفى. فكرت بفزع، خافت أن تنهض واقفة، جلست وقاطعت ساقيها، أغمضت عينيها، وعندما فتحتهما بدا لها أن الضوء صار أشد حدّة. كان العنبر رماديًّا رصاصيًّا، الجدران والأرضية والرفوف تبدو نظيفة بصورة غريبة، لم يكن هنالك غبار على الأقل، لديها حسياسية من الغبار؛ فهو يجعلها تعطس دون توقف، نهاية الممر تُلمح بصعوبة، تساءلت إن كان يوجد هناك باب، لا تلمح في ما وراءه

وجود مخرج، المكان مظلم جدًّا وراء ظهرها. نهضت واقفة ببطء شديد، تأكدت من أنها لا تشعر بألم، وإنما بانعدام توازن غير مألوف وخفيف، وحتى حركاتها بدت أنها ليست حركاتها لشدة انسيابيتها. بعد وقوفها على قدميها، نظرت مجددًا فيما حولها، ظهرت الرفوف التي على جانبي العنبر بصورة أوضح، وجهت بصرها إلى اليمين وإلى اليسار. كانت الأشياء مألوفة، معروفة، وهي متأكدة من أنها قد رأتها ذات مرة من قبل. مشت مجتازة مقطعًا طويلًا من المكان دون أن تتقلص المسافة بينها وبين الباب. فوق خشب الرفوف المرتجلة، رأت حِزَمَ مفاتيح، وكتبًا، وحذاءً، ومنشفة، وخاتمًا، وسوارًا، وآلة لصنع القهوة، ونظارة سوداء، ونظارة قراءة، عدة نظارات، والكثير من المظلات، وحمالات صدر، ومجوهرات ثمينة وأخرى مزيفة، ومستحضرات تجميل، وآلات حاسبة صغيرة ونحيلة، ومحافظ نقود معدنية، وهواتف محمولة، وآلات تصوير، ومصباحًا يدويًّا اعتادت على حمله في محفظتها حين تسافر طيرانًا، تحسبًا لتعرض الطائرة لعطل طارئ واضطرارها إلى إنارة الطريق للخروج من بدن الطائرة المخرب والمدخن، ورأت عدة قطرات للعيون، وعلب مناديل ورقية، وولاعات، كثير من الولاعات وعلب سجائر تعود إلى الزمن الذي كانت تدخن فيه، ومحافظ أوراق نقدية كانت قد سُرقت منها، وشواحن ووصلات كهربائية منسية في الفنادق، ومجففات شعر، ومكاوي سفرية، وملابس ابنتها، ومعطف سيباستيان، وواقيات شمسية، وطاقيات، وقبعات لم تستخدمها قطّ، ومعاطف على شكل عباءات، وأطواقًا من الزمن الذي كانت تحب فيه العقود الثقيلة والملونة، ووسائد وفرش نهايات أسبوع في بيوت أصدقاء، وحقائب، وأطباق موز، وفتاحات علب، وأدوات مائدة، وأكوابًا، وكؤوس نبيذ من تلك التي تُترك مهجورة على الشاطئ، وصورًا في إطارات أو دون

إطارات، ودببة فراء من الزمن الذي كانت فيه مراهقة، وجهازًا للعب لعبة السوليتير، وكريمات لليدين، ومضادات للجراثيم من أجل أزمنة الوباء. إنها أشياء تتذكر أنها ضاعت منها ولم تجدها، كيف وصلت كلها إلى هناك؟ وما الذي تعنيه؟ وفكرت، أماه، كل ما خلَّفته متروكًا ومنسيًّا في الحياة، موجود هنا!

جمعُ تأملات وطرحها

رجع خوسيه ديلا آريتمِتيكا إلى حيِّه وهو يدفع عربته التي يبيع عليها الثلج المبشور مخلفًا وراءه خيطًا من ماء الثلج الذائب. كانت القوارير الزجاجية ترن عند اصطدام إحداها بأخرى، مع التقدم في الشارع المرصوف بالأحجار.

كل شيء كان يبدو له أشبه بأكذوبة، كان يمضي عائدًا إلى بيته مغمومًا، متأسفًا لما حدث، خجلًا، وفكَّر: على أحدنا أن يعترف - حتى لو كان ذلك لا يروق له - بصحة ما تقوله النساء عن أن لدى الرجال نزوة الميل إلى العنف، ما الحاجة إلى إطلاق رصاصة على الرئيسة؟ بالله عليكم!

أيمكن أن يكون دمه عصير لوز، ولكنه لم يفكر قطّ بعمل شيء كهذا، ربما لأنه ترعرع بين نساء - لقد كان الذكر الوحيد بين تسع أخوات - كان شبه أنثوي. لا سمح الله أن يرفع يده على واحدة منهن، لو فعل لقضت عليه الأخريات. أضف إلى ذلك أنه ما كان ليخطر له الإقدام على فعل ذلك قطّ؛ لأنه يحبهن، ويكنّ لهن الاحترام. النساء يَرُقْنَ له، حتى لو كنَّ مثلما هنَّ، لقد شعر في بيته برعايتهن له، وعندما كبر، دفعته غريزة الذكورة إلى حمايتهن، والاهتمام بألا يعترض الرجال الآخرون سبيلهن. أخته الكبرى - وكان هو الثاني - اعتادت أن ترسله لمرافقة الأخوات الصغيرات، وكانت هي والأم والأخريات يعتبرنه "رجل" البيت. يقلن له ذلك ولكنّهن كنّ هنّ من يأمرن، وكن يشغلنه لتعليمه كيف يتصرف كي

يعلم الناس أنهن لسن محرومات من الحماية؛ لأن الأب كان يعمل سائق شاحنة، يسافر طوال الوقت. ذلك التدرب على حماية نساء هو ما دفعه إلى القيام بردة الفعل تلك حين رأى الرئيسة تميل متهاوية إلى الوراء.

اسمي يُضْحِكُكِ، أليس كذلك؟ ولكن لاحظي أن اسمك أيضًا يبدو كأنه مختلق، هذا ما قاله لإيفا سالفاتييرا. إنها امرأة جميلة، نحيلة، لكنها حسنة التكوين، وهي ذات شعر أحمر فوق ذلك، ويُلاحَظ بوضوح أنه اللون الطبيعي، شعر بديع كأنه حريق، والشفتان متقنتان تمامًا. أين كان هو عند إطلاق الرصاص؟ ومن الذي فعل ذلك؟ لاحقته بالأسئلة؛ لأن الطامة الكبرى كانت في عدم القبض على حامل المسدس، مع وجود حشد كبير من الناس، وشرطيات ينظرن إلى أعلى ساهيات، وحين أردن ملاحقة القاتل، كان الوقت قد فات، كثير من الشرطيات كن شابات صغيرات السن بلا خبرة. أضف إلى ذلك أن الرئيسة لم تكن حذرة بما يكفي، تحب المضي طليقة، هذا جميل، لكنه خطير. عسى ألا تدفع تلك المسكينة حياتها ثمنًا لفكرتها عن **التواصل**؛ فقد بدا واضحًا أن حالتها كانت سيئة عند سقوطها على المنصة. لم يدر هو نفسه كيف وصل إليها، لقد قفز فوق عربته ومن هناك إلى المنصة، كما لو أن نوابض قد وضعت في قدميه. هرع ليرى كيف يمكنه مساعدتها؛ لأن الجميع ظلوا جامدين دون حراك بسبب عدم تصديقهم ما حدث. تمكن من الانحناء فوق الرئيسة قبل أن تقوم إيفا سالفاتييرا نفسها بشده من قميصه لإزاحته؛ ولأنه تصرف كسامري طيب، انتهى به الأمر إلى أن يكون مشبوهًا. لحسن الحظ أن الوزيرة، بعد تبادل الحديث معه، وسؤالها حتى عن السبب في أن أمه أطلقت عليه الاسم الذي يحمله، اعتذرت منه؛ بل إنها طلبت منه كذلك أن يتعاون معهنّ.

كان خوسيه ديلا آريتِمتيكا قليل الكلام، يمضي مجرجرًا قدميه؛ فهو الذي نادرًا ما يتعب، يمضي اليوم شبه ميت من التعب، لا يتذكر يومًا

طويلًا مثل هذا اليوم في حياته، وهو يوم لم ينتهِ بعد. بدأت الظلمة تنتشر وراء شبح البراكين المحيطة بالمدينة، وفي السماء؛ حيث تبدو الآن سحب مشعثة آخذة بالتحول إلى شرائط رمادية فسيحة متشابكة، لمح زوجته ميرثيديس عند الباب مع بناتهما. لا بد أن مسألة إنتاج النساء هي شأن عائلي؛ لأن نساء بيته كن خمس، جميعهن لهن أسماء زهور: فيوليت ودايسي وسوسنة وروسا وبيتونيا. الأخيرة، أصغرهن، أشارت إليه بإصبعها فورًا حين لمحته، واندفعت نحوه راكضة، عارضة أن تدفع بنفسها عربة شربات الثلج المبشور كي يتمكن أبوها من التقدم في الطريق دون تلك العرقلة. أشرق وجه زوجته ميرثيديس حين رأته، إنها امرأة طيبة، تزوج بها لأنه حبّلها، ولكنه لم يندم قطّ، لقد كانت أكولة، بدينة، ولكنها ذات وجه جميل وطبع مرح، وديعة وعملية. ترك خوسيه العربة لبيتونيا، وربت بحنان على رأسها شاكرًا. رجال ونساء من الجيران كانوا في الشوارع وعلى الأرصفة، يقفون في جماعات، يعلقون على ما حدث. من المؤكد أنه قد شاع الخبر عن أنه هو من قفز إلى المنصة، وأكثر من شخص قد رآه وهو يحاول مساعدة الرئيسة. بناته جميعهن كن هناك، باستثناء سوسنة التي تعمل شرطية. أحاطت به الأسرة، وكذلك الجيران. ما الذي تعرفه يا دون خوسيه؟ ماذا قالوا لك؟ كيف هي حال الرئيسة، هل أكدوا أنها قد قُتلت؟

- لم يُعرف أي شيء بعد - قال: أرجو المعذرة، ولكنني أريد الجلوس.

ترك جسده يتهاوى على المقعد الذي قدمته إليه روسا، سحب سيجارة، وأطلق شريطًا طويلًا من الدخان، قدمت إليه مرثيديس كأس ماء، وكان باديًا على عينيها أنها قد بكت.

- إنه أمر خطير - قالت: خطير أن يطلقوا النار على امرأة، فهذا يبدو كما لو أنهم يطلقون النار علينا جميعًا نحن النساء، هل ألقوا القبض على من أطلق النار؟

- لا - قال خوسيه: لقد أفلت من أيديهم.

- ليس للأمر علاقة بكونها امرأة - قال أحد الجيران: وكان يرتدي قميصًا فضفاضًا وخفًا أصفر، فهناك على الدوم من يرغب في قتل الرؤساء. كان عليهم أن يفكروا جيدًا قبل أن يضعوا نساءً فقط لحمايتها؛ لأن للرجال خبرة أكبر في هذه الأمور.

- انتبه حضرتك، كيف القول بأنهم يقتلون النساء الرئيسات فقط! - قفزت دايسي منزعجة من تعليقه - وماذا عن الرجال الذين قتلوهم، من كان يتولى حمياتهم. تذكر الرئيس كنيدي.

- فلنر ما الذي سيحدث الآن - قالت فيوليت، ابنة خوسيه ومرثيديس الكبرى، وهي بارزة العظام، صارمة، ترتدي ثوبًا مخططًا بخطوط خضراءِ وصفراء، ولها شعر طويل أشقر مربوط كذيل فرس بشريطة منسولة الخيوط - آمل، على الأقل، أن تُبقي الحكومة القادمة على قاعات الطعام المشتركة ورياض الأطفال.

- ولماذا تعتقدين أن حكومة جديدة ستجيء؟ - قالت دايسي - سوف يكسبن هنّ أنفسهن ثانية، هذا أمر يعتمد علينا.

- أنا أرى أنكن تستبقن الأحداث - قال خوسيه ديلا آريتمِتيكا، متفاجئًا للسرعة التي صار كل طرف يهتم بجماعته.

- وإذا لم يكسبن؟ هل تعتقد أن الرجال سيصوتون لهنّ مرة أخرى؟

- أنا سأعود للتصويت لهن كي تبقين أنتن في عملكن - قال خوسيه، بنصف ابتسامة.

- أما أنا فلا أدري - قال الرجل ذو الخف الأصفر - لقد قمن ببعض الأمور بصورة جيدة، ولكنهنّ قلبن حياتنا نحن الرجال رأسًا على عقب. في السابق لم تكن تتبدل حياة أحدنا عند تغيير الحكومات، أما هذه الحكومة فتدخلت في حياة أحدنا الخاصة.

ـ هذا، بنظري، هو أفضل ما فعلنه ـ قالت فيوليت ـ وهذا ما يسمينه سيادة السعادة، البدء بأن نكون سعداء في البيت.

تواصل النقاش وسط أجواء من الحزن، إلى أن رن جرس قاعة الطعام المجاورة، فمنذ سنة بدأ العمل في الحي بنظام المطبخ الدوار، المتولد من فكرة تخفيف أعباء الأعمال المنزلية، فصارت الأُسر ـ رجالًا ونساء ـ يتناوبون على تحضير العشاء الذي يُقدَّم في بناء مشترك تم تشييده بتعاون الجميع، ويُستخدم كذلك كمَقر اجتماعات وقاعة لدروس القراءة والكتابة. كانت الحكومة قد وفرت مواد البناء بعد أن وقّع سكان الحي عقدًا يلتزم فيه البالغون ممن لا يعرفون القراءة بالمواظبة على دروس محو الأمية. أما الآخرون فيذهبون مرة كل أسبوع إلى جلسات المطالعة؛ حيث يقوم أحد شبان الحي، ممن هم في الثانوية، بقراءة روايات لهم أو الكتاب الذي يقترحه أحد المشاركين.

كان هناك خلال تناول الطعام بكاء على الرئيسة وصلوات من أجلها، وبدلًا من البقاء لتبادل الحديث لبعض الوقت بعد غسل الأطباق وتنظيف المحل، انسحب معظمهم إلى بيوتهم على أمل أن تحمل إليهم نشرة أخبار الساعة العاشرة معلومات عن حالة بيبيانا سانسون الصحية.

انتظر خوسيه دي أرتيمتيكا الأخبار ومعه مرثيديس، يواسيها؛ لأنها كانت تنفجر بالبكاء بين لحظة وأخرى، وتكرر أنها لا تستطيع أن تصدق ذلك، لا تستوعب ما حدث، لكنها نامت في النهاية، وظل هو مستيقظًا يجمع ويطرح التكهنات بسبب عدم وجود معلومات رسمية؛ ففي نشرة الأخبار اكتفوا بتمرير مشاهد لمحاولة الاغتيال ولتجمعات الناس الذين ينتظرون أخبارًا أمام المستشفى.

حمم البركان

في صمت العنبر الثقيل، كانت بيبيانا تمضي متنقلة من جهة إلى أخرى بإعياء، غير قادرة على تفسير سبب وجودها هناك. لقد أطلق أحدهم عليها النار، ولكنها لا تنزف مع ذلك، لا تشعر بألم أو سخونة، أأكون ميتة؟ لا يمكن لها أن تكون ميتة وهي تشعر على هذا النحو، بكل هذا الوعي. ما الذي أفعله هنا؟ كيف أخرج من هنا؟ وسيليستي، مع من هي سيليستي الآن؟ فكّرتْ بأنه عليها أن تهدأ. أن تنتظر هادئة، ربما يكون حلمًا، حالة إغماء. تساءلتْ إذا ما كان هنالك نظام ما أو هدف معين من تراكم أشياء ضائعة أو منسية، اقتربت من الرف الذي إلى اليسار، رأت نظارة شمسية، ووشاحًا حريريًا، وفردتي جزمة بيضاء، وحفنة مفاتيح، وإحدى صخور مارتينا. ابتسمت، إنها قطعة من حجر بركاني، وقد تولت مارتينا المُحبة للمزاح تحويله إلى نوع من الرمز للذكرى: الحجر ملصقٌ على مربع خشبي، وقد أضيفت إليه صفيحة معدنية صغيرة كُتب عليها: "نحن ممتنات جدًّا"، إنها حُمَمة النصر، قالت لهنّ مارتينا وهي تقدم قطعة حجرية لكل واحدة من النساء الخمس.

تناولت بيبيانا بين يديها الحجر الذي يحمل ذكرى انفجار بركان ميتري.

يا لسخريات التاريخ، فكرتْ؛ إذ كانت قد أعلنت أن مهمة حزب اليسار الإيروتيكي ستكون "تحميم"[٢] البلاد، غسلها وتنظيفها وتلميعها،

---

[٢] هنالك تورية في استخدام فعل lavar (غسل)، وكلمة lava (حمم بركانية)، فاستخدمتُ (تحميم، من حمّم) بدل (غسل) للحفاظ على التورية.

ولم يدر بخلدهن قطّ أن الطبيعة الأم ستقدم لهن تلك الخدمة العظيمة، بخلق ظاهرة حمم بركانية غسلت وحَمَّمت، حرفيًّا، الطريق للانتقال من الحلم إلى الواقع.

حين ضغطت على ذلك الشيء أحست بدغدغة خفيفة في أصابعها، وفجأة أحاطت بها الذكرى كصورة ثلاثية الأبعاد يمكن مراقبتها من الداخل ومن الخارج. الضوء، الروائح، الزمن الذي تستحضره يتجسد في ما حولها، وأحست فجأة بأنها قد قُذفت إلى بلد ذاكرتها.

كانت تنظر إلى قدميها، إلى صندلها الذي بلون القهوة، تنورتها الصفراء، البلوزة البيضاء المفتوحة التي كانت ترتديها في ذلك اليوم، عند دخولها إلى بيت حملة الحزب الانتخابية. البيت الذي استأجرنه كان قديمًا بعض الشيء، لكنه واسع وحميم، مع فناء ينمو فيه عشب أخضر محاط بشجيرات ذات أوراق متعددة الألوان. وللبيت واجهة على الطراز الكولونيالي وممر بأقواس مقنطرة، في الطابق العلوي، توجد الحجرة الكبرى ذات الشرفة، وهي غرفة مكتبها.

اجتازت غرفة المعيشة الأسريّة التي حوّلنها إلى قاعة مؤتمرات، نظرتْ إلى ملصقات الحزب على الجدران، ودخلت إلى الاجتماع. على خريطة فاغواس المفتوحة فوق السبورة الكبيرة، كانت مساعدتها خوانا دي آركو، تضع دبابيس ملونة، بينما كانت هي نفسها، مع مارتينا وإيفا وريبيكا وإيفيخنيا يتبادلن النقاش حول المسار الذي ستتخذه الجولة الانتخابية. معلومات إحصاء الناخبين الأخيرة تركز على البؤر السكانية الكبرى، ولكنهن كنّ قد قررن زيارة الدساكر النائية، والوصول إلى حيث لا يصل أحد.

ـ الذهاب إلى حيث لم يصل رجل من قبل *To go where no man has gone before* ـ قالت مارتينا ـ كما في "رحلة إلى النجوم" *Star Trek*.

ـ لقد كانت أمي من المتعصبين لهذا البرنامج: "نحو النجوم" ـ قالت إيفا مترنمة بمطلع موسيقى البرنامج.

كيف أمكن لها أن تكون في جسدها الذي كانت عليه آنذاك، وأن تكون خارجه في الوقت نفسه، تنظر إليهن؟ تساءلت بيبيانا، مدت يدها مخترقة بلوزة ماريانا. وقالت لنفسها: إنني أرى ذكرى، أراها كإسقاط ضوئي، أرى صورتي، ولكنها مجرد ذكرى وحسب، فكرت في أنها لا تستطيع عمل شيء آخر سوى الغرق في ماضيها، والعودة لعيشه مجددًا.

كن يضحكن حين سمعن صوت هزة قوية تصعد من باطن أقدامهن، أصبن بالذهول معًا، وتأهبن للاندفاع نحو الباب من أجل الركض نزولًا على الدرج، أحست بيبيانا بدفقة أدرينالين بفعل الخوف الحيواني الذي توحي به إليها الهزات الأرضية.

ـ لم يتحرك أي شيء ـ قالت إيفيخنيا ـ إنها أشبه بهزة أرضية، ولكن لم يتحرك أي شيء.

نظرت بيبيانا إلى الساعة: إنها الثالثة وعشر دقائق مساء.

ـ إنها هزة سماعية ـ قالت، متنفسة، ومبدية طمأنينة لا تشعر بها ـ شيء غريب، ولكن فلنتابع.

عادت خوانا دي أركو بدبابيسها، بدأت بتساؤلات أين، وكيف، ومع من وسبب كل زيارة. بعد دقائق، زمجرت الأرض من جديد، لكن المنضدة اهتزت في هذه المرة، وكذلك الكراسي، واهتز البيت بكامله كما لو أن قشعريرة عنيفة قد اجتاحته. لم يخرجن راكضات، تبادلن النظرات، أمسكتها مارتينا من يدها، ضغطت عليها بقوة. دخلت واحدة من الفتيات العاملات ضمن فريق الدعم ممتقعة الوجه، هل شعرتن بالهزة؟، سألتْ كما لو أنه لا يمكنها تصديق أنهن ما زلن هناك غير متأثرات.

ـ هدوء ـ أشارت بيبيانا بإيماءة للتهدئة، على الرغم من أنها كانت تسمع بأذنيها دوي نبضات قلبها ـ لا تركضن، امشين.

صعدت إيفا إلى مكتبها لتأتي بالمذياع آملة سماع بيان ما من مكتب الجيولوجيا الذي يشرف على شبكة الزلازل، تناولت إيفيخنيا لوحها الإلكتروني المحمول وقالت إنها ستستطلع الأمر على شبكة الإنترنت.

ـ إنه بركان ميتري ـ قالت إيفي.

دخلت إيفا حاملة المذياع مشتعلًا، كان يبث بيانًا يخبر الأهالي بأن هنالك أصوات دوي تُسمع وعمود دخان أسود يتصاعد من مكان قريب من البركان. قالت بيبيانا إنه من الأفضل حفظ الأوراق؛ لأنه لا جدوى من مواصلتهن الاجتماع، لقد فكرتُ بسيليستي، وبكونسويلو، وكما لو أنهن قد اتفقن معًا، فتحت هي وإيفيخنيا وريبيكا هواتفهن الخلوية. فثلاثتهن لهنَّ بنات وأبناء.

قمم فاغواس العالية ليس لديها أمير صغير ينظف مداخنها بصورة دورية مثلما يفعل ذلك الأمير ببراكين بلده الصغيرة؛ ولهذا فإن براكين فاغواس تنظف نفسها بنفسها، باصقة حممًا ورمادًا. بركان ميتري هو نموذج بديع جدًّا واظب طوال قرون، كمخروط صلب الجلد، على حراسة المدينة، لقد كان البركان مصدر أساطير في فاغواس. مؤرخو بلاد الهند الأمريكية الإسبانيون لاحظوا هروب المستوطنين الإسبان من أولى المستوطنات في القرن السادس عشر بسبب نشاط بركان ميتري؛ فبعد شتات فوضوي في عربات وعلى خيول، استقر المستوطنون على ضفاف البحيرة وأقاموا هناك عاصمة البلاد، لم يذهبوا بعيدًا جدًّا؛ فمن المدينة التي أسسوها، وحيث لا تزال، يُرى بوضوح المخروط الرمادي المتقن والملطخ هنا وهناك بعروق ضاربة إلى الحمرة، مثل راصدٍ في الأفق، ميتري يصطاد سُحبًا، يلفها حول عنقه، ويتباهى بشالات وردية وأرجوانية طويلة مع شمس الغروب.

ولكن ميتري تخلى في هذا المساء عن دوره الوديع كمشهد خلفي، ولكي يثبت أنه حي ويتحرك امتلأ بعروق حمراء تخطه من الذروة إلى أسفل ونفث من فوهته ـ على مراحل في أول الأمر، كما لو أنه يتدرب على النفخ، وبعد ذلك كتنين غاضب من العصور الوسطى ـ سحابةً كثيفة وقاتمة، تتخللها هنا وهناك خطوط نار نحيلة.

بدأ المذياع يبث صفير الطوارئ المميز، وتحدث مذيع هيستيري عن إخلاء أقرب المناطق والبحث عن ملجأ من سحب الغازات.

أطلت بيبيانا من النافذة، لقد بدأت الظلمة تخيم على السماء الملبدة، وخلال أقل من خمس عشرة دقيقة، اختفت سماء الساعة الثالثة مساء دون أن تخلّف أثرًا؛ ولأن بيبيانا تكره الشعور بالعجز، راحت تتحرك.

ـ فلنغلق المكتب ولتأتين جميعكن معي إلى بيتي ـ أمرتهن متوترة.

إنها تعيش فوق الجبل، في المنطقة المرتفعة، ومن المنطقي التفكير بأنهن سيكنّ هناك أكثر أمنًا من وجودهن في وادي المدينة، كانت قد رتبت مع أمها أمر إحضار سيليستي من المدرسة.

باستثناء إيفي وريبيكا اللتين ذهبتا إلى بيتيهما، للانضمام إلى أبنائهما وزوجيهما، ركبت الأخريات سياراتهن بعصبية وخرجن وراءها، وجدن صفوفًا طويلة من السيارات تتحرك ببطء للخروج من المدينة، وعند وصولهن أخيرًا إلى البيت، دخلن متعجلات. عانقت بيبيانا ابنتها سيليستي وأمها، كان الظلام دامسًا وكثيفًا ورائحة كبريت تعبق في الجو، نفضن عن شعورهن الرماد الذي كان أشبه بثلج رمادي متطاير يغطي السطوح، وهياكل السيارات والشوارع.

ثلاثة أيام استمر الليل الذي بدأ ذلك المساء، ولثلاثة أيام ظلت البلاد بأسرها غارقة في سواد سناج وبيل، وإن كانت غازاته لم تقتل أحدًا، إلا أنها اضطرت الناس إلى التزام بيوتهم وغلي كميات كبيرة من الماء لترطيب الجو وغسل المجاري التنفسية والرئات بطريقة ما.

في صالون بيتها، وحجرة النوم والاستوديو، فوق صوفايات وبطانيات، استقرت إيفا ومارتينا وخوانا دي أركو وفتيات المكتب الأخريات. كان لا بد من تحضير طعام، وإلهاء سيليستي عن القلق من المدى الذي ستبلغه الكارثة غير المتوقعة. اتصلت ريبيكا وإيفيخنيا وأبلغتا أنهما قد وصلتا سالمتين ومعافيتين إلى بيتيهما. لم يبق أي شيء سوى الانتظار. الانتظار والبقاء متعلقات بالمذياع والتلفاز. من حجرتها كانت بيبيانا ترى البركان، وكانت تعتبره حتى تلك اللحظة شيئًا جميلًا، جزءًا من مشهد لطيف يبهج تأملها له ساعات الغروب. وفكرت، ربما أنه الآن أجمل وهو في ثورته، وفي كشفه عن هويته كمرجل، وقذفه ومضات نار ذائبة تنعكس في منتصف الليل. ومع ذلك، في أية ساعة شؤم خطر له أن يستيقظ ويثور! المثير للفضول أن ما كان ينهشها ليس الخوف وإنما الجزع، فمستقبل حياتها السياسية صار الآن بين يدي البركان. أحست بأنها أنانية، سخيفة، لقلقها من أن يكون في ذلك نهاية لحملتها الانتخابية أو فأل شؤم. ـ يجب ألا نكون متشائمات ـ قالت مارتينا التي انهمكت في مواساة خوانا دي أركو؛ إذ إن الفتاة دخلت في صمت أبكم لا يمكن لأحد أن يخترقه. إنها حالة تحدث لها أحيانًا، ولكن لدى مارتينا طريقتها لطمأنتها؛ فهي تعاملها كطفلة، فتنصاع لها وتواصل التدخين دن توقف.

أما إيفا التي كانت سكونًا مذهلًا، فراحت تساعد كونسويلو في الطبخ، وغلي الماء.

في اليوم الرابع، بدأت غمامة الدخان بالتراجع وتبدل لون ذلك العمود الدخاني إلى الرمادي، ثم إلى البني الفاتح وبعد ذلك إلى الأبيض. بدأت السماء تصحو، وعادت العقلانية إلى صوت الصحفيين الهستيريين. لحسن الحظ أن البركان لم يفقد زمام أعنته، ففضلًا عن الظلمة الكثيفة،

أدت ثورته إلى انسكاب حمم اقتصرت على تخريب مزروعات وبيوت ريفية مجاورة. وعلى الرغم من أن الحدث قد حُفظ في الكلام الشعبي على أنه "انفجار ميتري"، إلا أنه لم يكن كذلك؛ فسلامة المدن الكبرى لم تتأثر. ولدى رؤية الريبورتاجات التلفزيونية التي أحصت الأضرار، وصور ناس فقراء يجري اقتيادهم كقطيع إلى ملاجئ خيام بلاستيكية سوداء، تأثرت بيبيانا وقالت: فلننضم إلى الذاهبين إلى مخيمات اللاجئين، حمّلوا مياهًا ومؤنًا وبطاطين جمعوها من الأصدقاء والجيران. زارت رئاسة هيئة أركان حزب اليسار الإيروتيكي (ح.ي.إ) PIE القرى القريبة من البركان، وهناك، تحت شمس لا ترحم، في أراض بور، وجدوا الناس يهيمون على وجوههم دون وجهة محددة بين الخيام الجهنمية التي ستكون - لمعرفتهم بحكومة فاغواس - بيوتهم لزمن طويل. زوابع الغبار التي تحملها هبات الريح من الأرض الجافة تهيج الرئات. أطفال ورجال ونساء، وسط نوبات سعال، يتبادلون المواساة ويعاون بعضهم بعضًا، بينما وجوههم وأجسادهم وحتى رموشهم ملطخة بسواد الرماد والغبار الذي يجعلهم أشبه بالزومبي. بالكاد لديهم ما يأكلونه، لا وجود هناك لماء صالح للشرب. تأتي سيارة صهريج في الصباح، فيصطف الناس في طفوف طويلة ليأخذوا الماء في دلاء لتغطية حاجاتهم الضرورية، وهناك تتفشى الأمراض المعوية واليأس.

خرجن من هناك مكتئبات، يُثقل عليهن الإحساس بالعجز لعدم قدرتهن على تقديم ما هو أكثر من كلمات العزاء، وحضورهن.

ولعدم توافر أية موارد أخرى، ولغضب بيبيانا وهي ترى لامبالاة الحكومة حيال المأساة؛ ولأنها كانت قد أدارت، حتى بداية حملتها، برنامجًا تلفزيونيًّا ناجحًا، فقد عمدت إلى تجنيد فنانين وكوميديين ورياضيين، ونظمت ماراتونًا تلفزيونيًّا لجمع أموال للمتضررين. ومن جديد، كما في مناسبات أخرى في تاريخ فاغواس، انتهى الأمر

بمساعدات التعاون الدولي المخصصة للغوث، لتقع في أيدي موظفين عموميين، أو مقربين من السلطة، تحولوا بين ليلة وضحاها إلى أثرياء، وشيّدوا بيوتًا فخمة، سواء في المدينة أو على الشاطئ.

أما هنَّ فلم يتصورن قطّ، في تلك الأيام، أهمية الهدية التي قدمها لهنَّ البركان.

ولم يتوصلن إلا بعد مرور أسابيع إلى معرفة المفعول المثير للفضول الذي خلَّفته السحابة السوداء. فريبيكا وإيفيخنيا، المتزوجتان، أخبرتا عن حالة نعاس غريبة تصيب زوجيهما. "يبدو كما لو أن ذبابة تسي تسي قد لسعته"، هذا ما قالته ريبيكا بذهول. أما إيفيخنيا من جهتها، وهي أقل تكتمًا على علاقتها الحميمة، فوصلت إلى مكتبها في بيت الحملة وأطلقت الحكاية: لن تصدقي ما سأقوله يا بيبيانا، خلال بهلوانياتي في الفراش مع مارتين، وبينما كنت أقوم بواحدة من تلك الحركات التي تروق له أكثر من أي شيء آخر، ويكون لها تأثير السحر عليه، لاحظتُ شيئًا غريبًا، رفعتُ رأسي... وماذا تظنين؟ كان نائمًا، منتهيًا، أتصدقين هذا؟ يا له من أمر غريب.

انهيار الليبيدو لدى الرجال هو ما أعطى إشارة علمية إلى أن شيئًا غير طبيعي يحدث. تمت استشارة الألوية الطبية التي تقدم الرعاية للاجئين، وبعد إجراء الفحوص المناسبة، تبين بالفعل أن المؤشر الطبيعي لهرمون التستوستيرون الذي يجب أن يكون لدى الرجال من ٣٥٠ حتى ١٢٤٠ نانوجرام في الديسليتر، لم يسجل سوى نسبة ٥٠ أو ٦٠ نانوجرام فقط في عينات أُخذت من رجال من كافة الأعمار، وفُحصت في فاغواس. وقد أشارت تجارب مخبرية جديدة ومعقدة إلى أن غازات البركان هي سبب التأثير الحميد غير المتوقع الذي أدى إلى وداعة ذكورية في فاغواس، لم يُعرف لها مثيل من قبل قط.

ـ سوف أؤمن بالله! سوف أؤمن بالله! ـ راحت مارتينا تصرخ في الشهر الأخير من الحملة الانتخابية.

فما حدث، ما بين وداعة الرجال وبلاهة الحكومة، أن حزب اليسار الإيروتيكي قد تمكن من الوقوف في صدارة استطلاعات الرأي.

رفضت بيبيانا عزو انتصارها إلى بركان ميتري، وكانت تفضل التفكير في أن حملة حزب اليسار الإيروتيكي (ح.ي.إ) لم تقتصر على تحدي نظام رجل وامرأة، وإنما توصلت إلى جعل الناخبات (وهن أكثر من نصف الناخبين) يلمحن أخيرًا حلم مساواة قادرة على حملهن على الثقة بمخيلة (ح.ي.إ) وتكليفه بمهمة تحقيق أحلامهن. ولكنها في الأمسيات، مع ذلك، وبينما هي تتناول كأس نبيذ وتتطلع إلى البركان المنتصب في المشهد، كانت ترفع كأسها وتوجه إليه غمزة امتنان، وقد كانت تلك الإيماءة هي التي دفعت مارتينا إلى التقاط أحجار من حمم البركان وتركيبها على قطع خشبية كتذكار.

العجز في مستوى التستوستيرون في بلد شبه أميّ خلّف تداعيات عديدة، أكثرها شططًا تسمية الهرمون الذي تسبب في الاسترخاء الذكوري؛ إذ أطلقوا عليه: تينسيونتيرونو، تيتاستيرون، تيداستيرون، تيسونتيرون، تيراتيرونا. لقد تحول التستوستيرون إلى الكأس المقدسة، والصوف الذهبي لمسوخ فاغواس. جميع الرجال يريدون عودته ويخرجون بحثًا عنه في البر والبحر والأسواق، في الفضاء السيبراني وفي الصيدليات.

أعادت بيبيانا الحجر إلى الرف وهي تبتسم مذهولة بذلك الإعجاز الذي حملته إليها الذاكرة بصفاء، كما لو أن ذلك الشيء قد احتفظ بداخلها قطعة من الزمن، أو رِقًّا مطويًّا يمكن له أن ينفتح ويطوى من جديد على روائح ماضيها وأحاديثه وأحاسيسه.

مارتينا

شكرت خوانا دي أركو التي دفعت بها كي تُدخلها إلى الحمَّام. أقفلي الباب بالمفتاح ولا تخرجي من هنا، قالت لها الفتاة، بعد أن رأتها تهيم على وجهها مثل روح محزونة. لم تكن خوانا لتتقبل التكلف والتغنج في ذلك اليوم، فبينما هي بملابسها السوداء، مع تسريحة البانك والأقراط التي تحاذي، من أعلى إلى أسفل، قوسيّ هلال أذنيها الدقيقتين. لقد أنقذتها من حصار الصحفيين والأصدقاء، ومن رجال ونساءْ ملأوا ممرات المستشفى يسألون عما حدث. جميعهم يريدون أن يعرفوا بينما لم تعد هي تجد ما تقوله. لا يمكن معرفة أي شيء قبل أن يخرج الأطباء من غرفة العمليات التي أدخلوا إليها بيبيانا راكضين.

الحمَّام يعبق برائحة المُعَقمات، أدركت أنه حمام للعاملين في المستشفى بسبب وجود علب مواد طبية: قفازات، مناشف، أكواب من أجل عينات فحص البول، جميعها مكومة إلى جانب الجدار، أغلقت غطاء كرسي الحمام وجلست فوقه. وجودها وحيدة هدَّأ من روعها؛ فهي ليست هادئة بطبعها. لديها طاقة فائضة: مئتان وعشرون أمبيرًا لبلاد يمكن أن تدار بمئة، إذا تطلب الأمر. منذ طفولتها وهي على هذه الحال: مفرطة النشاط على حدّ قول الأطباء، وشيطانة حسب رأي الراهبات ورئيستهن. حاولت الخروج من هناك ذهنيًّا، استخدمت خدعتها بتخيل أنها في قطار. إنها تسافر في قطار، متحركة بأقصى سرعة دون حاجة لأن تتحرك. مسافرة في قطار عبر الألب إلى بيتها في كرايستشيرش، كم هي بعيدة نيوزيلندا، "الفلاة" كما تسميها بيبيانا، وهي الوحيدة القادرة

على جعلها تعود إلى فوضى بلاد مولدها، المالكة الوحيدة لماركة الشمع التي استخدمها أوليسيس في إغلاق مسمعيه. ولولا المساعي التي بذلتها بيبيانا، لكانت قد استجابت راضية لتأثير الحوريات، أولًا لأنهن يرقن لها، وثانيًّا لأن ترك الجوهرة الخضراء التي هي تلك البلاد الهادئة المسماة نيوزيلندا كان مؤثرًا بالنسبة إليها. لقد أتاحت لها نيوزيلندا أن تكون من هي، والتخلي عن التظاهر بأن الشبان يروقون لها، دون أن تشعر بسبب ذلك بأنها تعبق برائحة كبريت، وبأنها منحرفة أو غير سوية، كما يروق للراهبات تسمية الصغيرات مثلها، ممن لا يمكن للسينما أو قراءة الأدب، مهما حاولن، أن تجعلهن يتلهفن إلى الشبان الوسيمين الذين يتواجهون في مبارزات بالسيف من أجل حبيباتهم. لقد كانت رومانسية، ولكن بطريقة أخرى. رومانسيتها تتغذى على التواطؤات الوحيدة والخاصة بجنسها نفسه، في توافق روحي وجسدي لا يمكن أن يتشارك به سوى شخصين من الجنس نفسه، يملكان الأجهزة الجسدية والذهنية نفسها. لحسن الحظ أن كونها "جاي" gay لم يعد أمرًا جديدًا في هذه الفترة من حياتها. لقد كانت عملية طويلة؛ ففي بلدان مثل فاغواس ما زال كثيرون يرغبون في تغطية عيونهم، بينما صار آخرون كثيرون يعلنون مثليتهم في هذه الأزمنة؛ حيث تتواصل مأساة الحفاظ على الأحكام المسبقة.

أريد إحداث وزارة لا وجود لها في أي مكان آخر ـ هذا ما قالته لها بيبيانا ـ وأنتِ مرشحتي لتكوني الوزيرة. ضحكت مارتينا، لكنَّ بيبيانا بادرت إلى شرح فكرتها بأنه ستُوجد في حكومتها وزارة للحريات غير المشروطة، هيئة مكرسة لاستحداث قوانين، وسلوكيات، وبرامج تربوية، وكل ما هو ضروري لترسيخ احترام الحرية المصانة للنساء والرجال ضمن المجتمع. الناس في فاغواس يعتقدون أنهم أحرار لأنهم لا يتعرفون

على الأقفاص الموجودة في رؤوسهم، وشخصية مثلك، مبدعة ومنطلقة ولا تعرف الخوف، يمكن لها عمل الكثير لجعلهم يفهمون الحرية؛ لأن الحرية في نظر كثيرين هنا تعني عدم الوجود في السجن، وحين أقول سجن أعني حيث توجد قضبان حديدية وحراس عند الباب.

بينما هي في الحمام، في تلك اللحظات، شعرت مارتينا بالحنين إلى البحيرة الصغيرة المجاورة لمشروعها التجاري **"سرير وفطور"** bed and breakfast في نيوزيلندا البعيدة، وإلى الأغنام، ومشاوير المشي، والصمت. أحست بالندم لعودتها إلى فاغواس، وانغماسها في مغامرة حزب اليسار الإيروتيكي. يا للخراء، كيف سمحتُ لبيبيانا بأن تقنعني؟ إنكِ نذلة - أنَّبت نفسها - لحسن الحظ أنكِ أمضيت وقتًا سعيدًا. لا تتراجعي الآن واخرجي هاربة على إيقاع لحن الفرار؛ ولكنني جبانة - ردتْ على نفسها - وبكل فخر. الجبن علامة صحة في فاغواس؛ حيث كان تقديس البطولة، لسنوات طويلة، يشجع الناس على الموت في سبيل الوطن. لقد كان الاستشهاد مرضًا يتكرر منتقلًا من جيل إلى جيل، وكان الموتى محترمين بينما لا يساوي الأحياء قلامة ظفر. رجاءً... العالم يسبقهم بسنوات ضوئية بينما هم لا يزالون متعلقين بهذا النوع من مضاجعة الموتى. أهي ذكورية إلى هذا الحدِّ ثقافة عبادة الموت! فالجنود المعروفون، وحتى أولئك المجهولين، أقيمت لهم على الدوام أفضل النُصْب التذكارية والشعلات الدائمة، والمسلات، وأقواس النصر. النساء يدفعن ويدفعن ليُخرجن إلى النور أطفالًا، ويصنعن من أحشائهن قلوبًا شجاعة، يربين ويغذين هؤلاء الرجال المستعدين جدًّا للموت، وبشق النفس تُقام لهم أخيرًا تلك النصب التذكارية القبيحة والمثيرة للشفقة في أشد الحدائق إثارة للضجر.

ولكنها شُجاعةٌ مثل أي ميت، لا تريد أن يقولوا لها إن العيش في سبيل الوطن أقل كلفة من الموت من أجله. **وطلب بيبيانا منها** أن تنظم وزارة

الحريات غير المشروطة، هذه الوزارة الوحيدة في العالم التي أمرتها باختراعها، أدخلتها في أزمة لمعرفتها أنه سيكون عليها أن تقول لا، مع أن قول نعم يكون مُلحًا. ولم يكن صحيحًا أنها نادمة لتركها نيوزيلندا، فردوس **سيد الخواتم** وجميع الأفلام التي تحتاج مشاهد شاسعة غير مأهولة. لقد فعلت ما أرادت فعله هناك، ولكن ذلك ليس له أي علاقة بالمنبر التحريري الذي أقامته بمثل لمح البصر في فاغواس، والذي تبشر من فوقه - مثلما تبشر أي إنجليكانية بالعهد الجديد - بنهاية التمييز بسبب العرق أو اللون أو الدين أو الهوية الجنسية. إذا كان كل شيء ممكنًا في نيوزيلندا، فإنه ممكن أكثر في فاغواس؛ لأن التخلف، وواقع أن لا أحد يولي اهتمامًا، هما فرصة نافعة حين يتعلق الأمر بتجارب اجتماعية؛ ففي بلدان مثل فاغواس، انتقلت من يد مستعمر إلى يد آخر، ومن الاستقلال إلى الخضوع للزعماء المحليين، مع فترات قصيرة من الثورات والديمقراطيات المخفقة، لم يكن الناس الذين يفترض أنهم متعلمون يعرفون جيدًا مما تتكون الحرية، وأقل من ذلك معرفتهم بالديمقراطية. فالقوانين غير كاشفة؛ لأن أشباه الحقوقيين المدعين احتكروها وفق أهوائهم ورغباتهم.

لكن ذلك الفراغ بالتحديد هو الحيز الذي يمكن من أجله إدخال الواقع الجديد. ولم تُضع مارتينا الوقت؛ فهي من أدخلت الجدل الذي قاد إلى إطلاق المشروع الرائد للناخبين المؤهلين. درست أبحاثًا حول الديمقراطية، منذ الإغريق حتى الديمقراطية الإنجليزية، وكذلك أشد اليوتوبيات تجاوزًا للحدود أو خداعًا، لتستخلص المعادلة التي ظنت أنها ستقربهن من نموذج الجمعيات العامة الكبرى في أثينا.

تغيير عالم الذكورة كان فكرة أخرى من أفكارها، وهي الفكرة التي لم تستطع ترويجها بعد؛ فقد أعدت مع إيفا وريبيكا تصنيفًا معجميًّا يستبدل صيغ التذكير بصيغ التأنيث أو صيغ محايدة.

لم يكن هذا التحوير سيئًا على السمع، وكنّ يستخدمنه في المراسلات الرسمية وهن مدركات أنه تحوير يحتاج إلى وقت طويل كي يترسخ.

أما ما فُرض فرضًا فهو وضع حدٍّ للغة العداء أو استخدام كلمات تحط من قدر المرأة - وتُحقِّر تنوعات الجنس البشري -، واستخدام ألفاظ "شواذ"، "مخنثين"، "خنازير"، "بِط"، "سحاقيات"، على سبيل المثال.

فقوة القانون - قالت متعللة في الجمعية العامة - ضرورية من أجل تصور عالم بلا انقسامات، عالم مساواة فعلية بين الأجناس.

وقد كانت مارتينا هي من أطلقت كذلك حملة فريدة من نوعها في التربية المواطنية. بتقنيات التكرار والإشباع نفسها التي يُروج بها الصابون أو المشروبات أو الأفلام، ووضعت في ممراتْ محلات السوبرماركت، وعلى الحافلات، وعلى أكياس وأوراق صَرِّ المنتجات الاستهلاكية، شعارات المفاهيم الأسياسية للمُوَاطَنة، وكان تجديديها الأهم هو استخدام صيغ التأنيث للعموم وإدخال مصطلح المواطرعائية، بدمج المواطنة والرعاية la*Cui*dadanía، بدل مصطلح المواطنات والمواطنين، باعتبارهم الرعاة، رعاة الوطن، وهي فكرة أخذتها عن جماعة نسوية إسبانية (أن تكوني راعية/ مواطنة cuidadana يعني أن تدفعي الضرائب، أن تكوني راعية/ مواطنة يعني أن تتحسسي أوضاع حيّكِ، أن تكوني راعية/ مواطنة يعني أن تهتمي بصحتك).

التربية من أجل الحرية، مثلما تسميها هي نفسها، عمل آخذ بالصعود. فبعد كثير من الحكومات المتسلطة، علّمت الحاجةُ الناسَ الحفاظ على البقاء وهم على وشك حبس أنفسهم في أقفاص، ولكن ليس دون أن يسألوا قبل ذلك: ماذا ستعطيني إذا ما دخلتُ بنفسي إلى القفص؟ وجدتْ صعوبة في أن تصدق، ولكن كم هو صحيح ما قالته لها بيبيانا متهجية خلال الحملة الانتخابية: ذهنية هذه البلاد هي ذهنية امرأة تابعة ومُستغلة.

أتدركين ذلك؟ ولهذا سوف ترين كيف أن الرجال أنفسهم سيصوتون لها. وهذا ما حدث؛ فقد توصلن إلى جعل الكثير من الرجال يرون أنه لن تكون سيئة فكرة رعاية البلاد والعناية بها كما لو أنها بيت كل واحد منهم. وباستطاعة أي منهم أن يفهم الحجة عندما تُشرح له جيدًا، وقد كانت بيبيانا قادرة على التواصل بصورة استثنائية، وكانوا يحترمونها. لقد لعبت بلا خوف في بلاد جبانة، وكانت الشجاعة والجرأة مُعدِيتين مثل الزكام. كان يكفي رفع غطاء طنجرة الضغط التي مضت عليها سنوات، وهي تطهو نفسهاِ في مرقها بالذات كي يُفلح الأمل بنشر رائحته حاملة عبق الكزبرة والنعنع.

أي جميل قدمه لهن البركان! من المؤسف أنه لا يمكن لهن استغلاله أكثر بين وقت وآخر، ولا يمكن تعليب تلك الغازات وحفظها. لقد استمر مفعولها حوالي سنتين، جرى خلالهما تعديل الدستور، وأقيم نظام - على الرغم من قصوره - يضع النساء والرجال على قدم المساواة بصورة غير المسبوقة حتى ذلك الحين.

لم تؤثر عودة هرمون التستوستيرون على الجميع بالطريقة نفسها؛ فقد كان هناك من طالبوا، بعنف، بمكانتهم كسادة ومالكين، ولكن مارتينا كانت تظن، حتى يوم محاولة اغتيال بيبيانا، أن أولئك الأشخاص سيجدون أن المجتمع لم يعد هو نفسه، وحتى زوجاتهم لم يعدن هنّ أنفسهن. ويبدو أنها كانت على خطأ؛ ففي اجتماعات المجلس، كانت إيفا تبدو قلقة منذ شهور بسبب تزايد عمليات قتل النساء، والاغتصاب والنزاعات المنزلية.

نهضت مارتينا، غسلت وجهها، لم تكن راغبة في مجرد التفكير بنهايات كارثية. لم تكن تتصور وجود حزب اليسار الإيروتيكي من دون بيبيانا، فمقولة ليس هناك من هو لا غنى عنه مقولة كاذبة؛ لأن بيبيانا

كانت لا غنى عنها. كانت هي من تجرأت، بكل ثقة، على إمكانية قلب الواقع رأسًا على عقب لأنه في نهاية المطاف ليس إلا بنيانًا مثل أي بنيان آخر.

ابتسمت وهي تتذكر وجه ريبيكا، عندما طلبت بيبيانا ورقة بيضاء ورسمت راية للحزب: أثر قدم نسائية محددة بالأسود وبأظفار مطلية بالأحمر. تذكرت كيف كانت الرايات تخفق في كل أنحاء البلاد خلال الحملة الانتخابية، كنّ ينطلقن في السيارة ويضحكن لدى مرورهن بالبيوت ورؤيتهن الرايات ترفرف مع الرياح. سكبت مزيدًا من الماء على اللحم. لا تريد أن تبكي؛ فقدَ طلبت منهن بيبيانا أن يخرجن جميعهن باكيات في التلفزيون، أن يضخمن كل شيء عند التفكير فيه نسويًّا، وأن يفعلن ذلك إلى درجة الاستهزاء كما كانت تتخيل. لقد أمضينا أوقاتًا كافية من الندم على كوننا نساء ـ كانت تقول ـ ومحاولة إثبات أننا لسنا كذلك، كما لو لم يكن كوننا نساء هو مصدر قوتنا الأساسي، ولكن كفى لن نبقى كذلك لمزيد من الوقت: سوف نتناول كل صورة نمطية نسوية ونوصلها إلى أقصى أبعادها ونتائجها.

طُرق باب الحمّام، سُمع صوت خوانا دي أركو من الجانب الآخر.

ـ يمكنك الخروج، لقد انصرف الفضوليون.

(مواد تاريخية)

إصلاحات ديمقراطية

١. سنصلح ديمقراطيتنا بطريقة أكثر شبهًا بالنموذج الذي بُنيت على أساسه.

في المكان الأول:

أ. تقر قرعة، بالاستناد إلى التعداد العام للسكان، فيجري اختيار ١٥٠٠٠٠ ناخب ذكر و ١٥٠٠٠٠ ناخبة أنثى (المجموع ٣٠٠٠٠٠)، أي ١٠% من سكان فاغواس. هؤلاء الناخبون الثلاثمئة ألف يسمون "ناخبون مأهلون". ستتوافر للأشخاص المختارين فترة ثلاثة شهور لتقديم أسباب تبررية، في حالة عدم تمكنهم من تولي هذه المسؤولية التي سيكون إنجازها إجباريًا. ويجب أن يعرف كل واحد منهم القراءة والكتابة في موعد التصويت (يجري تعليم من لا يعرفون). يتلقى **الناخبون المؤهلون** دورات خاصة حول حقوق المواطَنة وواجباتها، وسير عمل الدولة، وكذلك ندوتان على شكل ورش سنويًّا حول مشاكل البلاد الأساسية. وصوت كل واحد من **الناخبين المؤهلين** يعادل صوتين في الانتخابات الرئاسية.

ب. عند مناقشة وإقرار قوانين من النوع (أ) (وهي قوانين لها تأثير مباشرة على حياة السكان) في الجمعية الوطنية، يؤخذ تصويت الناخبين المؤهلين بطريقة إلكترونية، وتأخذ الجمعية الوطنية النتيجة في الاعتبار، ولكن يمكنها عدم الامتثال له بأصوات الأغلبية.

ج. من أجل التصويت، يكون على الناخبين المؤهلين أو الناخبين العاديين الذين تزيد أعمارهم عن خمسة وعشرين عامًا أن يقدموا وثائق دفعهم الضرائب أو استثنائهم منها.

د. يمكن لكافة المواطنين الذين أكملوا الثامنة عشرة من العمر أن يشاركوا في التصويت.

المؤامرة

بعد وصول النساء إلى السلطة، أمضى إيميليانو مونتيرو شهورًا دون قدرة على النوم بصورة متواصلة طوال الليل. إنه رئيس الحزب الذي كان سيكسب الانتخابات، دون شك، لو لم يظهر (ح.ي.إ.) في المشهد، ولو لم تتسبب ثورة بركان ميتري في تقليص فحولة محازبيه. عليه أن يُقرّ، بينه وبين نفسه على الأقل، بأنه قد تصرف بعنجهية إقصائية حين استبعد دور ثورة البركان، وقلق فريق حملته الانتخابية من أن فرصته في استطلاعات الرأي آخذة بالاضمحلال؛ لأنه قد حسب، على حدّ قوله، كل شيء كما في لعبة مُحكمة. ولن توقفه أية وساوس، لقد فعل كل ما هو ضروري - وهو يعرف جيدًا ما يعنيه هذا - من أجل ضمان الفوز. والحقيقة أنه لم يتصور قطّ أنه يمكن لحزب يحمل اسمًا مثل اسم حزب اليسار الإيروتيكي أن يملك أدنى احتمال بالفوز عليه. حتى زوجته نفسها، وهي مُنجمة وتقرأ الورق، قد طمأنته مؤكدة له أن خفايا أوراق التاروت تشير إلى أنه هو من سيتولى السلطة. وفور تبيُّن خطئها، ودون أن يطلب منها ذلك: لم تتوقف عن البكاء في ليلة الهزيمة، وخرجت في الساعة الثالثة فجرًا إلى الفناء، غاضبة، لتضرم النار بكل وسائل التنجيم، ومجامر البخور، والتمائم وأدوات السحر التي وصلتها من مناصرين من كافة أرجاء البلاد، ممن يعرفون ضعفها تجاه السحر؛ وقد أرسلوها إليها على امتداد الحملة الانتخابية كشهادة على تأييدهم. كانت المسكينة تشعر بالأسى، ولكن لحسن حظها، لم تكن تتراجع خائفة؛ فهي تعرف جيدًا اختلاطات العقل النسوي، وكانت مصممة على العثور على نقاط ضعف الإيروتيكيات، وقطع أنفاسهن ووضع حدّ لتلك المهزلة.

في تلك الأيام استدعى أصدقاءَه المعهودين، ممن هم على اتفاق دائم معه ويتعاملون مع كلماته بتوقير. قال لهم إنه عليهم أن يعيدوا رصَّ صفوفهم وأن يفكروا؛ فهذه الحكومة لن تكمل فترتها الدستورية دون أن يثبتوا، هم، ميولهم الحربية. ومن سوء حظه أن تدني مستويات التستوستيرون لا يمكن أن تُحلّ في مناقشات نزقة. فالعلاج يعتمد عليه وسطيًّا، مع إضافات لا بد له من أن يطلبها عبر الإنترنت، ولكنه ممنوع من التصرف، كما أنه دخل في سبات لأيام مكرورة راحت تمضي عليه مثل أوراق مستبعدة وبيضاء. تحسنت الأحوال مع مرور الوقت، وشيئًا فشيئًا راح حس اللامبالاة يتبدد، وتجددت المناقشات، اكتسبت زوجته وزنًا، واستعاد وجهها تركيبته.

كان من عادة إيميليانو الخروج في الأماسي للقيام بجولة في المدينة، وعلى هدير المحرك الرتيب يتمكن أخيرًا من التوصل إلى النوم، وكان سائقه مارفين يعرف أن رئيسه ينام في السيارة، ولكنه يواصل المسار نفسه كل يوم. يمر بنافورة مركز المدينة، وينزل عبر جادة طويلة تنتصب في مستديراتها تماثيل سخيفة أقامها عُمْدات مختلفون: منحوتة لعذراء كونسيبسيون الطاهرة، مسيح على طريقة مسيح ري ودي جانييرو، حورية بحر. وكانت التماثيل الدينية حصيلة عمل عمدة مهووس بالجحيم، وتمثال حورية البحر إرث عمدة آخر يميل أكثر إلى الأساطير. وفي طريق العودة، يمضي عبر الجادة التي تتلوى حول لطخة تيلابا الزمردية، وهذه بحيرة غاطسة في فوهة بركانية خلفها قبل آلاف السنين انفجار بركاني عنيف.

ـ طوال حياتها كلها كانت زوجتي تحاول إنجاز الأمور على أحسن وجه، أتعرف ذلك يا مارفين؟

لم يكن السائق يعلم أن رئيسه مستيقظ.

- أجل يا سيدي، أعرف ذلك طبعًا.

ولأن مارفين نظر إلى المرآة العاكسة، لم ينتبه إلى الدراجة النارية التي قطعت عليهما الطريق، صرير مكابح حاد سبق التصادم، طار سائق الدراجة النارية في الفضاء وارتطم بزجاج السيارة الأمامي.

مرعوبان، ولكن سَلِيمَان، خرج السائق والراكب الذي معه من السيارة، تفحصا نفسيهما، جالا حول السيارة مشوشين. كان الناس قد بدؤوا بالتجمع حول الحادث، وكان سائق الدراجة النارية مطروحًا على الطريق، يحيط به فضوليون. كان يمسك الخوذة بيديه، وتبدو ملامح ألم على وجهه.

- كيف حالك يا رجل؟ - اقترب إيميليانو منحنيًا قليلًا جدًّا.

أما مارفين فجثا على ركبتيه بجانبه. بدأ الرجل ينزف من أنفه.

كان يحرك رأسه من جانب إلى آخر.

- أيها الرئيس، أرى أنه من الأفضل أن نأخذه إلى المستشفى.

- هيًا، احمله إلى المقعد الأمامي.

وبمساعدة الفضوليين، ساعد مارفين الجريح على النهوض، نزع عنه الخوذة. لحسن الحظ أنه لم يُصب بجروح في رأسه، فكر السائق، وإن كان يشكو من ألم في الكتف ودوار.

مضوا في السيارة، بالزجاج الأمامي المكسور، حتى مدخل الطوارئ في أقرب مستشفى.

المصاب في الحادث يدعى ديونيسيو.

بعد شهور من ذلك سيقول إيميليانو مونترو لزوجته معلقًا:

- أتلاحظين؟ إنه الرب، الرب هو من وضعه في طريقي.

ليتيسيا مونتيرو

تتنقل زوجة إيميليانو بعصبية، تعود إلى عادتها القديمة بقضم أظفارها، ليس لخشيتها من أن يشي الفاعل المادي للجريمة بأحد، إذا ما اعتُقل، فما يقلقها هو أن أحدًا لم يعلن، بصورة رسمية، عن وفاة بيبيانا.

- أؤكد لكِ أنه لا علاقة لي بالأمر، أكرر لكِ بأنني لم أكن أنا، ولكن ليس مهمًّا من الذي أطلق النار، فمن المؤكد أنها قد ماتت، لم يُعلن ذلك كي يكسبنَ وقتًا أيتها المرأة قليلة الإيمان! واجهها زوجها عند خروجه مع السائق للقيام بجولة في الشوارع مثلما هي عادته.

إنه يخرج صاحيًا تمامًا هذه المرة، فكرتْ، يريد أن يرى بعينيه الصمت المشؤوم الذي يخيم على المدينة كسحابة ثقيلة وخانقة - حسب تعليقات أصدقاء اتصلوا بهما هاتفيًّا - فالشوارع خالية من المارة، والبارات من الزبائن، والمطاعم من الآكلين، كما لو أن قنبلة نيترونية قد أُلقيت ولم يبق سوى الأبنية، كما أخبرتها ريتا - وقد بدا لها أنها تبكي في الهاتف -، مع أنها تعرف أن صديقتها كانت تمقت - حتى صباح هذا اليوم على الأقل - حكم القرارات والمراسيم الذي أقدمت من خلاله **الإيروتيكيات**، بتشجيع من رئيستهن، على قلب العادات رأسًا على عقب خلال شهور قليلة، وحوّلن الدولة إلى أداة تنفيذ أشد أنواع السياسات هذيانية وبعدًا عن المعقول: "مياه مجانية للأحياء التي تحافظ على نظافتها ونظافة أطفالها"، تدشين فرع تخصص بدراسات الأمومة، بكل أبهة وصخب، (للرجال والنساء) في الجامعة وفي المدارس الثانوية، محو الأمية الإجباري للنساء الأميات في الريف والمدينة، وورش

"احترام وسلطة" للأزواج ضحايا العنف المنزلي، الوزيرات "الزائرات": نساء من الحركات النسوية جئن من كافة أرجاء العالم لتولي محافظ وزارية وليضعن موضع التنفيذ أحلامهن التي لم يسمح أحد لهنّ بتحقيقها في بلدانهن. والزهور، رباه! يا لذلك الاختراع الذي توصلت إليه بيبيانا سانسون لبيع الزهور، بتخصيب مساحات شاسعة بالبراز من أجل تحويلها في ما بعد إلى مزارع زهور هائلةٍ ومنافسةٍ للممونين بالزهور في كافة أنحاء العالم. خمس طائرات شحن استوردت، طائرات مبردة من أجل التمكن من تغطية الطلبيات بوفرة، وعدم التخلف عن تلبية أية طلبية، لكن أسوأ ما في **الإيروتيكيات** هو غياب الأخلاق عندهن. فالقانون الذي يبيح "الإجهاض الاضطراري"، وواقع أنهن توصلن إلى ممالأة نساء حركة "من أجل الحياة"، جعل كأس الجور يطفح بالنسبة إليها.

إنه الجنون، جنون جماعي، وأدهى الشرور أن المعارضة، الخائفة من الورقة الرابحة التي أظهرتها النسويات في الحملة الانتخابية، أرادت التظاهر بأنها متيقظة، فوضعت نساءها البارزات على رأس قوائم مرشحيها البرلمانيين، وهكذا صارت الجمعية بأسرها مؤلفة من نساء. لقد نبهت هي نفسها زوجَها إلى الأمر: سيتمخض عن ذلك انتحار سياسي، وقد حدث ما تنبأت به: تمكنت بيبيانا من تحويل معظم النائبات، حولتهن إلى موالاة لها ولـ"مهمتها التاريخية" وتمكنت من جعل البرلمانيات يؤيدنها ويمنحنها صوت الثقة الذي طلبته من البلاد بأسرها يوم ألقت الخطاب المحزن الشهير، وحاولت أن تبرر فيه استبعاد دولة الرجال، ثم تعديل الدستور في ما بعد.

وبينما زوجها في سيارته، ينظر من خلال الزجاج المدخن، ويشعر في هذه الساعة بأنه الساحر الأعظم ومحطم "إمبراطورية الزنبق"

المشهورة، وهي التسمية التي تطلقها بيبيانا على حكومتها، يُغضبها أن زوجها بها ولا يخبرها بالحقيقة، إنه لا يتذكر - فهكذا هم الرجال - أنها هي من زرعت، طوال شهور، في وعيه حتمية اتخاذ إجراءات متشددة، فلا حاجة به لأن يأتي بحكايات لا نفع فيها، لقد تصرف مثلما كانت تتوقع بالضبط، ليس عبثًا أنهما متزوجان منذ ستة وعشرين عامًا. زوجها شديد التكتم وخبير جدًّا بعدم إطلاع أحد على حقيقة الأمور، سيتنبأ الناس حتى نهاية الأزمنة، ستتكاثر الأدلة الواضحة لاتهامه، ولكن لن يكون بإمكان أحد أن يثبت عليه أي شيء. لا يمكن لإيميليانو أن يكون سياسيًا عظيمًا، لكنه متآمر عظيم في الواقع، أما في ما يتعلق بها، فإن إنجازها العظيم هو أن زوجها لا يدرك ما هي قادرة عليه أيضًا.

الخبر

استيقظ خوسيه ديلا آريتمِتيكا في فجر ليلة قلقةٍ وأحلام معقدة، دخل الحلم وخرج منه مرات عديدة إلى أن أخرجته صرخات ميرثيديس من إغفاءته.

- خوسيه، تعال... الرئيسة على قيد الحياة، إنهم يعلنون ذلك في التلفزيون.

قفز من الفراش بسرواله الداخلي، وفي التلفزيون كانت إيفيخنيا بورتا، وزيرة الإعلام، تقف إلى جانب الطبيب الذي يقرأ تقريرًا عن حالة الرئيسة.

"الرئيسة بيبيانا سانسون مصابة بجرحين من رصاصتي سلاح ناري، الطلقات التي أُطلقت من مسافة متوسطة، أثرت على الجمجمة والبطن، فور وصولها إلى مستشفى الصحة المتكاملة، نُقلت على الفور إلى غرفة العمليات، تم تحديد جرح في التجويف البطني على شكل ثقب، بفعل سلاح ناري، تسبب في تهتك في الطحال، مما تطلب أن تُجرى لها عملية "إسبلنيكتوميا"، أي عملية استئصال عاجلة لهذا الجهاز، أما الرصاصة الثانية فتسببت في تمزق جلد الرأس، واخترقت عظم الجمجمة الجبهي، واستقرت في منطقة القحف، وقد أدى اصطدام الطلقة إلى تشكل خثرة جرت إزالتها بنجاح، ومن أجل تجنب انخفاض ضغط الكتلة الدماغية، أجريت لها عملية ثقب القحف. المريضة موجودة في وحدة العناية المكثفة في حالة غيبوبة، مع تنفس اصطناعي، ودعم كامل. وحيث أن المقذوف لم يؤثر مباشرة على الكتلة الدماغية، فالإمكانية

متوافرة بأن تتمكن الرئيسة من استعادة قدراتها، ومع ذلك، فإن حالتها في هذه اللحظات حرجة ولا يمكن التنبؤ بها".

استمع خوسيه صامتًا، وعندما أنهى الطبيب كلامه، تبادل هو وميرثيديس النظرات، ورسمت هي إشارة الصليب. أيها الرب المقدس، المقدس القوي ـ قالت ـ فلتكن مباركًا بعدم موتها.

ـ يبدو لي أنها ميتة في الحياة ـ قال خوسيه ديلا آريتمِتيكا ـ لم يَرُقْ لي هذا الكلام عن الغيبوبة. فالمرء يصحو دومًا من غيبوبة السُّكْر ـ ثم أضاف متنهدًا:ـ فلننتظر ولنر ما هو الفرق.

ـ فلِنبتهج لأنها لا تزال حية يا خوسيه، الأمل يظل موجودًا ما دام هنالك حياة.

ـ هذا صحيح، وهو يسعدني، أقول لك إنني أنا نفسي لم أكن أعرف مقدار المحبة التي استحوذت عليَّ تجاه هذه الرئيسة، صحيح أن أحدنا لا يعرف قيمة ما لديه إلا حين يفقده.

ـ رتبي لي الأشربة كي أذهب، سوف أخرج لأرى إن كنت سأكسب اليوم.

ـ أنت خارج للتشمم كفوضولي وحسب ـ قالت ميرثيديس ـ، أو تظنني لا أعرفك.

ـ إنه عملي ـ قال مبتسمًا ـ لقد رفَّعوني رتبة.

خرج إلى حيث يحتفظ بقوالب الثلج الكبيرة، سكب عليها ماء كي يفصلها بعضها عن بعض، وبوساطة ملقط على شكل مقص معقوف، رفع أحد المكعبات وأنزله في العربة بحذر كيلا ينكسر. إنه فضوليٌّ بالطبع، فكَّر، وابتسم لتعليق ميرثيديس، أن يكون فضوليًّا يعني أنه حيٌّ، لن يكون مشهورًا، ولكن يُفتتن بمراقبة الناس، ألا تروق لك الروايات؟ هذا ما تقوله له ميرثيديس. إنني أرى روايات تلفزيونية حية في الشارع، فمع مرور أحدنا بكثرة من أحد الأمكنة ورؤيته لحياة الناس، يلتقط

إشارات ذهابهم وإيابهم ويرى كيف تنتهي الأمور معهم. هو ليس متطفلًا، ولكنه يسأل، وحين يعرف المرء كيف يسأل، فإنه يتحرى ويتوصل إلى ما هو أكثر مما يريد معرفته.

كان الضباح باردًا، ليس الوقت مناسبًا لبيع الثلج المبشور، لكنه قدر أنه عندما يقترب انتصاف النهار، وهي ساعة اشتداد الحر، سيكون قد وصل إلى مقربة من المستشفى؛ حيث توجد، كما قال التلفاز، حشود كبيرة مجتمعة. حيا الرتل المزدوج للتلاميذ الفتيان والفتيات الذين يتوجهون نظيفين ومستحمين لركوب الحافلة، أعمارهم ما بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة؛ لأن الأطفال الصغار يبقون، حسب تعليمات حكومة **الإيروتيكيات**، في مدارس الأحياء التي يقيمون فيها حتى سن الثانية عشرة، يتعلمون القراءة والكتابة، ويقضون بقية الوقت في القيام بما يروق لهم القيام به، أية مادة يشاؤون. ولنر كيف ستكون النتيجة، لقد سمع هو نفسه تلك المرأة الإسبانية، وهي وزيرة ضيفة للتربية، تلقي خطابًا حول السبب في أن هذا المنهج في التربية الذاتية هو الأحدث. فالأطفال أنفسهم يقررون ما يريدون تعلمه، ولا يشعرون بأنهم مدفوعون دفعًا لعمل هذا الشيء أو سواه؛ بل يمكن للصبية أن يعودوا إلى بيوتهم لمساعدة الأب أو الأم. هذا ما كانت تقوله الوزيرة. إنه يتذكر المدارس التي بلا مقاعد في زمانه، والحر، والملل. وقد كان في العاشرة من عمره حين أخذته أمه ليعمل معها، فكان عليه أن يكتفي حينئذ بما تعلمه من قراءة وكتابة، وما سوى ذلك علمته إياه الحياة، لكن بناته ذهبن إلى المدرسة، وهو سعيد لأنه أرسلهن إليها على الرغم من تمرد أكثر من واحدة منهن. لم تكن ابنته سوسنة تلميذة جيدة قطّ، ولكنها كانت رياضية، ولهذا صارت شرطية. كل صبي هو عالم قائم بذاته، وربما لهذا السبب كانت الوزيرة على حق، لقد كان يفكر على الدوام بأن الوقت الذي

يقضونه في مدرسة الأطفال طويل جدًّا، حين تكون هناك ضرورات كثيرة ملحة في بيته. يذهب الآن إلى المدرسة بانتظام من هم بين الثانية عشرة والثامنة عشرة من العمر، إرسالهم إليها إجباري، وفضلًا عن دراسة مواد مثل النحو والعلوم، يتلقون هناك دورسًا في "الأمومة"، سواء أكانوا ذكورًا أو إناثًا. الذكور يخرجون ضليعين في تبديل الحفاضات، وجعل الرُّضع يتجشأون، ورعاية الصغار والعناية بهم، ويتعلمون أنه عليهم عدم ضرب أبنائهم وأشياء كثيرة من تلك التي يقول بها السيكولوجيون، لم تكن الفكرة سيئة.

لقد أعجبه نظام الرئيسة، إنه نظام مختلف على الأقل؛ فهناك في الحي، قدمت لهم الحكومة المساعدة، ولكنها جعلتهم يعملون أيضًا. لقد قاموا بأنفسهم، رجالًا ونساء، شيبًا وشبانًا، ببناء مدرسة، ودور حضانة، وقاعة مشتركة للطعام، ورصفوا الشوارع بأحجار. ومن كانوا موظفين عمومين في السابق، أفادتهم هذه الأعمال في تقليص كروشهم، إضافة إلى شعورهم بأنهم جزء من الآخرين، من هم متعلمون أكثر يعطون دروسًا ويعملون على محو الأمية. ولديهم في الحي، فوق ذلك، شهور لا يدفعون فيها فواتير الماء؛ لأن أعمال النظافة التي بذلوا جهدًا فيها قد أعطت نتيجة وكسبوا شهرًا بعد آخر المسابقات التي تتمثل مكافأتها في تلقي خدمة الماء مجانًا. الصبية يمضون الآن حاملين عصيّ في طرفها مسمار يلتقطون به الأوراق عن الأرض، فالأمهات يرسلنهم لعمل ذلك فور بلوغهم سن الذهاب إلى المدرسة. لا ينتبه أحدنا ـ فكر خوسيه وهو يرن جرسه ـ إلى الفرق الذي يُحدثه مكان نظيف إلا عندما يتوافر لنا. لقد أصرت الرئيسة كثيرًا على مسألة نظافة الشوارع؛ لأن انتشار الوساخة في الخارج، على حدّ قولها، تجعل من السهل العيش مع الوساخة في

الداخل، وساخة الروح التي أفقدتهم لسنوات طويلة وجهة النزاهة والاستقامة وعدم امتلاك وازع يحول دون استغلال الآخر القريب. لم يخطر له قطّ من قبل أن أحد هذين الأمرين مرتبط بالآخر، ولكنه لم يجد بُدًّا من القبول بأنه صحيح: رؤية الشوارع نظيفة والعيش في حي بلا قمامة، يبدل من عقلية المرء؛ يمنحه الرغبة في أن يتفوق، وأن يعيش حياة أجمل، وأن يصلح الأرصفة، ويعني بالحدائق الصغيرة. وسرعان ما تبدد الاعتقاد بأنه لم يعد لدى الرجال ما يفعلونه إن هم تركوا العمل في الدولة؛ بل إن الأمر بلغ بصديقه هيلاريو، وكان شرطيًّا في السابق، أن اعترف بأنه لولا هذا الإجراء الذي اتخذته الرئيسة، لما عرف طعم السعادة التي تمنحه إياها رؤية أبنائه يكبرون عن قرب، ونبهه: لا تخبر أحدًا بهذا، إنها الحقيقة الخالصة. وكان ذلك يحدث لآخرين، فكان خوسيه يتساءل عما إذا كان ذلك يحدث لآخرين كثيرين جدًّا، لكنهم لا يجرؤون على التصريح به. فالحقيقة أنه من غير المريح تقبّل أن ثورة النساء تلك قد أعطت ثمارها. أما هو، فلا يرى في حُكم النساء نهاية العالم، فللنساء ظرافتهن في عمل الأشياء. لقد وجد الذكور جميعهم صعوبة في رؤية الأمر في البداية، ولكن ذلك الإحساس السعيد راح يترسخ شيئًا فشيئًا، وربما ستتمكن **الإيروتيكيات** من الكسب مجددًا إذا لم تتحسن حال الرئيسة ويصبح من الواجب اختيار حكومة جديدة.

إنه يتذكر الاضطرابات التي وقعت عندما أرسلن الرجال إلى بيوتهم. بدأ طرد الذكور من وظائفهم بعد حوالي شهر أو شهرين من تشكيل الحكومة الجديدة، وقد فوجئ الجميع بذلك. وعلى الرغم من أن الأمر لم يُطبق إلا على موظفي الدولة، مع تلقي كل موظف منهم، كتعويض عن خدماته المقدمة للأمة، أجرًا يعادل ستة شهور عمل، كانت صدمة التأثر هائلة. ففي الوزارات الأشد ذكورية، كالدفاع والداخلية، حاول بعض

العرفاء والرقباء التمرد بالسلاح، لكن محاولة التمرد لم تلق تجاوبًا؛ فقد كبحت الجنرالات الفوضى وأمسكن بزمام الموقف، وانتزعن منهم الأسلحة وأجبرنهم على تنفيذ أوامر الرئيسة. خرج الجنود من ثكناتهم منزوعي الأسلحة، بملابس مدنية، وبلا أي سلطة على إصدار الأوامر أكثر من سلطة أي مواطن آخر. لقد انقضت شهور قبل أن يعاد تنظيم قوات الأمن العام بإعداد النساء اللاتي دخلن سلك الشرطة، ومنهن ابنته سوسنة. حسنًا، ولكن الازدحامات المرورية، والسرقات التي انفلتت من عقالها واحتجاجات العسكريين راحت تتراجع. جرى تدريب النساء الشرطيات، بالتعاون مع الحكومة الكورية، كمقاتلات كاراتيه، فضلًا عن تزويدهن بأجهزة غريبة تُكهرب، تسمى "التيزر"، هي تبرعات من السويد وفنلنديا وألمانيا والولايات المتحدة. وأسهم الصينيون بدورهم، كما يقال، بتقديم بخاخات وغازات تشل الحركة، وسهام مهدئة للنشاط. وياللرعب الذي أصاب المشاغبين ممن ظنوا أن كونهم أضخم منهن سوف يُخضعهن؛ فإيفا سالفاتييرا التي لديها من العبقرية ما يعوض عما ينقصها من ضخامة، تمكنت بتلك المعدات والأجهزة من تأسيس قوة أمن عام فعالة، (وهي قوة لم تخيب ظنها أبدًا إلا في يوم محاولة الاغتيال، ولكن، مثلما يقول المثل الشائع: يمكن لموزة أن تفلت من يد أفضل قرد).

بينما هو يقف على أرصفة مختلف الهيئات الوزارية، مع عربة عصائره وثلجه المبشور، رأى خوسيه ديلا آرتيمتيكا الرجال يبكون وهم يودعون مكاتبهم وسكرتيراتهم وسيارات الدولة التي اعتادوا على اعتبارها سياراتهم، واستخدامها في نزهاتهم أيام الآحاد. وبينما الرجال يخرجون من بوابة، كانت النساء المتقدمات للحلول محلهم، يدخلن من بوابة أخرى في كل واحد من المباني العامة. لقد كنَّ كثيرات، مثلما عُرف، من كنَّ يحملن شهادات جامعية، ولم يعملن مع ذلك إلا سنة واحدة

أو سنتين قبل أن يتزوجن، وما إن ينجبن؛ بل وقبل أن ينجبن، يعزلهن أزواجهن في البيوت؛ إذ إن عقليتهم ترى في عمل النساء أمرًا شائنًا. أما هو فلم يكن كذلك، فزوجته ميرثيديس هي شريكته في نظره، ولولا أنها تصنع الأشربة والعصائر لمزجها بالثلج المبشور لما كان لديه ما يبيعه سوى الثلج. ولكن طبعًا، لم تكن الحال هي نفسها عندما كانا يعملان معًا في البيت، فقد تبدل الحال، ووجد نفسه فجأة بلا امرأة تغسل الملابس، وتطبخ وتكوي، وكل هذه الأشياء التي أشارت الرئيسة إلى أنه يجب على الذكور أن يقوموا بها، وقد أطلقت عليها تسمية "مسؤوليات أسريّة". لم يُخدع أحد، فالرجال لم يكونوا مغفلين بأي حال، وإن كانوا متجهمين بسبب نقص التستوستيرون، ولسوف يتولون هم، لستة شهور فقط، مسؤولية الأعمال التي كن هنّ من يقمن بها، حسب ما هو حددته الرئيسة في قرار غير قابل للاستئناف.

لقد حقق هو نفسه صفقة جدية في تلك الأيام؛ لأن المواطنين والمواطنات من ذوي مختلف المهن، ممن يعملون في محيط كل وزارة أو مكتب عام، كانوا يتجمعون على الأرصفة ليشهدوا ذلك التبديل في المواقع وليتناولوا مشروباته المثلجة. كان يسمعهم يتكلمون، لم يكونوا يتفقون إلا في الذهول حيال ذلك التبديلَ الغريب، إنها تجربة جديدة تمامًا في تاريخ البلد، وقد أدت جرأتها بالذات إلى إصابة قدرتهم على الفهم بالشلل. لقد قالت الرئيسة: أريد أن تمنحوني نعمة الشك على الأقل، فالبلاد قد وقعت ضحية كارثة سلسلة من الحكومات الفاسدة وغير الكُفْوة، هذا ما قالته عند مثولها أمام الجمعية الوطنية؛ حيث أعلنت عن الإجراءات الاستثنائية لحكومتها الجديدة، وللسبب نفسه، ومع المزية لتي تمنحها إياها أصوات الأغلبية، تجد نفسها مضطرة إلى أن تمسك دفة القيادة بقوة وأن تبدأ العمل فورًا لتصويب مسار الأمة التي كانت تبحر كمركب يتحكم به التيار. لقد كانت الرئيسة تصويرية جدًّا وهي تشرح

مستعينة باستعارات رياضية، لماذا تريد أن يستريح الرجال لفترة من الزمن. قالت إن ذلك مثلما يحدث في لعبة البيسبول حيث يكون هناك لاعبون يظلون في الـdog out، النساء يحتجن إلى بقاء الرجال في تلك الحال مؤقتًا؛ لأن على النساء أن يقمن وحدهن بهذه المباراة، ويتولين فيها رمي الكرة، وضربها، والتقاطها، والركض.

غزت البلاد في تلك الأيام حشود غير معهودة من الصحفيين الأجانب، كانوا يتراكضون بوميض فلاشاتهم ومعداتهم من مكان إلى آخر، يصورون العاملين في الخدمة العامة وهم يخرجون من مكاتبهم محملين بصور أبنائهم وزوجاتهم، وبِكراتِ بيسبول تحمل توقيع لاعبيهم المفضلين، والتقاويم، والقبعات، وفناجين القهوة وكل المقتنيات الشخصية الموجودة في مكاتبهم التي غادروها للتو. لم يكن أيٌّ من الصحفيين شاهدًا على التغيير الحاصل أفضل من خوسيه ديلا أريتمتيكا، فبينما هو يرن جرسه أو يبرش الثلج، سمع تعليقات تتراوح بين "ماذا يمكننا أن نفعل يا أخي، ربما يكنَّ على حق وتكون هذه الإجازة مناسبة لنا" وحتى تعليقات من يولون الحدث أهمية ويقولون بغضب: "أريد رؤيتهن وحيدات، أقدّر أنهن لن يستطعن الصمود أسبوعًا واحدًا". أو من يصرخون: "هذا ما كان ينقص هذه البلاد، أن نتحول إلى مجانين، هذا هو فقط ما كان ينقصنا، التحول من الفساد إلى الجنون".

المشهد جعل خوسيه ديلا اريمتيكا يتذكر صورًا قديمة لحروب وكوارث، ولكن كان واضحًا جدًّا لديه أن أولئك المطرودين الجدد من أعمالهم سيذهبون إلى بيوتهم وتكون لهم رواتبهم والوعود بأعمال أخرى خلال شهور قليلة، ليس لديهم الكثير مما يشكون منه، وما الذي يريدونه في نهاية المطاف أكثر من أن يظلوا طوال اليوم في بيوتهم، مع أبنائهم، مرتدين بنطلونات الشورت ومنتعلين الأخفاف البلاستيكية.

النظارة الشمسية

تعرفت بيبيانا عليها فوق الرف، فتشكلت عقدة في حنجرتها، إنها بسيطة ورخيصة، لكنَّها خَدَمتها لزمن طويل وما زالت تتذكر البحث اليائس، وغير المجدي في نهاية المطاف، حين أدركت أنها قد فقدتها. قلبت السماء والأرض، هذا يعني البيت والسيارة والمكتب، وقامت بجولة يائسة على كافة الأمكنة التي ذهبت إليها في الأيام السابقة: "ألم تجدوا نظارة شمسية؟" ودائمًا كان يأتي الرد على سؤالها بنعم، وهذا هو الأسوأ، يبدو أن النظارات الشمسية هي كلية الحضور دومًا بين الأشياء المفقودة. يأتي الموظفوف أو النادلات بنظارتين أو ثلاث نظارات، ولكنها ليست نظارتها.

مذهل كم من الأمور يمكن استحضارها عند النظر إلى بعض الأشياء، يحدث مثل ما يحدث لها عندما تشم عطورًا أو رائحة بسكويت الزنجبيل الذي ما إن تشم رائحته حتى تنقلها إلى طفولتها، إلى بيت ماريسا، صديقة أمها حين كانت تبقى معها كلما ذهبت كونسويلو في رحلة، كان البيت كبيرًا، قاتمًا، ويمتلئ في المساء بضباب. لقد كانت ماريسا طيبة، ولكنها شديدة الترتيب والنظافة، حتى أنها كانت تشعر على الدوام، حين تكون معها، بأنها توسخ المكان، وأنه عليها أن تمشي على رؤوس أصابعها كيلا تسبب إزعاجًا. ولهذا فإن أكثر ما كان يسعدها هو الخروج مع العاملة المنزلية إلى الدكان، وهو متجر بدائي؛ حيث أقراص بسكويت الزنجبيل المدورة، القاتمة، الإسفنجية، تُحفظ في وعاء زجاجي كبير ذي غطاء، تشتري قرصين أو ثلاثة أقراص، وتأكلها خفية في الحمام كيلا تُخلِّف فتاتًا في الغرفة.

النظارة القاتمة تشبه أقراص بسكويت الزنجبيل، والزمن الذي تقربها منه النظارة هو شهورها الأخيرة مع سيباستيان؛ فقد اشترتها وهي معه، من صيدلية بشارع ليكسنغتون، بالقرب من الفندق الذي أقاما فيه عندما أخذها معه لتتعرف على نيويورك. وقد كانت النظارة بالنسبة إليها، ولزمن طويل، نوعًا من حرز يوفر لها الحماية ضد الدموع، وضد الشمس العمودية والحارقة. مدتْ يدها لتلمسهما، وظلت أصابعها في الفراغ. أتتجرأ على العودة إلى رؤية سيباستيان؟ لقد مات منذ عشر سنوات، في ثالث يوم من شهر شباط/ فبراير، بحادث سير، اصطدم بشاحنة مخلعة وبلا أنوار متوقفة على الطريق العام، كان الموت فوريًّا، لم يسمحوا لها برؤية الجثة. قبّلتِ يديه فقط قبل حرق جثمانه، مثلما كان قد أوصى، واصلت النظر إلى النظارة، تحركت يدها بسرعة، لم تكن تشعر بالخوف.

سيباستيان يداعب رقبتها بمحبة، يضع النظارة على عينيها، ينظر إليها كي يقول لها كم هي مناسبة لها هذه النظارة. إحساسها بأصابعه أصابها بقشعريرة حسية جابتها من قدميها حتى رأسها، أدارت وجهها لتراه: رجل طويل، نحيل، شديد البياض، عينان بنيتان واسعتان، والفم طويل ودقيق، يشبه **الأمير الصغير**. لقد كانت تقول ذلك على الدوام، أمير صغير كبر على الأرض، يعتني بها ويحميها كيلا تأكلها الأغنام، يغطيها بقباب بلورية مثلما يحمي أمير الحكاية وردته. لقد تجولت سعيدة في نيويورك، في شوارع أحياء صينية وإيطالية، واشترت ترهات لسيليستي، وملابس لترتديها. كان يروق له أن تُبرز نهديها، وكان يسميهما "بركانيَّ الصغيرين"، كان يعرف أنهما يزعجانها ويصر مع ذلك على إبرازهما والاستمتاع بهما. انظري كيف يحسدونني، يقول ضاحكًا حين يظل أحد العابرين ينظر إليهما، لقد دفعها كثيرًا إلى إظهار

مفاتنها دون تحفظ، حتى إن بيبيانا وجدت صعوبة بعد ذلك في كبح نفسها عن استخدام الملابس السكسي وعن التمادي في كشف أجزاء من جسدها، لكن سيباستيان كان محرضها الأول؛ فقد كان يستمتع بتكورتها وينحني أمام مفاتنها كما لو أنها نتاج هندسة سابقة للهندسات كافة، كان يصف انحناءات جسدها بالتفصيل لأنه يحب كل طية في فرجها، وكل انحناءة في إليتيها، وكل التواء في أذنيها. كانت قد أقامت علاقات مع رجال آخرين قبل أن تعرفه، ولكنه هو من اكتشف تشابك ممرات جسدها، وفوقها كان يتحول إلى عصفور كوليبري، إلى كلب أليف حساس، إلى دُلفين. وكانت يداه بأصابعهما الطويلة، وفمه، تجوب جسدها في كل مرة كما لو أنها تريد حفظها عن ظهر قلب، تسجيلها في حُليمات لسانه وفي بصمات أصابعه.

كانت تشك في أن تكون هناك في العالم قدرة على العذوبة تضاهي قدرته، ومعرفة ـ بحدس شبه أنثوي ـ أن جسد المرأة لا يتجاوب ولا ينفتح أمام الفظاظة والقسوة، وأنه كلما كانت المداعبة رقيقة ستكون بعد ذلك أعظم، وبلا حدود، وله الفرس التي يمتطيها. كم تفتقده، فكرتْ، بينما هي ترى نفسها في الذاكرة، تمشي إلى جانبه في ذلك اليوم الربيعي بنيويورك.

في الشارع المزدحم بالمارة، كان سيباستيان يقودها عبر التدفق البشري بالضغط على ذراعها للاتجاه نحو هذا الجانب أو ذاك، كما لو أنه يدير دفة سفينة. وكانت تسلم له قيادها بابتهاج، متقبلة تحدي شق الطريق وسط الحشود دون الانفصال عنه. عند إشارات المرور يتزاحم الناس من أجل العبور: آسيويون، بيض، سمر، سود، هنود، أناس من كل الأجناس. لقد كان سرًّا مبهمًا بالنسبة إليها معرفة كيف يعيشون هناك،

مختلطين، كانت تتساءل عما إذا كانوا سعداء وهم بعيدون عن أصولهم، عن ثقافاتهم، وجميعهم يتزاحمون مشغولين مثلما كانوا يظهرون لها. دخلا لتناول قهوة في مقهى عند إحدى النواصي عليه لوحة إعلان بالإيطالية. الناس يتناولون القهوة وقوفًا، حول مناضد عالية، مستديرة، يتناولونها بسرعة ويخرجون. تُسمع قرقعة الفناجين المتواصلة، وندل البار يسجلون الطلبات: قهوة مع الحليب، سادة، مع حليب منزوع الدسم، فينتي، نصف قهوة بلا كافيين، موكا. لقد كان سيباستيان متعصبًا للقهوة، يتكلم الإنكليزية بلا لكنة؛ لأن أباه بريطاني ولأن عائلته كانت تعيش في لوس أنجلوس، وقد فوجئت بيبيانا حين رأته يتجول في نيويورك كالسمكة في الماء. أنشتري بعض السندويتشات ونذهب في نزهة إلى البارك؟ سألها. فقالت له نعم، بالطبع. الشوارع المزدحمة بكثرة انتهت لدفعها إلى الإحساس برهاب الأمكنة المغلقة، فكانت تريد رؤية الخضرة، وعدم سماع المزيد من أصوات السيارات، والتزمير. عبرا إلى الجادة السادسة ونزلا باتجاه السنترال بارك، دخلا إلى الحديقة متتبعين الدرب المرصوف بأحجار. إنه عالم آخر، الأشجار، الصخور، المساحات المخصصة للعب، النيويوركيون يمارسون الجري مع سماعات الموسيقى، وبالملابس الرياضية الملونة الزاهية، وآخرون يقتادون كلابهم في نزهة. وبالانتقال من رصيف إلى آخر فقط، يتوغل المرء في مدينة سناجب وطيور وأناس متحمسين لنوع آخر من الوقت، وقت رصين ومهذب، يرفض التدافع وهو أقرب إلى التسامح والتواطؤ. اقتادها سيباستيان عبر دروب تمر بمحاذاة البحيرة حتى الوصول إلى "التشيبز ميدو"، امتداد خضرة فسيح جدًّا، يُرى منه فندق بلازا. يوجد هنا مرج أخضر مثل هذا يدعى "حقول الفراولة" ـ قال سيباستيان ـ أتظنين أنه

هو المقصود في أغنية فريق البيتلز؟ فأجابته: بالتأكيد. ليس لأنها تعرف ذلك، وإنما لأن الفكرة أعجبتها. استلقيا على العشب تحت شمس تلمع بلا لسعات حَرّ، كان يومًا من تلك الأيام الخفيفة، نسيم ناعم وشبابي يجوب بين وقت وآخر العشب الذي يتوزع عليه أزواج من العشاق أو الأطفال مع كراتهم أو أقراصهم الطائرة. وضعت بيبيانا رأسها على ساق سيباستيان بعد أن أكلا سندويتشات جبنة الموزاريلا مع الفطر والطماطم العابقة برائحة الأوريغانو، وتناولا نبيذًا أبيض في أكواب بلاستيكية شفافة. كان سيباستيان يعرف كم يروق لها أن تستلقي عليه، تظل هادئة بانتظار أن يمر بأصابعه عبر شعرها. لقد كان رأس بيبيانا هو منطقتها الأكثر إيروتيكية، يكفيه أن يدس يده كلها تحت شعرها السميك والمجعد كي تتجاوب هي مع المداعبة بانفتاح يستثير فيه العذوبة، ولكن بالطبع، هناك في الحديقة، على العشب، داعبها بطريقة شبه أخوية، بتمرير أصابعه على جبينها والتوغل ببطء في دروب جمجمتها متراصة الشعر. إنه يعرفني جيدًا، فكرت وهي تشعر بحميمية يده الخبيرة تتحرك بخفة فوق أفكارها.

تنهدت بيبيانا وزفرت دفقة من الحزن، أفلتْ النظارة، فتحت عينيها، كانت تقف في العنبر، وسيباستيان لن يلمسها أبدًا وإلى الأبد.

حين كان موته لا يزال حديثًا بالنسبة إليها، كان التفكير فيه يُحدث انقباضًا بقلبها، تشعر بأن عظم القفص يصعد حتى فمها، وتراودها رغبة في التقيؤ، وتفكر، لو أنني أستطيع أن أبصق قلبي، أن يخرج مني، وتتخيل القلب كعلبة شوكولاتة تسقط في ماء المرحاض.

بكته طويلًا دون أن تجد العزاء، ذهبت لنثر رماده ترافقها سيليستي وحدها التي كانت في السادسة من عمرها صورة أنثوية مستنسخة عن

أبيها، ألقت قليلًا من الرماد في البحر، وقليلًا منه في حديقة دار الطفولة، وقليلًا في النهر الذي كانت تربطه به علاقة لا تكلف فيها. وفي كل مكان، بينما الطفلة جالسة على ركبتيها، كانتا تتحدثان عن ذكريات وطرائف، وتعيشان في الليل والنهار إلى جانب الرجل الذي سيكون جزءًا منهما إلى الأبد. لم تعد سيليستي تسأل متى سيعود بابا، تقبلته ككائن غير مرئي، كصديق سري.

لقد كانا زوجين سعيدين، فقط مع الزمن، ومع الفراق واستخدامها التام لحريتها، تمكنت بيبيانا من إدراك مقدار تنازلاتها كامرأة من أجل أن تكون تلك السعادة ممكنة.

أمضت شهرًا ونصف الشهر وهي ببيجامات النوم أو البيجامات الرياضية فقط، وشعر تملؤه العقد وأظفار مكسرة، دون أن تهتم بأي شيء باستثناء سيليستي. أمها التي كانت تعمل منسقة لحملات الناشيونال جيوغرافيك وتسافر كثيرًا (حين علمت بالخبر، لدى وصولها إلى مونتيفيديو بسفينة عائدة من إنتارتيكا، كان رماده قد نُثر مع رياح أمكنته المفضلة)، رجعت وأصابها الرعب حين رأت ابنتها غير قادرة على الخروج من الحداد. لقد كانت كونسويلو امرأة نشيطة، تفيض حيوية وسعادة، إنها تبدو شابة رغم تجاوزها الستين من العمر، ومع أن شعارها الدائم هو "عش ودع الآخرين يعيشون"، إلا أنها حين تتولى دور الأم، تتقن القيام به على أحسن وجه. لقد تولت وحدها تربية بيبيانا وتعليمها؛ لأنها لم تعد تعرف أي شيء عن زوجها مذ قالت له إنها حبلى.

ـ لا، لا يا ابنتي، لا أريدك أن تموتي، فلنقم بترتيب الأمور بتمهل، ولكن ما يجب عمله، لابد من أن يُعمل. أول ما يجب القيام به هو عملية إعادة ترتيب الخزانة، وهذه ستتركينها لي ـ كانت هذه هي نغمتها الأولى

حين اكتشفت أن كل ما يخص سيباستيان ما زال موجودًا في مكانه ـ
وماذا عن السيارة يا أماه؟ سيكون أمرًا قاتلًا احتفاظك بهذه السيارة المهشمة في الكراج، يمكنك أن تقرري عدم الخروج من هذا الوضع، قالت لها أمها، سيكون عليك عندئذ أن تغلقي البيت بأحجار وطين، وتضعي السيارة في الصالون، وترتدي ملابسه، من المهم أن تقرري ما الذي تريدينه، وأن تفعلي شيئًا، عليك أن تحسمي أمرك بأن تكوني معه هو الميت أو مع نفسك أنت التي على قيد الحياة، لا وجود لحل وسط، ونحن لسنا نساء حلول وسط.

انتقلت كونسويلو إلى بيت بيبيانا وتولت مسؤولية شؤون التأمين، ومعاملات وأوراق محو أثر من لم يعد قادرًا على الاشتراك بمجلات أو تسديد حسابات، وتولت أيضًا إقناع بيبيانا بأن تحقق حلمها في أن تكون صحفية، المهنة التي تأهلت لها ولم تتمكن من ممارستها سوى شهور قليلة قبل ميلاد سيليستي.

كانت تدرك، عقلانيًا، أن أمها محقة، ولكنها مع كل خرقة من ملابس سيباستيان أو فردة من أحذيته تتخلص منها، ولا سيما حين نقلوا السيارة إلى مستودعات الحديد الخردة (شعرت، بطريقة ملتوية ومشعوذة، أن تلك الكتل الحديدية مضمخة بصرخته الأخيرة التي ربما هو يحتفظ أو يفكر بها في وحدة موته)، أحست بأنها تجتثّ الأدلة الملموسة على وجوده وأنها، حين تفعل ذلك، تتخلى عن كونها تلك التي كانت معه، وتتخلى عن الحب ـ الملاذ ـ الناقوس الزجاجي؛ حيث كانت لسنوات عديدة آمنة ودافئة.

ولكن هكذا هو الموت بقسوته وحسمه، وهو ما يمكن قوله عن الحياة أيضًا، لقد واصلت التنفس، الاستيقاظ كل صباح، مراكمة الوقت، مراكمة أيام تفصلها عما حدث. وأخيرًا خرجت من بيتها، تمكيجت، هيأت نفسها،

ارتدت ملابسها، إنها أكثر نحافة ولكن جميلة، وعلى الرغم من الغمّ الداخلي، ذهبت إلى المقابلة من أجل العمل، قامت باختبار أمام كاميرات القناة التلفزيونية وحصلت على وظيفة تقديم أخبار الصباح.

الساعة المنبه

أي مشهد هو هذا؟ تساءلت بيبيانا، فإلى جوار النظارة الشمسية وجدت ساعة المنبه القديمة التي تعود إلى أزمنة عملها في التلفزيون. إنها مربعة، سوداء، بواجهة بيضاء وأرقام كبيرة، العقارب حمراء، تشير إلى الرابعة مساء. أيكون الوقت الصحيح؟ تناولتها لتضعها على أذنها لتتأكد من أنها تعمل، ولكنها لم تتساءل عما إذا كانت قد أمضت يومًا في ذلك العنبر؛ لأن دوامة الذكريات الحاضرة على الدوام نقلتها من جديد إلى زمن آخر: الساعة الخامسة صباحًا.

في هذا الوقت تدخل إلى مكان العمل، إنها تكره النهوض باكرًا، فقراءة الأخبار بوجه صباح الخير هو جهد لا يقارن إلا بأيام أرق أمومتها. المرأة حيوان عادات؛ وقد اعتدت، هذا ما كانت تقوله وهي تطفئ صوت المنبه الحاد غير الرحيم. ولا تكون الشمس قد أنارت الدنيا بعد حين تغادر بيتها بعد أن تطبع قبلة على جبهة سيليستي، جميلتها النائمة.

ومع تقدمها في المدينة، تشهد استيقاظ النهار، السموات التي تشرق بالضياء، موزعو الخبز يحملون سلالًا كبيرة في مقدمة دراجاتهم، الشاحنات التي توزع الحليب على البقاليات بوجود صاحباتها المستحمات للتو يعلقن بضاعتهن من البقول والخضراوات على الأبواب. إنها مدينة فقيرة، لكنها زاهية الألوان، بيوتها قديمة، كولونيالية، بسقوف قرميدية وحدائق صغيرة، إلى جانب أحياء فقيرة بيوتها مبنية من فضلات آجر وأحجار وصفيح وألواح توتياء يستعاض بها عن الجدران. ما هو أشد حزنًا مع ذلك، وما يمحو التناقض بين أحياء فقيرة وأحياء غنية هو

القمامة: أوراق، أكياس بلاستيكية، مواد تغليف وصَرٌّ من نوع تطفو فوق أقنية المجاري والأرصفة، محولة كل شيء إلى قباحة. كانت تبذل جهدًا كي لا تنظر إلى ذلك كله، ترفع بصرها كي ترى بركان ميتري العظيم شاحبًا وضاربًا إلى الزرقة في الفجر، وإلى السحب، ولكنها لا تستطيع أن تتجنب التساؤل كيف يمكن لحال هذه الأمور ـ البؤس، القمامة ـ أن توجد دون يقوم أحد بمعالجتها. عند وصولها إلى محطة التلفزيون، كانت تغمض عينيها وتحلم بإصلاح أحوال البلاد بينما موظفة المكياج تضع لها البودرة أو تزين عينيها، شفتيها، شعرها وتمحو آثار الزرقة عن جفونها. ومن قراءة الأخبار في الصباح، انتقلت إلى القراءة في نشرة الأخبار الرئيسية ليلًا، ولأنها صارت أكثر ثقة بما تفعله، بدأت التدخل في تحرير الأخبار واقتراح قصص. كانت فاغواس متضررة بشدة حيث الواقع يتحدى الخيال على الدوام، وكانت أخبار العنف فيه شائعة، تكثر فيها قصص العصابات وتجار المخدرات، إلى جانب العنف المنزلي والتعسف ضد القاصرين. كانت تتوالى بكثرة حالات الطفلات اللاتي يحبلن من أزواج أمهاتهن وهنّ في العاشرة من أعمارهن، ومثلها حالات سرقة الموظفين العامين واختلاسهم أموال الدولة، وبدلًا من طرد هؤلاء، يجري نقلهم من إدارة إلى أخرى. وكان زعيم الحزب يقول: هذا الحزب مثل الكنيسة، الكهنة الذين يستغلون الأطفال جنسيًا لا يُطردون؛ بل ينقلونهم ليمارسوا إساءاتهم في مكان آخر. كانت بيبيانا تتمتع بالامتلاك ذاكرة فيل. ولم تجد صعوبة في تحديد ومعرفة حقيقة كل شخص في تلك الحكومة غير المحكومة، رئيسها لا يواجه الصحفيين أبدًا ولا يجيب على أسئلة غير مريحة في أي مؤتمر صحفي، حين يريد أن يقول شيئًا يلقي خطابًا مطولًا وثرثرة تافهة من فوق منصة مرتفعة. أما الحكومة فمثيرة للقرف بمافياويتها وأكاذيبها، ولكنّ اللقاح المضاد للقرف في البلاد هو الضحك والصفاقة والسخرية. لم يكن هناك ما يروق لمديري الأخبار

أكثر من القصص والريبورتاجات المسلية المضحكة، وقد حطّ أحد هؤلاء مصادفة في حياة بيبيانا.

- أنت لا تدرين ما رأيته في بيت أحد قضاة المجمة العليا يا دونيا بيبيانا - قال لها خوليو -؛ يجب أن تعرضيه في التلفزيون.

خوليو هو البستاني شديد الملاحظة الذي يأتي مرة كل شهر لتشذيب الحديقة، ويشتغل بقية الأيام في بيوت أخرى، فيأتي في كل مرة بنمائم جديدة.

- ما الذي رأيته؟

- لن تصدقيني، ولكن لديه بنجوين حقيقي، لست أكذب عليك، فمثلما يملك آخرون حوض أسماك، لديه هو حجرة مملوءة بالثلج ولها باب زجاجي كبير يُرى مِن خلاله البنجوين وهو يمشي كمخنث، مثلما تمشي هذه الحيوانات.

- أأنت متأكد يا خوليو؟ - سألته مندهشة.

- أقسم لك. لقد رأيته بعينيّ هاتين اللتين سيأكلهما التراب.

كانت بيبيانا قد سمعت إشاعات حول غرابة أطوار ذلك القاضي، لقد كان من السهل نسبيًّا في فاغواس إثبات الشبهات، لا سيما حين تتعلق بأمر من هذا النوع، بقضية لا بد أن يكون أشخاص آخرون على معرفة بها لتجاوزها كل ما هو معهود. من الصعب تصديق ذلك، ولكن مثل هذه الأمور في أمريكا اللاتينية هي أشبه بخبز يومي، ولهذا قررت أن تتحرى الحقيقة.

لجأت إلى صديقة لها تشترك معها في نادي الكتب نفسه، تدعىَ إيفيخنيا.

- إيفي، إنني بحاجة إلى خدمة منكِ، هل لديك فكرة عمن يقوم بتهيئة حجرات ثلاجة في فاغواس؟

لقد كانت إيفي عبقرية تنظيمية، تدير تجارة تصدير لحوم وإربيبان، لها اتصالات بشركات خطوط جوية، وشركات نقل بحري، وشحن برّي، أعطتها أسماء وعرضت عليها تقديم مساعدتها.

ـ لا توجد أسرار في هذه البلاد ـ قالت لها بعد أسبوع ـ. صحيح أنهم قد جهزوا حجرة مبردة للقاضي خِمينيث في بيته، ومسألة البنجوين صحيحة أيضًا. لقد أدخلوه إلى البلاد، من تشيلي، على أنه كلب، يبدو أن لهذا السيد "صديقة" ثرية جدًّا في تشيلي، وقد سافر الكلب مثل باشا في طائرة تابعة لشركة طيران LAN، وأفضل ما في الأمر يا بيبيانا: إنه هدية حب: فهي تدعو القاضي تحببًا «بينغوين».

خطوة بيبيانا التالية كانت الاتصال بإيفا سالفاتييرا، وقد كانت إيفا نائبة مدير شركة خدمات تأمين على المساكن والتأمين الشامل.

ـ أحتاج منك أن ترسلي لي شخصًا موثوقًا جدًّا من أجل مهمة محددة.

تكلمت بعد ذلك مع خوليو، البستاني، وطلبت منه أن يعلن أنه مريض ويوصي ببستاني بديل لزوجة القاضي.

ـ أعدك يا خوليو، إذا ما طردوك، بأن أجد لك عملًا آخر.

بعد أسبوع من ذلك، قام أحد العاملين الموثوقين لدى إيفا، وهو شخص يتطلع إلى أن يكون تحريًّا، بالتظاهر بأنه بستاني. ولم يكتفِ بتصوير البنجوين في حجرته الباردة فقط؛ بل صور كذلك أصدقاء القاضي في حفلة قصف صاخبة بوجود فتيات يرمين أسماكًا للحيوان.

ـ كنت أريد أن أصور أكثر ـ قال التحري المستقبلي ـ، ولكنهم طلبوا مني المغادرة حين بدأت الحفلة تحمى.

أعدت بيبيانا بكل حذر الريبورتاج الذي أعلنت أنه حصري مع نشر مشاهد بصرية فاخرة، دون أن تحدد ما هو مضمونه، ولم يشاؤوا تنبيه

المتورطين، ليحولوا دون سعيهم إلى منع بث التقرير. وعلى الرغم من أن مديري المحطة التلفزيونية كانوا يضحكون ويستغربون القصة، إلا أنهم كانوا يخشون العواقب. أما هي، فقد أوضحت بتهذب، ولكن بحزم، أن البرنامج سيبث أو ستأخذه إلى جهة أخرى.

في الليلة الموعودة، ذهبت مع إيفي وإيفا إلى بار في المنطقة الراقية من المدينة، وكانت تعرف صاحبه. قالت له: سوف تعدني بأن ترفع صوت التلفزيون عندما يبثون نشرة أخبار التاسعة، أقسم لك أنك لن تندم.

وصلن باكرًا، وجلسن إلى منضدة الكونتوار، دعون بعض الأصدقاء للاجتماع معهن، وفي الساعة التاسعة ليلًا كان البار ممتلئًا. كانت بيبيانا تجد صعوبة بالسيطرة على هياجها، إنها تشعر بالغبطة والعصبية في آن واحد. رفع صاحب البار صوت التلفزيون تنفيذًا لما تعهد به، ظهرتْ صورتها على الشَاشة. "البنجوينات حيوانات لطيفة تعيش في واحدة من أشد مناطق العالم برودة: قارة أنتارتيكا، في القطب الجنوبي. لا يمكن لأحد أن يتصور وجود بنجوين هنا، في حرّ فاغواس التروبيكالي. حديقة الحيوان البائسة عندنا، والتي تكاد تعجز عن تغذية جغوارات غاباتنا، سيكون عليها أن تمتلك منشآت باهظة التكاليف من أجل رعاية بنجوين أسير. ومع ذلك أيها السادة، فإن نشرة الأخبار الرئيسية في القناة التلفزيونية الأولى تمكنت من إزاحة اللثام عن وجود بنجوين في فاغوس، بنجوين هنا في مدينتنا، الحيوان المنزلي الأغلى ثمنًا في تاريخنا الوطني...". بينما بيبيانا تروي من خارج الصورة، راحت تظهر على الشاشة صور الحيوان، وبيت القاضي، والقاضي نفسه وأصدقاؤه إلى جانب حجرة الحيوان الشاسعة. لم تعد تعليقات زبائن البار قادرة على الانتظار، انطلقت القهقهات، وصرخات عدم التصديق، والشتائم. يا للهمجي، أمر لا يُصدق، ابن العاهرة، اللص، من ضرائبنا، انظروا إليه،

وعدالة هذه البلاد بين يدي مثل هذا الشخص، يا لها من إهانة، يا للعار، كانوا يصرخون مقحمين عبارات بذيئة قاسية في كلامهم.

صفقوا لبيبيانا عند انتهاء الريبورتاج، واقتربوا منها رجالًا ونساء لمعانقتها وتهنئتها. أحسنتِ صنعًا، هذا يعجبني، أخيرًا ظهر من يتجرأ على كشف عصبة القساة هؤلاء ووضعهم تحت ضوء الشمس، أعداد هائلة من الناس يموتون جوعًا بينما هذا يهيئ حجرة مبردة لبنجوين، مثل أي مليونير غريب الأطوار.

وفكرت بيبيانا: لسوء الحظ أنه مهما بدت مسألة البنجوين مضحكة وعبثية، إلا أنها تلخص بصورة ساخرة فساد موظفي فاغوس العموميين المنحرف والمتمادي. يمكن لها ولأصدقائها أن يضحكوا، ولكنهم لن يكونوا من يضحك أخيرًا أو من يضحك أفضل. ومع ذلك، فإن هذا الانتصار الصغير يستحق أن يُحتفل به. واصلت هي وإيفي وإيفا اجتماعهم في بيت ريبيكا، وهي صديقة أخرى من الجماعة.

في اليوم التالي انقض حشد من الصحفيين على القاضي خيمينيث - وهو شخص بدين ومزعج بصورة عدوانية - عند وصوله إلى مكتبه في المحكمة العليا. وباستهتار ووقاحة لا تُصدق، حاول خيمينث أن يقدم نفسه كحامٍ للحيوانات وروى قصة لا يمكن لعقل أن يقبلها: وجدَ البنجوين مشرفًا على الغرق قبالة شاطئ بيته على ساحل المحيط الهادي في فاغوس المدارية، فقام بإنقاذه.

- الحلقة الثانية - قالت بيبيانا لرئيسها في العمل في اليوم التالي -: لدي أدلة على أنه يكذب، فالبنجوين أرسلته إليه عشيقة له من تشيلي، أقترح أن نُعد برنامجًا آخر لتكذيبه، كما أن ريبيكا دي لوس ريوس، وهي صديقة اقتصادية، مستعدة لأن تُثبت بالأرقام ما كلفته وتكلفه رعاية البنجوين.

ولأنهم راكبون في المركب نفسه مثلما كانت حالهم ـ ومع مداعبة الأنا بالتهاني الكثيرة، ودلالة ارتفاع نسبة متابعي القناة ـ وافق مجلس الإدارة. وفي البرنامج التالي، تخلت بيبيانا عن اللهجة الساخرة وقصفت القاضي بتقرير من الشارع يُظهر بما لا يدع مجالًا للشك الازدراء العام للصفاقة التي حاول أن يبرئ بها نفسه.

كانت فضيحة البنجوين كبيرة، وقد انتقلت إلى كافة وسائل الاتصال. ومع ذلك، وعلى الرغم من الصرخة الشعبية المطالبة بإزاحة خيمينث، فقد بقي القاضي المدعوم من الرئيس في منصبه.

لقد كان أحد أوراق الحكومة الأساسية؛ فهو حقوقي بارع في ليِّ أي قانون أو حكم قضائي ليتلاءم مع الحاجة السياسية لرؤسائه.

إذا كانت بيبيانا في حياتها اليومية، مثلها مثل معظم مواطنيها، تلعب لعبة النعامة أو لعبة قِردةِ "لا يرى، لا يسمع، لا يتكلم"، فإن قصة البنجوين قد جذرت رديكاليتها. إنها تضحك وحدها أحيانًا وهي تفكر بأنها إذا ما كتبت سيرة حياتها، فسوف يكون عليها أن تقسمها إلى ما قبل البنجوين وما بعده. لقد تلقت بعد الريبورتاج فيضًا من الرسائل في بريدها الإلكتروني، بعضها تهنئات مقتضبة، وإطراء على "شجاعتها"، ولكن قسمًا كبيرًا آخر كان شهادات حزينة ومؤلمة عن الجور والظلم، وطلبات مساعدة، وقصص عن الخذلان المعمم والقرف العاجز لمواطنين غير قادرين على رؤية أي ضوء في نهاية نفق هذه البلاد المنكوبة، إننا بحاجة إلى أناس مثلك في فاغواس، لماذا لا تتقدمين للترشح للرئاسة؟

هي رئيسة؟، كانت تبتسم، من الذي يمكن أن يخطر له مثل هذا الأمر.

ولكن القصص التي بدأت تتابعها بشراهة في الصحف، والرسائل التي تواصل التدفق إليها، والناس الذين يوقفونها في محلات

السوبرماركت ويروون لها تجاوزاتٍ، مقترحين عليها التقصي حولها، صارت تحتل قسمًا أكبر فأكبر من تفكيرها. وشيئًا فشيئًا توقف الاقتصار على المراقبة والصمت عن أن يكون خيارًا لها.

كانت تفكر أنه من المحزن أن تقرأ في استطلاعات الرأي أن الخيار الأكبر للشباب هو الهجرة، أو أن تسمع حسرة شاعر كبير كتب يقول:

"أرغب في أن أكون أجنبيًا كي أغادر بلدي". بلد غارق في اليأس، وشعب مستسلم لتقبل الخزي، تفوح منه رائحة جيفة، ولم تكن تريد لابنتها أن تكبر محاطة بجثة التمدن، جثة القيم الإنسانية، جثة السعادة.

عملت عدة ليالٍ على اقتراح برنامج تقدمه لمديرها، وكان الخط البياني لاستطلاعات الرأي يعمل لصالحها.

ـ أعتقد أن برنامجًا أسبوعيًّا ليوم الأحد، في الساعة الثامنة ليلًا سيكون له جمهور وسوف يجلب إعلانات ـ قالت له.

بعد أسبوع تلقت الرد بالموافقة، وافقوا على اسم البرنامج: **قليل من كل شيء**، وعلى ميزانية لموقع التصوير، ومنتجة تكون مساعدة لها. وصلت إلى بيتها سعيدة تلك الليلة، اتصلت بصديقاتها، واحتفلت بالأمر على العشاء مع كونسويلو وسيليستي.

ـ أتعرفين؟ ـ قالت لها أمها بعد أن أنهت سيليستي واجباتها المدرسية، ونظفت أسنانها وذهبت للنوم ـ، مرة واحدة في حياتي قرأت حظي في ورق التاروت، كنتُ حزينة بعد اختفاء أبيكِ؛ فأخذتني إحدى صديقاتي إلى بيت قارئة كف، وقد قالت لي تلك السيدة: ابنتك منذورة لأمور عظيمة.

ـ ولماذا لم تخبريني بهذا من قبلُ؟ ـ ابتسمت بيبيانا.

ـ لست أدري، لم أُوْلِ الأمر أهمية كبيرة، ولكنني تذكرت مؤخرًا تلك الجملة، وأظن أنها صحيحة. شخصية مثلك يجب عليها أن تتصدى للحياة مواجهة، بلا خوف؛ لأن الخوف مستشار وناصح سيئ.

أعادت بيبيانا الساعة المنبه إلى الرَّف وفكرت كم هي محظوظة بأن لها أمًّا كأمها.

بيترونيو كاليرو

كان جائعًا لكنه يقاوم الذهاب إلى المطبخ، يجلس في صالة البيت الصغير غاضبًا، يتأمل الغروب وهو يتلاشى بحمرته من خلال النافذة. ووراء الباب المفتوح، كانت الحديقة الصغيرة تشكو منطوية على نفسها، عليه أن يسقي النباتات، منذ يومين لم يسكب عليها قطرة ماءً، يبدو الظمأ واضحًا عليها، حتى النباتات تشكو منه في هذا البيت اللعين. لا بد من رؤية الكلب، ما أن يغير هو من وضعه حتى يرفع الحيوان أذنيه أو يصعد فوق ركبتيه متوسلًا. نظر إلى قدميه المحشورتين في الخف البلاستيكي الأسود، يا للقرف، هو أيضًا لم يستحم منذ يومين، لن يتأخر مجيء امرأته من العمل وستجده مثلما كان حين تركته، ملامح الضجر نفسها، التكاسل، الاسترخاء والإهمال، سوف تغضب وتشتم أمه بسبب إهماله النباتات والكلب. كيف كانت هي تتدبر الأمر لتبقي نفسها مشغولة خلال سنوات بقائها في البيت، حين لم يكن لها عمل تذهب إليه؟ ليس لديهما أبناء، الطبيعة لم تقدم لهما هذا الجميل، لم تأخذ أولجا الأمر على محمل السوء، إن لها روح راهبة: مضحية وصامتة. وهي كذلك حتى في الفراش، فجعلها تطلق تأوهًا يعتبر مؤثر، ولكنها ذكية. يمكن أن يعيشا بصورة أفضل، سيعيشان بصورة أفضل، قال مصححًا، إذا ما تولى هو شؤون البيت، ولكن الكسل يستهلكه، فبعد القيلولة، يقوم بجولة في الجوار، تنهار عليه الجدران، يُثقل عليه الصمت، لم يعد بإمكان السموات نفسها أن تسليه. حين كان شابًا لم يترك أولجا تعمل قطّ، ما الذي سيقوله

عنه أصدقاؤه، والناس، ما دام هو قادر على الإنفاق عليها؟ ولكن ماذا عن دراستي؟ إنني مهندسة صناعية والبلاد بحاجة إلى أناس مؤهلين مثلي. أنا بحاجة إليكِ أكثر. هكذا أجابها. بكت هي بضعة أيام ولكنها استقرت بعد ذلك. حافظت على البيت رائقًا لا تشوبه شائبة، تعلمت الطبخ، وهي تقول له الآن: أرأيت ما الذي فعلته أنا، لماذا لا تتعلم الطبخ أنت؟ لقد تعلم بعض الأمور في الشهور الأولى. الحقيقة أنها لم تكن علومًا معقدة، لم ترُق له المهنة، لكنه تعلَّم طهو الأرز، والفاصولياء، وقلي الموز، وشَيّ اللحم، لم يكن ذلك صعبًا في البدء. انشغل في الحي مع الرجال، بنوا قاعات، نظفوا أفنية البيوت، ركّبوا سقوفًا وأرضيات لرياض أطفال تديرها، في كل مجمع أبنية، أمهات لديهن استعداد فطري لرعاية أطفال من النساء اللواتي يخرجن إلى العمل ولا أزواج لهن، وكان هو نفسه يعطي دروسًا، مرتين كل أسبوع، في إحدى رياض الأطفال. يعلم الأطفال الرضع، يقرأ لهم الحكايات، وعندما يتوافر له من يتبادل الحديث معهم، لم تكن التعليقات تتوقف حول التغيرات في البلاد، مع أن وضعه لم يكن سيئًا جدًّا. ولكن صار عليه في الفترة الأخيرة قضاء وقت طويل في البيت، وهو ما لا يستطيع تحمله، الوحدة بلا صوت وبلا صدى. الحقيقة أنه لم يكن هنالك الكثير في رأسه، ولم يكن يهتم بتقليب ما هو موجود فيه ومراجعته، فالنساء على الأقل يستطعن، لأنهن عاطفيات، أن يفكرن لساعات في مشاكلهن ومشاكل الآخرين. أما هو، فالصمت يُثقل عليه، نهض واقفًا، وخرج دون رغبة إلى الحديقة، مدّ خرطوم الماء وأخذ يسقي النباتات، وبينما هو يفعل ذلك سمع جرس عربة بيع الثلج المبشور ورأى خوسيه ديلا أريتمتيكا في أعلى الشارع يمشي متقدمًا باتجاهه.

ـ ما الأخبار يا معلم ـ سأله بيترونيو.
ـ ما زالت في غيبوبة.
ـ ماذا سيحدث الآن؟
ـ لا أحد يعرف يا بيترونيو، لا أحد يعرف.
ـ الأخريات يشعرن أنهن مخدرات، الرئيسة هي من كانت تستنهضهن.
ـ هذا ما كان يعجبني بالرئيسة، لم تكن تضيع الوقت في سعيها لإرضاء الجميع.
ـ من دونها تغيرت الأمور.
ـ الأمر يحتاج إلى نظر، أنا كنت معتادًا على أن النساء هن من يحكمن، على أن أستسلم للإغواء... ـ ضحك خوسيه كاشفًا عن صف من الأسنان غير المنتظمة.
ـ أنا لم أعد قادرًا على تحمل الضجر، لاحظ أنني كنت أتساءل، كيف تحملت زوجتي البقاء محبوسة في البيت سنوات طويلة.
ـ لقد كانت الرئيسة محقة بأنه لا يمكن لأحد أن يتعلم بحذاء شخص آخر.
ـ لقد تعلمتُ، ما أريده الآن هو العمل.
ـ يا للعجب يا بيترونيو، لقد عملت طوال حياتك، لماذا لا تسترخي الآن؟
دفع بيترونيو ثمن الثلج المبشور الذي قدمه إليه خوسيه دي أريتمتيكا مستمتعًا برحيق الكرميلا الكثيف، وبدأ لحسه.
ـ لا أعرف الاسترخاء ـ ابتسم في تكشيرته ـ سلّم على ميرثيديس.
ـ وسَلّم أنت على السيدة أولجا.

إيفا سلفاتييرا

لم تعد إيفا قادرة، منذ محاولة الاغتيال، على تحمل الغضب الذي تكبحه، وقد حوّلها إلى إعصار من لحم وعظم. كانت تمضي مضطربة، تقلب الكؤوس على المنضدة، والمزهريات ومنافض السجائر، وتتعثر بزوايا قطع الأثاث، يداها وقدماها تخونان نواياها في إبداء أنها هادئة، وأنها لم تفقد اتزانها.

فهنَّ، سيدات الإحصائيات المحدثة المبالغ في دقتها حول العنف ضد النساء في فاغواس والعالم، لم يتخذن الاحتياطات اللازمة لحماية حياة رئيستهن، إنه أمر لا يغتفر. ومع ذلك، إجراءات الأمن حولها لم تكن أقل من المعتاد في ذلك المساء. فالمنصة الدائرية وسط الجماهير كانت مجازفة كبيرة، لكن بيبيانا قررت أنه، كما في حملتها، سيكون هذا هو رمز رئاستها. لم تكن هناك طريقة لجعلها تتراجع، لم ترضخ أمام ضغوطها هي وغيرها من الضابطات ذوات الخبرة العسكرية؛ ففي المناطق المفتوحة، لا يشكل الحزام الشرطي حول المنصة حماية كافية، ولا عدد العملاء السريين المنتشرين بملابس مدنية بين الحشود.

ومثلما توقعتْ بالضبط، زادت الألعاب النارية من خطورة الأمر. وتحسبًا لصعوبة ممارسة المراقبة وسط كل تلك المفرقعات وتشتت الانتباه (لم يخامرها أي شك في أن الشرطيات الشابات لن يضيعن على أنفسهن مشاهدة عرض الألعاب النارية)، حاولت إيفا الحفاظ على سرِّيّة المفاجأة، ولكنه ذلك النوع من الأسرار الذي لا يرى من عليهم حفظها ما

يحول دون إطلاع أصدقائهم وأقربائهم عليها كيلا تفوتهم مشاهدة العرض. ويمكن أن يكون السِّر قد تسرب عبر فنيِّي الأسهم النارية، أو من جاؤوا بها إلى الموقع، أو عبر من رتبوا المشهد، أو حتى عبر الموظفين الوطنيين في السفارة الصينية. وعلى أي حال، من المفترض أن هذه المعلومة كانت حاسمة جدًّا لمن خططوا للاعتداء، وأنهم قد أخذوا بعين الاعتبار الدوي الذي ستحدثه الأسهم النارية وتشتت انتباه الشرطيات، وهو ما حدستْ أنه سيكون من الصعب التحكم به. لقد أصدرت أمرًا بمراجعة قوائم العاملين والتحري عنهم، ربما لا يكون ذلك هو المسار الأفضل، ولكنه الوحيد حتى تلك اللحظة. كانت مكاتب المخابرات العسكرية تبدو أشبه بمستوصف طبي لتجميع الناس الذين ينتظرون في حجرة الانتظار من أجل الدخول وتقديم إفاداتهم، إلا أنه لم يكن بالإمكان حتى تلك اللحظة التوصل إلى أي شيء واضح.

أحست بالوحدة، لم تكن لها أسرة، كان أبوها قد توفي في السنة السابقة، وهو هرم جدًّا. لقد كان مناضلًا في الثورة، لكنه مات حزينًا؛ لأن أحلامة تبددت. على الرغم من أنه في شبابه، حسب ذكرياتها، كان رجلًا مرحًا، وأنه بعد وفاة أمها ـ وكانت هي لا تزال مراهقة ـ كرس لها كل حبه ووقته. لم يكن رجلًا مثقفًا، ولكنه كان نزيهًا، وربما هذيانيًّا بعض الشيء، يقول إنه من المناسب على الدوام الحفاظ على درجة معينة من الهذيانية. ولهذا، وكتسلية في أيام الآحاد، نقل إليها أفضل ما يعرفه: الفن العسكري، دربها على فك السلاح وتركيبه، وعلى تكتيكات حرب عصابات المدن. وكان يقول لها: من يدري... ربما ستحتاجين ذات يوم لهذه المعارف. وقد كانت نافعة لها حقًّا، ليس بالطريقة التي تصورها أبوها، ولكن من أجل تأسيس شركتها الخاصة للخدمات الأمنية.

ما لم تعرفه قطّ من أبيها، وكان يبقيها مستيقظة ومؤرقة في بعض الليالي، هو سر دوره في اختفاء الرجل الوحيد الذي أحبته بلا قيود، إنه نموذج مبهر تعرفت عليه في دروس الجودو، وكان زوجًا طيبًا وعذبًا إلى أن لم يعد كذلك، حتى الليلة التي دفعها فيها إلى الجدار، وركلها، وضربها بقسوة لم تستطع معها الدفاع عن نفسها. ما الذي فعلته هي أكثر من سؤاله أين كان، ربما بقليل من الانزعاج، لأنه رجع في وقت متأخر ورائحة خمر الروم تفوح منه؟ ردة فعله استثارت رعبها. نسيت تدرُبِها، ورشاقتها البدنية، واستسلمت له كما لو أنها كيس ملاكمة يتدرب بها، مذهولة ودون أن تفهم ما الذي يحدث. لم تتقبل بعد ذلك بكاءه واعتذاراته، تركته، تركت كل ممتلكاتها في البيت، لم تحمل معها شيئًا. بدأ بمطاردتها، بالبحث عنها، الاتصال بها هاتفيًا، أخضعها لحصار مرعب، وجدت نفسها مضطرة، رغمًا عنها، إلى اللجوء إلى أبيها. إنها تتذكر جيدًا ارتعاشها المنفلت الذي وصلت به لتلوذ بالصدر الكبير والدافئ لذلك الرجل الطيب والمتضامن الذي استبقاها ملتصقة به إلى أن هدأت تمامًا. ما الذي دفعتُكَ إلى فعله يا أبي؟ لم تعرف ما الذي فعله قطّ، ولكن بدا كما لو أن الأرض قد ابتلعت ريكاردو، لم يعد لإزعاجها قطّ. واجهت أباها مرات عديدة، هل قتلته؟ أخبرني فقط إذا كنت قد قتلته؟ فكان ينظر إليها، ينفي برأسه، لم يقرّ بذلك أبدًا، ولكنها كانت متأكدة، وراح ذلك اليقين ينهشها من الداخل. الليلة التي مات فيها أبوها، أمضتها بجواره، تحدثه، تقول له إنها تحبه، تطلب منه يطمئنها بقول الحقيقة قبل أن يغادر، لكنه لم يقل شيئًا، لم يفتح عينيه. وعند الفجر، حين سمعته يتنفس مثل كير، وضعت في جهاز الصوت الموسيقى التي يفضلها واحتضنته بذراعيها إلى أن لفظ النفس الأخير. لم ينطق أبوها بأي كلمة، حمل معه إلى القبر المصير الذي آل إليه ريكاردو الذي لم تستطع

الوصول إليه رغم كل التحريات التي قامت بها. نظرها يضيع هائمًا في بار، في إحدى الليالي البعيدة، وتعليق قيل بصورة عابرة عن رحلة مستقبلية إلى المكسيك، ربما يكون في المكسيك، إنها تفضل ذلك، لكن شيئًا ما يقول لها لا، وأنه لم يتمكن من السفر قطّ.

دخلت بيولا، السكرتيرة، على رؤوس أصابعها إلى المكتب، كانت رئيستها تنظر إلى النافذة بعينين ثابتتين، كمن هي في غيبوبة. أحست بالأسى، ولكن لم يكن أمامها مفر من تذكير قائدتها بأن المهمات يجب أن تُنجز.

- اليوم هو الخميس - قالت وهي تنتصب قبالة منضدة المكتب - هل نُخرج المغتَصِبين أم لا؟

رفعت إيفا بصرها، عقدت ما بين حاجبيها، المغتصِبون، يوم الخميس.

- ولماذا سنتوقف عن إخراجهم؟ - سألتها.

- لا أدري - أجابت بيولا -. خطر لي أنه ربما نفعل ذلك بسبب الحداد...

- الرئيسة لم تمت، لا نعرف إن كانت ستتعافى، ولكنها على قيد الحياة، وستظل حية إلى أن تصدر أوامر جديدة، مفهوم؟

- أجل، بالطبع.

- لا توقف إذًا، فليتم كل شيء كالعادة - ثم أضافت مخففة نبرة صوتها:- شكرًا يا بيولا.

غادرت الفتاة الغرفة.

إيفا هي صاحبة فكرة عرض مغتصِبي النساء في أمكنة عامة، داخل زنازين مكشوفة كالأقفاص، يجري إخراجهم أيام الخميس، ويُتركون معروضين طوال نهاية الأسبوع في أسواق وساحات الأحياء التي تعيش

فيها ضحاياهم، أو في وسط الميادين الأكثر ارتيادًا للسيارات. كان يمكن للناس أن يقتربوا منهم، كثيرون كانوا يفعلون ذلك، وفي كل مرة كان يزداد عدد النساء من كافة الأعمار اللاتي يقتربن للمرور قبالة الأقفاص للنظر إليهم والقول لهم ما يمليه عليهن اشمئزازهن. ويضعون فوق قفص كل متهم إعلانًا يوضح سبب حبسه. "خوان بيريث. مغتصب. عمر الضحية: ٥ سنوات. علاقته بها: ابنة زوجته"، "رامون ألدوفينو. مغتصب. عمر الضحية: ١٣ عامًا. العلاقة: جارها". وفي صندوق قبالة الأقفاص، يترك الأهالي ملاحظاتهم واقتراحاتهم عن الطريقة التي يجب أن تكون عليها عقوبة الجريمة. وهم يقترحون، بصورة عامة، عقوبات بالغة القسوة: الإخصاء، السجن المؤبد، الجَلْد، الشنق، الموت. ولكن حكومة النساء كانت قد ألغت عقوبة الإعدام وعدّلت عقوبة الحبس بطريقة لا يشكل السجناء معها عبئًا اجتماعيًّا، فجميعهم يعملون، من الإثنين حتى الأربعاء. المغتصبون مثلًا، ينظفون المقابر ويحفرون قبورًا (وهذه فكرة توصلت إليها جماعة من النساء مع تعليل جيد بأن ذلك يحول دون اقترابهم من الأحياء)، بينما السجناء بجرائم أقل شأنًا يقومون بجمع القمامة.

لقد أرادت إيفا عرض مغتصبي النساء عراة، مع وشمهم بكلمة **مغتصب** فوق المعدة، وبحروف كبيرة (خوانا دي أركو أخذت الفكرة من ليسبيث سالاندر، بطلة ثلاثية **ميلنيوم** للسويدي ستيغ لارسون). وجعل المغتصِب يشعر بالعار، بإخضاعه إلى عقوبة أخلاقية مماثلة لتلك التي تعاني ضحاياهم منها، لاسيما من يخترن الصمت منهن، وهؤلاء أخذن، لحسن الحظ، بالتناقص؛ ذلك أن تلك العقوبات قد بثت فيهن شجاعة الادعاء على المعتدين عليهن، وصرن يشعرن أخيرًا بأنهن محل تفهم في إحساسهن بالمهانة، وبدأن يتقبلن بينهن وبين أنفسهن بأنه يروق لهن

رؤية أولئك الرجال محبوسين في أقفاص كالقرود. إن إيفا تؤمن إيمانًا ضاريًا بلطف السخرية الاجتماعية، مقتنعة بأنه يمكن حتى لأشد أشكال العقد النفسية التواء أن تحتفظ بأثر كافٍ من الإنسانية للشعور بالعار والندم.

ومع ذلك، فإن عرض المغتصبين أدى إلى مناظرات كبيرة؛ فقد حذرت السلطات الكنسية والشخصيات السياسية من الأثر الوبيل للانتقام في الأرواح، ووقفوا مع الاتجاه القائل بأن امتهان كرامة بعض النساء لا يمكن التخفيف منه بامتهان كرامة الآخرين. وعلى مواعظهم هذه جاء ردّ النساء جماعيًّا، ظهرن كسيل عارم في البرامج الإذاعية، وفي صفحات الرأي في الجرائد، ليبصقن في وجه الازدواجية الأخلاقية التي تندفع الآن للدفاع عن فاسدين بينما لم تتخذوا موقفًا قطّ من المشكلة الخطيرة المتمثلة بممارسة العنف ضد النساء. اتهموهم بتجاهل تلك الجائحة الصامتة والقاتلة، والمجيء الآن لغسل أيديهم مثل بيلاطس البنطي. وبهذا الاندفاع، تمكنت إيفا من جعل الجمعية العامة توافق على مطلبها باستخدام الوشم ـ وهو أقل استعراضية ولكنه نافع كذلك ـ للمغتصبين أصحاب السوابق. وهذا، كما قالت في مرافعة نارية، نظام التنبيه الوحيد الذي لن يكلف الدولة ثروة طائلة، ولن يزيد الضرائب التي يدفعها المكلفون. وقد وافقت النائبات البرلمانيات على هذا الاقتراح بالأغلبية، وتم الاتفاق على أن يجري وشمهم بحرف (م) صغير على الجبين بدلًا من كلمة (مغتصب) كاملة على البطن، ذلك أن المغتصبين لا يخلعون، عادة، حتى بناطيلهم.

الفنجان

نظرت بيبيانا إلى الفنجان. كان عليه شعار برنامجها التلفزيوني قليل من كل شيء. وتقول الكتابة: «**قليل من كل شيء**» في سطرين، وفي سطر آخر حول الفنجان كله اسمها: بيبيانا سانسون. مؤسف عدم عثورها على قهوة في الفنجان. استنشقت الهواء لتتخيل شذى صباحات كثيرة من حياتها. كيف يستسلم أحدهم لعدم العيش، لعدم الشعور بالجوع أبدًا، قضم شريحة لحم، تناول قطعة مثلجات؟ الجسد، الحواس، كيف سيكون افتقادهما؟ أي سماء يمكن لها أن توجد دون لمس، وسماع، ورؤية، وشم لسان الحبيب والاحساس به في تجويف الفم، الإحساس ببشرة الآخر تحتك ببشرته، أن يسمع في الليل، بين الملاءات، تأوه اللذة الخافت الذي يقدمه لكائن بشري آخر؟ ما الذي تراه يحدث في الخارج بينما هي هناك، تحتجزها ذكرياتها، تتذكرها واحدة فواحدة. فهذا الفنجان، على سبيل المثال، إلى أي قطاع من ذاكرتها سينقلها؟ إنها لم تلمسه بعد. أمسكت بمقبضة. وما إن لمسته حتى أحست بدفء أضواء حجرة استبدال الملابس. لقد كانت تتخلص من مكياجها بعد تسجيل البرنامج. رأت وجهها في المرآة، بشرتها الناعمة واللامعة، عينيها الواسعتين. جميل وجهها.. رأت شعرها المتشابك المشعث، كتفيها وذراعيها المسكوبين والقويين. لقد كانت الطبيعة كريمة معها. دخل أحدهم، مدعو إلى برنامج مجلة الصباح. حيته بيبيانا، خرجت من حجرة الكواليس ورجعت إلى مكتبها.

تحيط بها نوافذ فسيحة. إحداها تطل على ممر مسقوف بين بنائين، والنافذة الآخرى تطل على ممر يمر منه الفنانون أو الأشخاص الذاهبون للتسجيل في الاستوديو. المطر يهطل بغزارة. رن الهاتف. كان صوت سقوط المطر صاخبًا إلى حدّ لم تكد تتمكن معه من سماع صوت مكلمها. فقالت: الصوت غير مسموع. وأغلقت الهاتف. طلبت الاتصال في ما بعد.

اتكأت على مسند الكرسي واضعة يديها وراء رأسها، وبهدوء راحت تستمتع بمذاق القهوة الساخنة وبلحظة التأمل بعد البرنامج. امرأة نحيلة، شابة جدًّا، بثوب مفصل على مقاس جسدها، بشامات سوداء على خلفية بيضاء، لمست الزجاج بمفاصل فقرات أصابعها. نظرت إليها مستفسرة، لاحظت بيبيانا أن هناك شيئًا من عدم الانسجام بين وجهها وهندامها، بدا عليها أنها مستعجلة، متسرعة، إنهم يتصلون بها عادة من قسم الاستقبال قبل مجيء أحد للقائها، فكرت في أنها قد تكون صاحبة المكالمة التي لم تستطع سماعها. نهضت، وأدخلتها.

ـ أنا باتريثيا. أحتاج لمساعدتك ـ قالت الفتاة. وظلت واقفة وظهرها ملتصق بالباب. لاهثة ـ لا أريد أن يروني هنا.

لم تدر بيبيانا ما عليها أن تقول، عقدت ما بين حاجبيها مستفهمة ومتفحصة.

ـ الأمر له علاقة بقضية البنجوين، يمكنني أن آخذك إلى مكان...

أشارت لها بيبيانا بألا تتحرك. ذهبت نحو الستائر التي تعزلها عن الممر وأغلقتها.

ـ يمكنك أن تجلسي ـ قالت ـ لا يمكن لأحد رؤيتك الآن.

جلست الفتاة، لها مظهر هاربة؛ إنها كذلك أو أنها تعاني من عقدة الشعور بأنها ملاحقة. جلست بيبيانا إلى جانبها، نظرت إليها بتعاطف، ابتسمت لها، وقدّرت عن قرب أنها في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة

من عمرها. المكياج يجعلها تبدو أكبر من سنها. حذار، إنها فخ، قالت لنفسها.

- فلنر. إنك عصبية. أليس كذلك؟ حاولي أن تهدئي وأخبريني بما جرى لك. كم عمرك؟

- ستة عشر عامًا.

- ظننت أنك أكبر.

هزت الفتاة كتفيها، وابتسمت دون رغبة.

- أيمكنك الذهاب معي الآن؟ سأنتظرك خارجًا وتمرين لأخذي عند الناصية. صدقيني. الموضوع مهم - كان صوتها ترتعش. وكانت مبللة بالمطر. ترتجف من البرد بين وقت وآخر. تقضم أظفارها.

نظرت بيبيانا خارجًا. المطر ما زال يهطل.

- إنني بحاجة لمعرفة المزيد - قالت بيبيانا -. لا يمكنني الخروج من مكتبي واللحاق بك ما لم أعرف ما هو الموضوع.

- انظري، إذا ما ساعدتني يمكنني أن أخبرك بأشياء عن القاضي خيمينيث تكفي لتدميره.

- حسنًا. ولماذا لا تستطيعين إخباري بما لديك هنا بالذات؟

- لأن هناك أخريات مثلي. وقد وعدتهن بأن أجمعهن... معك.

- أخريات مثلك. ما الذي تعنينه؟

- إننا نريد الهروب. لقد اختطفونا - قالت الفتاة وهي تكاد تبكي

- لا تسألني أكثر. ساعديني، أتوسل إليكِ.

اتخذت بيبيانا القرار، حدست أن الفتاة لا تكذب.

- أوكي - قالت - سوف أمر لأخذك عند الناصية.

خرجت الصبية مطأطئة رأسها، واتصلت بيبيانا بإيفا.

- إنني ذاهبة إلى أمر له علاقة بالقاضي خيمينيث - قالت لها - إذا لم أتصل خلال ساعتين، اتصلي برئيسي، اتفقنا؟

ـ يمكنني أن أرسل إليك أحدًا ـ قالت إيفا قلقة.

ـ لا يوجد متسع من الوقت. لدي إحساس بأن هذه الصبية لا تكذب. انتظري اتصالي.

ـ أغلقت الهاتف، دست المفاتيح في محفظتها، وأطفأت الأضواء.

توقفت عند الناصية لتصعد الصبية إلى السيارة، كانت مبللة، وكان المطر يشتد.

ـ أخبريني بما لديك عن القاضي ـ سألتها بيبيانا ـ؛ وأخبريني إلى أين عليّ أن أتوجه.

ـ توجهي نحو الطريق إلى المطار ـ قالت الأخرى ـ القاضي خيمينيث شخص شرير، إنه يحبسني مع فتاتين أخريين في بيت، لقد اشترانا من قواد، وهو يستعملنا، ولكي أهرب، بردنا قضبان النافذة بمبرد، أنا خرجت، لكن الاثنتين الأخريين بقيتا، إنهما تنتظراننا، سوف نخبرك بأمور لا يمكنك تخيلها ولم تخطر لك على بال.

ـ وهل يوجد غيركن في البيت؟

ـ من يحرسنا لم يكن موجودًا حين خرجت، فهو يذهب أحيانًا لشراء سجائر.

ـ لماذا لم تذهبي إلى الشرطة؟

ضحكت الصبية.

ـ كي يعيدوني من حيث جئت؟ الشرطة مشتراة.

كانت الصبية ترتجف من البرد، وكانت بيبيانا تراقبها بطرف عينها، دون أن تسهو عن مراقبة الطريق.

ـ توجد منشفة في المقعد الخلفي أستخدمها لتنظيف الزجاج، ليست نظيفة تمامًا، ولكن يمكن أن تستخدميها لتمسحي عنك الماء قليلًا ـ قالت لها، ثم سألتها:ـ ما اسمك؟

- باتريثيا.
- أخبريني بقصتك يا باتريثيا، لدينا وقت لا بأس به للوصول.
دست بيبيانا يدها في محفظتها، بحثت عن آلة التسجيل، وضغطت على زر التسجيل.
واصلت باتريثيا الارتعاش. خطر لبيبيانا أن تشغل جهاز التدفئة في السيارة، لم يكن استخدامه ضروريًّا قطّ في فاغواس، ولكنها لم تتحمل رؤية الفتاة ترتجف.
- لا تخافي - قالت لها - حاولي أن تتنفسي بعمق وببطء.
- إنني خائفة جدًّا - انفجرت باتريثيا في البكاء.
- لن أسمح بأن يحدث لك أي شيء - قالت بيبيانا وهي تربت لها على ساقها، ودت لو تحتضنها، فعلى ضوء مصابيح الطريق، وبينما هي منكمشة على نفسها في السيارة، كانت تبدو هشة، مراهقة.
- كيف تعرفتِ على القاضي خيمينيث؟
- إنها قصة طويلة، أخبريني إذا ما وجدتِها ثقيلة الوطأة...
- هيًّا، ابدئي.
- أنا من الشمال، أرسلتني أمي للعمل في دكان حيث خالي في كوينا. سارت أموري على مايرام في البدء، ولكنني حين بلغت الثالثة عشرة بدأ عدة زبائن يسألونني عما إذا ظهر أول الشّعر، ويطلبون أن أريهم شيئي. انتبه خالي للأمر، وضربني ضربًا مبرحًا، قال إنني أنا المذنبة. وفي أحد الأيام، اندس في الفراش. من الأفضل أن يعرف كيف هو نفسه شيئي، ومن الأفضل أن يفعل هو ذلك وليس غيره، هكذا قال. ألقى بنفسه فوقي، أجبرني، آلمني كثيرًا، وقد رفسته، عضضته، دافعت عن نفسي كيفما استطعت. في اليوم التالي تركني مقيدة في السرير، كان الدم يغطيني. بعد ذلك صار يفلتني في النهار كي أقوم بالخدمة في الدكان، وفي الليل

يقيدني في السرير مرة أخرى. ويسمح بدخول الرجال الراغبين فيّ، في كل ليلة كان الرجال يأتون، يأتي حتى عشرة رجال أحيانًا. وكان يستثيرهم وجودي مقيدة في السرير. أما أنا فكان يؤلمني كل شيء، ولم أكن أفعل شيئًا سوى البكاء، والصراخ بخالي بأن أمي ستجعله يدفع الثمن، ولكن من يدري ما الذي قاله لها؛ لأن أمي جاءت أخيرًا وانهالت عليّ صفعًا، لم تصدق شيئًا مما قلته لها وانصرفت. بعد ذلك سمعت خالي في أحد الأيام يبرم صفقة مع رجل بشأني، عرض عليه الرجل مئتي دولار وأبرما الصفقة، جعلني خالي أستحم وأعطاني ملابس جديدة.

«جئت مع ذلك الرجل الآخر إلى المدينة، وقد اغتصبني أيضًا. اقتادني إلى بيت فاخر حيث توجد فتاتين أخريين، وذات يوم طلبوا منا أن نتمكيج ونتجمل، وهناك حيث القاضي وتلك الحجرة الباردة التي للبينجوين، أدخلوني إليها مع الحيوان، أدخلوني عارية وهم يضحكون لمنظري.

«أخرجوني بعد ذلك، قالوا إنهم سيدفئونني، ومروا عليّ واحد فواحد، رباه. وكان هذا ما يحدث كل يوم سبت وبعض الأيام الأخرى، لا أدري كم عددها، لقد أضعت العدد. بعد ذلك نقلونا إلى بيت آخر، ولكننا كنا نعاد دومًا إلى حيث القاضي، وكانوا يُدخلوننا في البدء دومًا إلى حجرة البنجوين. كما لو أنهم يستمتعون بتعذيبنا. كانوا يقولون إننا ألذ حين نكون متجمدات، مثل جهاز تكييف نقال. كانوا يميتوننا بردًا، ولم يكن يروق للبنجوين كذلك رؤيتنا في القفص، فكان يبدى نزقه. ومنذ بضعة أيام سمعنا أنهم سيبيعوننا لبعض الكولومبيين، وسوف يستبدلوننا بأخريات. جاؤوا بنا إلى البيت لنقلنا إلى المطار، أخافنا ذلك كثيرًا، لا نريد الذهاب إلى بلد آخر. وبما أن الشيء الوحيد المسموح لنا هو مشاهدة التلفزيون، فقد رأينا برنامجك. ولهذا حين خرجت، لم يخطر لي سوى الذهاب

للبحث عنك. لا أطلب منك سوى أخذي إلى الشرطة، وهم سيصلون إلى البيت. حتى إن رئيسهم قد ضاجع إحدى صديقاتي، قال إن تلك هي إكراميته».

لم تبكِ باتريثيا بينما هي تروي قصتها لبيبيانا، كانت قد دخلت في الدفء، وكان لصوتها وقع ساخط، غاضب، كما لو أنها كانت بحاجة للابتعاد كي تتكلم في هذا الأمر.

وضعت بيبيانا يدها على ذراع الفتاة. إنها تسمع مثل هذه القصص، تقرأ عنها في الصحف، ولكنها لم تلتق قطّ مع شخص عاشها وعرفها من الداخل. أحست بأنها غير مؤهلة لمواساتها؛ بل إنها كانت أقرب إلى الرغبة في البكاء من الاشمئزاز، ومن تخيل نفسها بالذات في مثل ذلك الوضع...

وجهتها باتريثيا عبر شوارع موحلة، كانت الأمطار قد هدأت، وفي الأخاديد التي على جانبي الطرق تتدفق مياه وسخة. اقتربتا من منطقة بيوت بائسة، ولكنها بيوت معتنى بها، جدران من الطين مع سقوف قرميد. بدا حيًا هادئًا بالقرب من البحيرة. وضعت باتريثيا إصبعًا على شفتيها طالبة الصمت. خففت بيبيانا السرعة. أشارت باتريثيا إلى بيت في منتصف مجموعة من البيوت وأومأت لها بالدوران إلى الخلف. وحين حاولت بيبيانا الكلام، أسكتتها بوضع إصبعها على شفتيها.

ـ لا أحد يسمعنا يا بتريثيا ـ قالت بيبيانا بعذوبة ـ. إننا في السيارة ـ فضحكت الصبية بصوت خافت.

ـ يا لي من بلهاء! إنها العادة، أعذريني، استديري إلى وراء مجموعة البيوت تلك.

يُفترض أن الفتاتين الأخريين تنتظران خلف بعض حاويات القمامة، إنه المكان المتفق عليه، ولكن لم يكن هناك أحد، ترجلت باتريثيا، لقد كان عقارًا خاويًا.

رجعت إلى السيارة، أجهشت بالبكاء كطفلة، مثلما هي بالفعل، ما الذي يحدث؟

- آه، رباه، مذا حدث لهما؟ أرجوكِ أن تقومي بجولة هنا، ربما تكونان قد اختبأتا في مكان آخر.

صورت بيبيانا البيت بهاتفها المحمول، وبعد نصف ساعة من التجول في الشوارع بدأ الظلام يخيم، لم يكن هناك أي أثر للفتاتين.

- أظن أن صديقتيك لم يحالفهما الحظ مثلك يا باتريثيا - قالت أخيرًا -. سوف تذهبين معي إلى منزلي وسنرى بعد ذلك ما علينا عمله.

- إنهما صديقتاي.

- لكننا فعلنا ما نستطيعه.

- فلنقم بجولة أخرى، أرجوكِ.

ولكنها استسلمت بعد ساعة من ذلك.

- معك حق - قالت لها -. فلنذهب إلى حيث تشائين.

كان البيت غارقًا في الظلام عند وصولهما إليه. فتحت بيبيانا الصوفا - السرير التي في غرفة مكتبها -. وقدمت لها قميص نوم وفرشاة أسنان. ذهبت لرؤيتها قبل أن تأوي إلى حجرة نومها، كان وجه الصبية، على الوسائد البيضاء، ودون مكياج، أملس وبريئًا. لحسن الحظ أنه لا يمكن لأحد، وهو ينظر إليها، أن يتخيل أبدًا ما عاشته هذه الطفلة، هذا ما فكرت فيه بيبيانا. لحسن الحظ أن التعاسة لا تُقرأ على بَشَرة الناس، لحسن الحظ أن الوجوه لا تمتلك موهبة البلاغة.

اتصلت بإيفا، وحين سمعت صوتها ظنت أنها قد اسيقظت من كابوس، وبينما هي تروي لها ما حدث، كانت تبكي مفرّجة عن نفسها.

- كيف يمكن حدوث أمور كهذه؟ كيف يمكن هذا يا إيفا؟ - وبكت إيفا أيضًا -. ماذا أفعل بها؟

- خذيها إلى كاسا إليانثا غدًا. سيقدمون لها مأوى هناك.

- لا أظن أن ذلك ممكن - قالت لها -. لا يمكنني تركها تذهب، عليّ أن أحميها، وأن أبلّغ عن ذلك الخنزير المدعو خيمينيث.

تقلبت في الفراش دون أن تستطيع النوم، نهضت وجلست قبالة الكمبيوتر، بحثت عن معلومات على شبكة الإنترنت. سبعة وعشرون مليون شخص في العالم، أربعمئة مرة أكثر من مجموع عدد العبيد الذين أجبروا على اجتياز المحيط الأطلسي وجيء بهم من إفريقيا، هم ضحايا الاتجار بالبشر. ثمانون بالمئة من هؤلاء نساء.

ظهرت باتريثيا في الأسبوع التالي في برنامجها، وصورة وجهها مشوشة بفلترة خاصة من أجل التستر على شخصيتها. تكلمت بثقة بالنفس، قدمت تفاصيل قضت على أية شكوك حول حقيقة شهادتها.

(مادة تاريخية)

صحافة

سقوط خيمينيث

رئيس الجمهورية، باكو بويرتاس، وافق اليوم على الاستقالة المبرمة للقاضي روبيرتو خيمينث. وقد كانت استقالته متوقعة منذ يوم أمس، بعد اجتماع خاص للرئيس مع قضاة المحكمة العليا في القصر الرئاسي. لقد كان خيمينث متورطًا في شبكة لتهريب قاصرين، تصدّر أطفالًا إلى المنطقة كلها بهدف استغلالهم جنسيًّا. الصحفية في القناة التلفزيونية الأولى، بيبيانا سانسون، نشرت القصة في نشرة الأخبار التلفزيونية يوم ٨ في تموز/ يوليو. وقد استدعي القاضي خيمينيث من قبل النيابة العامة للجمهورية، وعليه المثول أمام المحاكم للرد على الاتهامات الموجهة إليه. وفي أثناء ذلك أمره القاضي بالبقاء في بيته الذي يسكنه كإقامة جبرية.

آلة صنع القهوة

انتقلت

بيبيانا من الفنجان إلى آلة صنع القهوة التي تلمع على الرف، ابتسمت لدى رؤيتها والتعرف عليها. من ذا الذي لمّعها؟ المرة الأخيرة التي رأتها فيها كانت في سيارتها، يوم فكرت أن تأخذها لإصلاحها. لديها هوس محاولة التلاعب بالآليات التي تضفيها التكنولوجيا ببراعة على الأدوات الكهربائية المنزلية لجعلها صالحة لمدة محددة من الزمن. وكان من المضحك أن تستمر آلات صنع القهوة القديمة في الحياة كل تلك السنوات، وعلى الرغم من أنها تعتبر فعالة جدًّا، إلا أنه لا علاج لها عندما تصاب بأي عطب. لقد ترأست ماكينة صنع القهوة تلك اجتماعات نادي الكتاب، وبعد ذلك اجتماعات فريق الصديقات الذي تطور إلى أن تحول إلى المجلس السياسي لـ (ح. ي. إ.)

لقد أخذتِها أنت، هذا ما قالته لها إيفيخنيا حين سألتها عما إذا كانت قد نسيتها في بيتها.

اقتربت بيبيانا من الرف، ومهما يكن ما تلمسه، فإنها تطفو في الزمان، وترحل إلى أمكنة من حياتها تضاء فجأة. تشم، تستشعر الجو، رؤوس أصابعها تسجل ما هو خشن، وما هو ناعم من الجلود أو السطوح. تسافر عبر ذاكرتها وتراقبها كما لو أنها وراء واحدة من تلك المرايا؛ حيث يمكن للمرء أن يَرى دون أن يُرى. تناولت آلة صنع القهوة بين يديها، إنها بدن معدني له لون الفضة، يُدس قرص البن من أمام،

ويُسكب الماء في الإناء الخلفي، وبكبسة زر، تنزل القهوة إلى الفنجان جاهزة ورغوية.

استخلصتْ أن أحدًا ما قد أخذها من السيارة، فكثيرًا ما كانت تنسى إقفال أبواب السيارة بالمفتاح، أحست بدغدغة.

كانت بجوار المنضدة في بيت إيفيخنيا، عبق القهوة يتصاعد من الفنجان. وإلى جانب الفنجان رأت الطبق وفيه قطع البسكويت الدنماركية بالزبد التي اعتادت مارتينا أن تأتي بها إلى الاجتماعات في علبة معدنية مدورة حمراء اللون، تُذكّرها بتلك العلبة التي كانت تستخدمها جدتها لتحفظ فيها أدوات الخياطة.

قالت بيبيانا إنه يروق لها أن تغسل البلد، أن تغسله وتكويه، ضحكن جميعهن، كن جالسات، حفاة الأقدام، يتأرجحن على الكراسي الهزازة، يدخِنّ ويتناولن رشفات من الروم أو النبيذ، بجوار حديقة السراخس المؤدية إلى مكتب إيفيخنيا؛ حيث النافورة المتوارية في عمق المكان، وشجرتا تين تمنحان ظلًا. كانوا يحسدون أصابع إيفي الخضراء، على الرغم من أنها تعارض ذلك على الدوام وتقول إن خضرة الحديقة ليست مدينة لأصابعها وإنما للوقت الذي تكرسه لها؛ فقد كانت إيفيخنيا تدير شؤون حياتها وأبنائها وزوجها بصورة جيدة، وكانت الأخريات يفتتنّ عند الذهاب إلى بيتها. إنه بيت كبير، لكنه مضياف، يعكس ترتيب ودفء شخصيتها. وفي البيت، كانت إيفيخنيا تعتبر المكتب والحديقة «حجرتها الخاصة»، وحين تكون هناك لا يقاطعها أحد، سواء زوجها أو أبنائها.

- لم أتصور قطّ أن أقول هذا، ولكنني بدأت أفكر في أنه يمكن لسنونوة واحدة أن تصنع صيفًا، ما رأيكم إذا ما انتهزنا فرصة أنني الآن معروفة جدًّا، وقمنا نحن السنونات الخمس الموجودات هنا بعمل شيء حقيقي من

أجل هذه البلاد؟ أن نغسلها بحق؟ اللامبالاة تقتلني، وكل ما يخطر لي من أمور يتطلب سلطة... ما رأيكم في أن نؤسس حزبًا يحطم كل النظم السائدة؟ سألتهم بيبيانا.

- أنت تستطيعين الفوز في انتخابات - ضحكت إيفا -، لا تشكي في ذلك. إنك الأولى في قائمة الفائزين، فلننظر في استطلاعات الرأي، الناس يحبونك، ولكن... تشكيل حزب؟... هذه كلمات كبيرة... لماذا لا تعرضين ترشيح نفسك على أحد أفرقاء المعارضة؟

- كيف؟ - انتفضت مارتينا - أتريدين إرسال نجمتنا إلى قطيع أوغاد المعارضة؟ لن يحدث ذلك إلا على جثتي.

- فلنر، ما هي فكرتك؟ - تدخلت إيفيخنيا -. أظن أنكِ قد فكرت في الأمر وقلبتِه جيدًا، فأنت لست ممن يتكلمون لمجرد الكلام.

صمتت كل من إيفا ومارتينا بعد أن كانتا قد بدأتا جدالًا بينهما.

- ما هي فكرتي؟ فلننظر في الأمر. هنالك نساء صرن رئيسات، هذا ليس جديدًا، ما لم يوجد بعد هو السلطة النسوية. ما هو الفرق؟ أنا أتخيل حزبًا يطرح أن يقدم للبلاد ما تقدمه أم لابنها، رعاية البلد مثلما ترعى امرأة بيتها، حزب «أمومي» ينشر لين وعذوبة اللمسات النسوية التي يستبعدوننا بسببها، باعتبارها مواهب ضرورية لتولي مسؤولية بلد أُسِيئت معاملته كبلدنا. فبدلًا من محاولة الظهور بأننا شديدات الرجولة مثل أي فحل وبأننا، بناء على ذلك، مؤهلات لأن نمارس الحكم، يجب علينا أن نؤكد على النسوية التي تحاول النساء المتطلعات إلى السلطة إخفاءها على الدوام، كما لو أنها خطيئة؛ أن نؤكد على الحساسية، والانفعالية. فإذا كان هنالك شيء تحتاج إليه هذه البلاد، فإنه الحاجة إلى من يهدهد لها، من يدللها، من يعاملها معاملة طيبة: بحاجة إلى أم حانية.

إنها الذروة، أليس كذلك؟ فحتى تعبير «الأم الحانية» صار مرذولًا! مع أنه تعبير بالغ العذوبة. كيف ستكون الحال إذن لو فكرنا بحزب يقنع النساء بأنهن أغلبية يشكلن الناخبين، وبأننا إذا ما تصرفنا وفكرنا كنساء فسوف ننقذ البلاد؟ كيف ستكون الحال إذا ما عمدنا بفنونا في الإغواء كنساء وأمهات، دون تزييف أنفسنا أو إنكار ما نحن عليه، وعرضنا على الرجال هذه الرعاية التي أخبرتكم بها؟

- سينتهي الأمر بالداعيات النسويات إلى القول لنا إننا نريد أن نرسخ ونؤيد كل ما يجري التفكير فيه عن النساء - قالت إيفا.

- الأمر يعتمد على تحديد أي نسويات هنّ، فالحركة النسوية شديدة التنوع، والمشكلة في نَظَرِي ليست في ما يفكرون به عن النساء، وإنما في تقبلنا نحن أنفسنا التفكير به عن أنفسنا بالذات. لقد تقبلنا إدانة أنفسنا على كوننا نساء، وسمحنا بأن يقنعونا بأن الضعف هو أفضل خصالنا. ما علينا عمله هو أن نُثبت أن هذه الطريقة في الوجود والتصرف والسلوك النسوي قادرة، لا على تغيير هذا البلد وحسب، وإنما العالم بأسره - قالت بيبيانا.

- وما الذي سندافع عنه؟ الغسيل؟ الكوي؟ رعاية الأطفال؟

- أكرر لك: المشكلة ليست في الغسيل والكيّ ورعاية الأطفال؛ المشكلة في ازدراء العقلية الكامنة وراء ذلك؛ العقلية التي تحصر هذا السلوك النسوي في ميدان ما هو خاص بالنساء حصرًا، دون أن يفهموا أن عمل ذلك يجب أن يكون مهمة الجيمع وبتعاون الجميع، وأن العناية بالحياة، بالبيت، بالعواطف والانفعالات، وبهذا الكوكب التابع الذي نقوم بتدميره، هو ما يجب علينا جميعنا القيام به: إنه العمل على تحويل مسألة الرعاية التي نحن متخصصات بها إلى مهمة اجتماعية وأن نتقدم باعتبارنا الخبيرات والأكثر تأهيلًا للقيام بذلك.

ـ أنا أؤيد، الفكرة تبدو لي لامعة ـ تدخلت مارتينا ـ. ولنسم الحزب (ح. ي. إ.) أي: حزب اليسار الإيروتيكي؛ فقد كانت هذه تسمية حزب لم يوجد قط كحزب، لكن من أسسنه كنّ نساء وقد ألهمننا. عدد من المسنات اللواتي كونَّه ما زلن على قيد الحياة، واحدة منهن صديقتي الشخصية، وقد أخبرتني بالقصة. لقد أطلقن عليه هذا الاسم نسبة إلى كتاب أشعار للشاعرة آنا ماريا روداس أصدرته بعنوان «قصائد اليسار الإيروتيكي». إنه كتاب بديع، القصيدة الأولى فيه تنتهي بهذه الجملة: «أمارس الحب، ثم أرويه بعد ذلك». إثارة الفضيحة أمر مهم جدًّا. أتتصورن الفضيحة التي سيثيرها خروجنا بحزب يسمى جزب اليسار الإيروتيكي؟

ـ لن يصوت أحد لنا ـ قالت ريبيكا، وكانت قد وصلت للتو، وألقت بنفسها متهاوية على كرسي، ورمت حذائها بعيدًا.

ـ وصولك متأخرة لا يسمح لك بإبداء الرأي ـ قالت مارتينا وهي تبتسم بخبث ـ. صديقتنا بيبيانا هنا تريد تأسيس حزب.

أطلعت بيبيانا ريبيكا على ما يدور وواصلت.

ـ نحن نعرف، منذ رونالد ريجان وحتى أوبرا وينفراي، أن التواجد في وسائل الاتصال، وكون المرء «شخصية مشهورة»، يجعل وصوله إلى الرئاسة أمرًا ممكنًا. وفي حالتي، الناس لا ينظرون إلى كصحفية، وإنما كشخصية مهتمة بأمر البلاد. ولو لم يكن الأمر كذلك لما ظهرتُ في استطلاعات الرأي. أظن أن فكرتكن ـ وأنتن مستشارات الشرف لي ـ بأن تقديمي ريبورتاجات حول حياة الناس اليومية، فضلًا عن تقارير التشهير السياسي، كانت فكرة صائبة جدًّا. وأفضل ما في الأمر أننا فتحنا العيون علينا. ومنذ الريبورتاج عن باتريثيا تعلمنا الكثير من خلال استماعنا إلى ما يقوله الرجال والنساء، أليس كذلك؟ لقد تحولنا إلى إختصاصيات اجتماعيات، وأنثروبولوجيات، واقتصاديات، نحاول أن نفهم لماذا تحدث

تلك الأمور. ما نعرفه لا يقل عما يعرفه السياسيون الذين يتقدمون إلى الانتخابات في هذه البلاد. لقد قرأنا أنه من المخيف...

ـ ولقد طيرنا طيارات ورق يوتوبية مثيرة للخوف أيضًا... ـ قالت إيفا.

ـ ليس يوتوبيا يا إيفا أن نفكر في أن لدينا نحن النساء رؤية مختلفة ـ ألحت بيبيانا ـ إذا ما فكرنا بتجربة كل واحدة منا في الحياة، سنتوصل إلى أنه لا وجود للمساواة. فلننظر إلى العمل مثلًا: المرأة حققت تقدمًا هائلًا في البلدان المتطورة، ولكن لا يأتي من يقول لي إنهن لا يتحملن هناك الشطر الأكبر من أعباء البيت والأبناء. لهذا يوجد ذلك السقف الزجاجي الذي لا يمكن إلا لقليلات أن يجتزنه. لماذا تظنون أن ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا آخذة بالتحول إلى بلدان بلا بشر؟ لولا الهجرة لما كان فيها سوى المسنين... النساء هناك لا يردن الإنجاب لأن عمل ذلك يعني التخلي عن عيش حيواتهن من أجل تكريسها لرعاية الأطفال. الأمومة في العالم بأسره معاقبة؛ المرأة تُعاقَب لأنها تحبل، ولأنها تلد، ولأنها تربي الأبناء وترعاهم. ومع أننا قد دخلنا عالم العمل، إلا أن عالم العمل لم يتكيف معنا. إنه مصمم لرجال لهم زوجات. لو أننا نحن النساء من نظمنا العالم، لما كان العمل أداة فصل للأسرة، بل وسيلة تنظيم **في إطار** الأسرة: لكانت هنالك رياض أطفال رائعة ومجانية في مراكز العمل نفسها؛ حيث يمكننا التواجد مع أطفالنا في ساعة تناول القهوة. يأتون إلينا بأطفالنا لإرضاعهم، ويعطوننا بونات أو قسائم إنتاجية عن كل طفل نأتي به إلى العالم. لا بد أنكن قد سمعتن بنظرية الحلقة الأضعف: ولأن فاغواس بلد فقير وصغير، يمكن له أن يتولى دور الريادة نحو نظام مختلف يطرحه حزبنا: نظام «السعادة». أن يكون معيار التطور هو مقدار سعادة الفرد وليس مقدار الناتج المحلي للفرد، وألا تكون النقود هي مقياس الازدهار وإنما مقدار الوقت يعيشه الناس في راحة وأمان وسعادة.

ـ أنت قرأتِ أمارتيا سن ـ قالت ريبيكا ـ يفتنني هذا الرجل، هذا الذي تقولينه هو ما تفعله هيئة الأمم المتحدة، إنه مؤشر نوعية الحياة.

ـ حسنًا، أنت اقتصادية ولديك معرفة بهذه الأمور، ولكن... ألا ترين أن فكرتي مشوقة؟

ـ أتقولين مشوقة؟ إنها استثنائية! ـ قالت ريبيكا ـ. أعتقد أنك قلتِ أمورًا بالغة الصواب. الإمكانيات الكامنة التي يمكن لنا نحن النساء تقديمها، وما زالت معطلة، هي إمكانيات هائلة. نحن الموجودات هنا، باستثناء مارتينا وإيفا، نعرف ما الذي تعنيه الرغبة في امتلاك حياة عمل بالإضافة إلى إنجاب الأبناء. لقد شعرت بالحسد أكثر من مرة تجاه من يستطعن البقاء في بيوتهن، أنا لا أستطيع بالطبع أن أتحمل هذا الروتين، ولكنني أعيش منهكة منذ ولدت ابنيَّ التوءم.

ـ مع أنك محظوظة ولديك القدرة على دفع أجور مربية لطفليكِ، الأغلبية الساحقة من النساء لا يستطعن ذلك، تحزنني رؤية تبديد النساء لجهودهن، يجب أن يكون بإمكانهن جميعًا الخروج من البيوت، والذهاب للعمل دون أن يشطرهما ذلك إلى شطرين، مثلما يقال.

ـ كلمات جميلة ـ قالت إيفا ـ، ولكن هذا كله لا يتحقق بين يوم وليلة. لا، يا فتيات، إننا خاسرات. السلطة الذكورية إلى الأبد. أنتن ترين كم من الزمن استمرت. والآن، مع كل هذه الزيادة في البطالة، من سيتقبل منافسة مزيد من العاملات؟

ـ الفكرة تروق لي ـ قالت ريبيكا ـ. أنت محقة يا إيفا بشأن البطالة، ولكن فاغواس لم تكد تبدأ بتطور قدرتها الإنتاجية بعد، إننا نعيش على القروض، لا بد من التفكير بخطة وطنية للتوظيف، والمنافسة ليست سيئة بأي حال. من الواضح أن هنالك عقبات، ولكن التخيل لا يكلفنا شيئًا،

يجب علينا أن نتجرأ على التخيل على الأقل. أنا أرى أن هذه هي إحدى المشاكل: انعدام المخيلة، لقد أضعنا كثيرًا من الوقت في الحديث عن مدى سوء الحال. ـ وأضافت ـ ولكن لا تروق لي مسألة اليسار الإيروتيكي تلك، فاليسار لم يعد ما كان عليه في زمن جدتي، ما رأيكن بأن يكون حزب الاختراع الوجودي؟ فهكذا سيكون أيضًا.

ضحكن.

ـ أنا لا أرى أن التسمية سيئة ـ قالت بيبيانا ـ. فقد تجاوزنا كافة الأحكام المسبقة دفعة واحدة: أعلنا أننا عاهرات، ومجنونات، ويساريات. عندما تنتهين من الحديث عن الاسم ـ وأنا أتفق مع مارتينا بأنه سيكون اسمًا فضائحيًّا، ولكنه سيكون في الوقت نفسه وسيلة لجعلنا معروفات خلال وقت قياسي ـ، عليكن الاهتمام بما سنطرحه. هذا ما يجب علينا العمل عليه: البرنامج، اقتراح ما سنفعله يجب أن يكون مختلفًا.

ـ إنهاء الجيش ـ قالت إيفيخنيا.

ـ لقد كنت أحلم على الدوام بعرض عسكري مع دبابات ومدافع وكل تلك الآلة الحربية مطلية بلون وردي فاتح، وردي بلون ملابس طفل حديث الولادة، أتتصورن ذلك؟ ـ قالت بيبيانا ضاحكة.

ـ هذا أمر سيحطم المناهج والنظرة أمام الناس حقًا!

ـ راية القدم الصغيرة التي اقترحتموها عبقرية ـ قالت مارتينا.

ـ وإذا ما استخدمنا الحروف الأولى بدل استخدام التسمية كاملة، فيمكن لنا أن نقول إن (ح.ي.إ.) PIE هي استعارة شعرية لوضع قدم أمام أخرى... من أجل التقدم قُدمًا ـ قالت ريبيكا.

ـ أيها السائر لا وجود لطريق، فالطريق يتشكل عند المشي... ـ صرخت مارتينا.

استحوذت عليهن متعة التخيل. رحن يتمشين عبر الصالة، شربن نبيذًا، طهون هليونًا على الطريقة البولونيزية، دخنَّ. وعند الفجر، اقترحت بيبيانا دولة تمسك النساء بالسلطة فيها، بلا وجود ولو لرجل واحد في مكاتب الوزارات المختلفة، والهيئات المستقلة، وأجهزة السلطة، لمدة ستة أشهر على الأقل.

- هذا تصرف جذري جدًّا - قالت ريبيكا - سيقضون علينا، ثم... ماذا سنفعل بهم؟

- أتتصورين كم سيبدو جيدًا للرجال أن يظلوا أرباب منزل لمدة ستة شهور؟ - قالت مارتينا ضاحكة -. سيكون تغييرًا جوهريًّا بالفعل.

- يمكن لهم أن يشيدوا مدارس أو دور حضانة في أحيائهم - اقترحت إيفيخنيا - القيام بعمل جماعي.

- هذا جنون - أصدرت إيفا حكمها -. لن نكون مجنونات، أرجوكم. ترك أكوام من الرجال عاطلين عن العمل سيشكل ضربة قاصمة للأسر، ومم سيعيشون؟

- سندفع لهم مقدمًا، ولكن عليهم أن يتقبلوا أن القيام بأي عمل سيكون مختلفًا، ودون أن يحاولوا هم توجيهنا - ضحكت بيبيانا - أن نتولى نحن عمل كل شيء سيكون أمرًا ثوريًّا حقًّا.

- المحزن أننا لن نستطيع ملء الشواغر كلها بنساء، فمهما آمنا بأنفسنا، سيكون علينا الاعتراف بأن قلة من النساء يتمتعن بالتعليم أو الخبرة أو الموهبة القيادية التي للرجال.

- ريبيكا - صرخت مارتينا التي ترفع موجة صوتها عندما تنفعل -، لا تقولي هذا الكلام.

ـ ولكن هذه هي الحقيقة.

ـ يمكننا إذن استيراد نساء خبيرات من أمكنة أخرى من العالم ـ قالت مارتينا ـ، وأن تكون لدينا وزيرات زائرات.

ـ مسألة الوزيرات الزائرات هذه تروق لي ـ قالت بيبيانا ـ ومن الذي يهتم بمسألة الحدود في أزمنة العولمة هذه؟ سندعوا نساء إيثاريات، كفوءات، ولم لا؟ وسنضع معهن امرأة محلية لتتعلم منهن في الوقت ذاته.

ـ أنا أريد تغييرًا في اللغة ـ قالت مارتينا ـ لأنني أكره بعض الكلمات.

ـ أما أنا ففكرة دور حضانة الأطفال تسبب لي الجنون ـ قالت إيفيخنيا ـ. فهي فكرة باهظة التكاليف، وأنا أحب أن يكون أبنائي قريبين وأن يقضوا النهار مع أناس مدربين حقًّا لرعايتهم، ولحثهم على التعلم. أنتم لا تعرفون ما عانيته مع ابنتي وابني، لا يمكن لفتاة أن تتوصل إلى العناية بهما وتنقضي حياتي كلها في أزمة.

ـ سيكون حلمًا إعادة تشكيل هذا العالم ـ قالت بيبيانا قبل أن تغفو على الصوفا.

بعد شهر من ذلك، وبلا أي حزب سوى جرأتهن، نشر الجماعة البيان الأول لحزب اليسار الإيروتيكي.

ضحكت بيبيانا بصمت في سكون العنبر. كم كانت الجرأة عظيمة! ولكن كم هو جميل أن نجرؤ. كل امرأة تستحق، ولو مرة واحدة في الحياة، أن تصاب بالجنون بهذه الطريقة، أن تستحوذ على فكرة وتخرج ممتطية تلك الفكرة ومتنكبة الرمح، وواثقة من أن بذل الجهد يستحق العناء، أيًّا تكن النتائج.

أعادت آلة صنع القهوة، وإلى جانبها على الرف، رأت بيبيانا كتابًا ضاربًا إلى الصفرة لفرجينيا وولف. «**غرفة خاصة**». تجسد لها وجه إيليانا، كما لو أن تلك الصديقة حاضرة إلى جانبها بعينيها السوداوين والهادئتين المصوبتين إليها. أحست بيبيانا بقيظ تلك الظهيرة البعيدة، رأت نفسها عن باب بيت إيليانا حين أحست هذه الأخيرة بضربة إلهام طالبة منها أن تنتظر للحظة، وكانت كلتاهما واقفتين تتبادلان عبارات الوداع. ركضت إيليانا إلى غرفتها ورجعت ومعها نسخة كتاب مهترئة، كعبها ضارب إلى الصفرة، وضعتها بين يديها. خذي هذا الكتاب، قالت لها، خذيه واقرئيه. ألقت به بيبيانا في محفظتها، وقبلت خدّ صديقتها. عند وصولها إلى البيت، وكان يوم سبت، وسيليستي قد ذهبت مع صديقاتها، استلقت على السرير وقرأت الكتاب. بكت في النهاية حيث تتخيل فرجينيا المصير الذي لقيته أخت شكسبير؛ تلك الشكسبير الأنثى التي مُنعت من دخول عالم المسرح لكونها امرأة، وحِيل بينها وبين الكشف عن موهبتها؛ إنها نهاية مأساوية، حزينة، أثارت حنقها. فكرتْ: يومذاك بدأ تعصبي الأنثوي. وكانت تلك هي المرة الأولى التي خطر لها أن الحركة النسوية تحتاج إلى دفعة أخرى، أن يضاف إليها فلفل أسود، وكريم مخفوق وفريز، لم تكن تدري بالضبط ما الذي يجب إضافته، ولكنه شيء مغوٍ، شديد الأنوثة. لا بد من تفكيك لعبة البزل وإعادة تركيبها مجددًا، بدءًا من تربية الأبناء، وهي المسألة الأكبر التي تواجه النساء عندما يحاولن التحرر: أن يكنّ أمهات ونساء ناجحات في آن واحد. تولي مسؤوليات البيت والعمل يشكل حمولة ثقيلة جدًّا، ومن يتوافر لهن الخيار، غالبًا ما يخترن حفظ شهاداتهن الجامعية ليتحولن إلى أمهات محترفات، مهووسات، متقنات. فكرتْ بأن ثمة حاجة إلى صخب مدوٍ في الطريق،

إلى شيء يضع حدًّا لتبديد الموهبة التي تمضي بالموازة مع قدر ولادتها امرأة.

(مادة تاريخية)

بيان حزب اليسار الإيروتيكي (PIE قَدَم)[٣]

١. نحن مجموعة نساء قلقات من حالة الخراب والفوضى في بلادنا. مذ تأسست هذه الأمة، تولى الرجال الحكم فيها مع مشاركة نسائية ضئيلة إلى أدنى الحدود، ولهذا نتجرأ على التأكيد أن إدارتهم هي التي شكلت إخفاقًا. لقد قدم لنا مواطنونا النجباء وَصفات من كل الأنواع: الحروب، الثورات، الانتخابات النظيفة، الانتخابات القذرة، الديمقراطية المباشرة، ديمقراطية التلاعب بالانتخابات، الشعبوية، شبه الفاشية، الدكتاتورية، الدكتاتورية المتساهلة. وقد عانينا من رجال يتكلمون بصورة جيدة ومن آخرين يتكلمون بصورة سيئة؛ من بدناء وناحلين، من مسنين وشبان، من رجال لطفاء ورجال قبيحين، رجال من طبقة بائسة ورجال من طبقة غنية، من تكوقراطيين ودكاترة ومحامين ورجال أعمال ومصرفيين ومثقفين. ولم يستطع أي منهم أن يجد طريقة لتسيير الأمور. وقد وصلنا نحن النساء إلى التعب من دفع ثمن الأطباق المكسرة من قبل حكومات غير كفوءة، فاسدة، متحكم

---

[٣] هذا البيان هو أول بيان للحزب و(PIE) هي الحروف الأولى من اسم حزب اليسار الديمقراطي، ولكنها تشكل في الوقت نفسه، بالإسبانية، كلمة pie أي:(قدم). وهذا أمر يتطلب لفت النظر إليه؛ لأن استخدام الحروف الثلاثة بمعنى قدم حينًا وبمعنى (ح.ي.إ.) في حين آخر، سيتكرر كثيرًا..

بها، رخيصة، غالية، مستغلة للوظائف، غير محترمة للدستور. من جميع الرجال الذين عرفناهم لا ينفع أي واحد منهم، ولهذا قررنا نحن أن الوقت قد حان لأن تقول النساء: **كفى**.

٢. الجميع يعرفون أننا نحن النساء خبيرات في فنون التنظيف وإدارة الشؤون المنزلية، وبراعتنا تقوم على التفاوض والتعايش ورعاية الأشخاص والأشياء. نعرف عن الحياة اليومية أكثر من الكثير من حكامنا الذين لا يتنازلون بالاقتراب من أي سوق؛ نعرف ما هو السيئ في الريف وما هو سيئ في المدينة، نعرف حميمية من يتظاهرون بأنهم قديسون، نعرف من أية طينة جُبل الذكور، فمنا خرجوا جميعهم، بمن في ذلك أشدهم سوءًا، أولئك الذين يحررهم الناس من الذنوب حين يسمونهم أبناء الأم العاطلة.

٣. بناء على كل ما سبق، قدرنا أنه من أجل إنقاذ هذه البلاد، يجب على النساء أن يتصرفن ويفرضن النظام في هذا البيت المتداعي والوسخ الذي هو وطننا، وهو وطننا بقدر ما هو وطن أي واحد من أولئك الذين لم يحسنوا ارتداء بناطيلهم، فسلموه، ولوثوا شرفه، وباعوه، ورهنوه، وتقاسموه مثلما تقاسم اللصوص ملابس يسوع المسيح (فلترقد روحه بسلام).

٤. لهذا نطلق بياننا هذا لنخبر النساء والرجال بأنه يمكنهم التخلي عن انتظار **الرجل** النزيه والرهان الآن علينا نحن نساء PIE (حزب اليسار الإيروتيكي). نحن من اليسار لأننا نعتقد بأن لكمة يسارية على الفك هي ما يجب توجيهه إلى الفقر والفساد وكوارث هذه البلاد. ونحن إيروتيكيات لأن إيروس تعني **حياة**، وهي أهم ما نملكه، ليس

لأننا نحن النساء كنا منذ الأزل المسؤولات عن منحها، وإنما كذلك لأننا المسؤولات عن الحفاظ عليها ورعايتها؛ نحن (قدم PIE) لأنه لا شيء نستند إليه سوى رغبتنا في التغيير والمضي إلى الأمام، وصنع طريق من خلال المسير، والتقدم قدمًا مع من يتبعوننا.

٥. نَعِدُ بأن ننظف هذه البلاد، نكنسها ونشطفها، وننفض الغبار عنها ونغسل وحلها إلى أن تلمع بل بهائها. نعد بأن نحولها إلى بلاد مشرقة، تعبق برائحة الملابس النظيفة المكوية.

٦. نعلن أن أيديوجيتنا هي «السعادة»: السعي لأن نكون جميعنا سعداء، وأن نعيش حياة محترمة، وبحرية غير مشروطة لتطوير كافة إمكانياتنا البشرية والخلاقة، دون أن تُقيّد الدولة حقنا في التفكير والكلام وانتقاد ما نشاء.

٧. ونعد بأننا، في وقت قريب، سوف ننشر برنامجنا ونشرح فيه ما نسعى إليه، وندعو جميع النساء إلى دعمنا والانضمام إلينا، وندعو الرجال إلى التفكير وتذكر من تولت تربيتهم، وأن يتأملوا فيما إذا لم يكن الأم مناسبة لهم أكثر من سلسلة آباء الوطن الذين لم ينجزوا قط ما وعدوا به على امتداد السنوات السابقة كلها. انضموا إلى (ح. ي. إ.) ولا تواصلوا التدخل في ما لا يعنيكم.

إيفيخنيا

كانت تعلق البيان الأول لحزب اليسار الإيروتيكي على جدار مكتبها.

عليها أن تراجع رسائل بريدها الإلكتروني في كمبيوترها، ولديها مئة طلب لإجراء مقابلات معها، متراكمة فوق المنضدة، لكنها استرخت على المقعد واستغرقت في تأمل الوثيقة الشهيرة، وثيقة القدمين الصغيرتين.

لم تتخيل يومًا كيف يمكن لقدم PIE أن تغير حياتها، وحبها لمارتين والعلاقة مع ابنيها. ليس المسألة في أنها غير محبوبة، وإنما في أنها شديدة المراقبة، تدير حياتها وحياة أسرتها، بما في ذلك حياة زوجها، كأنها ساعة سويسرية. ولفرط تمسكها بالروتين وإحساسها المثالي بالواجب، تبقيهم تحت نوع من النظام الإسبارطي. فالتحكم بالأمور اليومية كان أسلوبها في إضفاء هدف ومعنى على وجودها، وكانت تتمكن، رغم إرادتها، من تفادي ذلك الصوت الخافت في رأسها الذي يحاجج بأن الدقة والإتقان والخطط التفصيلية، ليست سوى طريقة لمواساة نفسها من الفراغ الذي تشعر به في أعماقها. ولكن هذا كله صار قصة قديمة الآن؛ فقد أصبح حزب اليسار الإيروتيكي هو المرفأ الذي يرسو فيه بحثها الوجودي. بتجاوز تلك الحالة وبالتواصل مع الأخريات، استرخت، إنها تبدي الجانب اللعوب من شخصيتها، أُجبرت روحها كأم إسبارطية على الظهور، اكتشفت كم تُبقي معشرها متوترين، وكم يراكم زوجها من الاستياء. بدأت بإجراء تعديل تقبله هو بحماسة انفعالية، وفوجئت بإدراك أنه من الممكن العودة إلى الوقوع بحب الشخص نفسه، وقد صارت يستدعيها الآن، عند العصر، فتهرب لممارسة الحب معه.

تحمل مارتين، بوجه بريء، صخب الأصدقاء والمعارف حين نُشر بيان (ح.ي.إ.) لأنه يجهل أن زوجته هي واحدة من الموقعين عليه. ولكن سكرتيرته وضعت البيان فوق مكتبه صباحًا.

- زوجتك شجاعة يا دون مارتين - قالت له وهي تشير إلى العنوان بإصبعها السبابة، وتبتسم ابتسامة خبيثة.

اتصل بإيفيخنيا، قال لها إنه كان بإمكانها أن تنبهه إلى ذلك، أما هي التي كانت تسيطر عليها روح الهواية والجرأة كما الأخريات، فقالت إنها فضّلت أن تفاجئه، لقد تحدثنا كثيرًا حول الموضوع، وقد حان وقته، ألا ترى ذلك؟

- إنه بيان لطيف - قال لها - لا أظن أن هنالك من سيأخذه على محمل الجد، ولكنه لطيف على أي حال.

- من يضحك أخيرًا يضحك كثيرًا - قالت. وقد أحزنتها الطريقة المستهترة التي حطّ بها من أهمية البيان بالقول إنه «لطيف»، ولكنها اختارت عدم المواجهة معه. فكرت في أنه سيكون من الأفضل إظهار إشراقة وجه لمثل هذا النوع من التعليقات، وهو ما سيكون منذ الآن - قالت لنفسها - خبزنا اليومي.

تلا البيان عقد مؤتمر صحفي، عقدوه في فندق، وجميعهن كن يرتدين ملابس مثيرة جنسيًا، بأسلوب راكبات الدرجات النارية أو مغنيات الروك، من أجل جذب اهتمام الشباب. خشيت إيفيخنيا من الشعور بعدم الراحة وهي تلبس بطريقة كانت مألوفة لدى الأخريات أكثر منها. ولكنها حين رأت نفسها في المرآة، فكرت في أنها كانت بلهاء من قبل لأنها لم تستغل فضائل الوراثة التي سكبت ساقيها الطويلتين، وخصرها النحيل، ونهديها العاليين والمكورين، وقد ساعدتها الملابس على تجسيد الدور الحسي، المتحدي والذكي الذي قررت أن تعكسه.

جرى نقل المؤتمر الصحفي، والبيان وكل ما قلنه، في الصحف والمدونات والفيسبوك وتويتر وكافة شبكات التواصل الاجتماعي، واحتفت دنيا السياسية والوسائط المحبة للفضائح بالخبر مستخدمة السخرية من أجل إفشال صريح لمساعيهن في تأسيس حزب لليسار الإيروتيكي. فراحت تلك الأوساط تقول إنه في الوقت الذي تزداد فيه الحاجة إلى أناس جديين في البلاد، يظهرن هنّ - نساء مثل بيبيانا، جديرات بقضايا أفضل - ليسخرن ليس من الرجال فقط وإنما كذلك من النساء أنفسهن اللاتي لا يمكن أن ينضممن إلى حزب مهووس وسطحي مثل الذي يُعلنَّ عنه بعرض للأثداء والسيقان.

ظهرت إيفيخنيا والأخريات في مقابلات تلفزيونية وإذاعية وصحفية، وخلال وقت قصير لم يعد هناك في البلاد من لا يعرف ما الذي يعنيه (ح.ي.إ.)، تزعزع سبات فاغواس السياسي و**الوضع السائد**. وطرحت للنقاش مسألة إذا ما كانت ممارسة النساء للسلطة ستكون مختلفة، وإذا ما كانت الإيروتيكية مختلفة عن البورغرافيا، أو إذا ما كان لا يزال هنالك مسوغ لوجود اليسار. وأفضل الأشياء حدث عندما تكشف المعلقون والصحفيون عن أنهم أشبه بسكان الكهوف البدائيين، فقد خانوا مساعيهم للظهور بمظهر الرجال/ البشر المعاصرين، فأمسكت النساء بزمام الجدال وعرضن بحماسة وبساطة مُفحِمة استياءهن وعدم إيمانهن بتقسيم الأجناس الذي يقدم للنساء وصفة العبودية والاستغلال وما لا حصر له من الإجحاف؛ مهما بدا ذلك للذكور عاديًّا وطبيعيًّا. وكانت تحدث أثناء الجدال مشادات كلامية حقيقية؛ ذلك أن نساء بمئزر المطبخ، وعارضات أزياء، وأمهات، ومتدينات، ومثقفات، ومهنيات، وعاهرات كن يتصلن

بالبرامج الحوارية للدفاع عن حقوق المرأة، والشكوى من عزلات الأمومة أو التحري حول انفجار البركان، ومسألة قصور هرمون التستوستيرون.

شحذت بيبيانا والأخريات خطابهن وإجاباتهم: تحدثن عن الديمقراطية، والدستور، والمناهج التعليمية، ومراكز العمل. أدخلن في مرافعاتهن نتفًا من الفلسفة الشعبية، واستخدمن ترسانة ذاكرتهن لاستحضار استشهادات تمتد من نظريات ديباك شوبرا وفريتجوف كابرا وماركس حتى طروحات النسوية لكاميل باليا، وسوزان سونتاج، وسيليا أموروس، وصوفيا مونتينجرو.

كان مارتين يرى خروج إيفيخنيا إلى المقابلات مرتدية بناطيل سوداء، وبلوزات غجرية، وأحزمة عريضة وجزمات، ومع أنه كان يخشى الثمن الذي سيدفعه كليهما بسبب مغامرة سياسية يرى أن مصيرها الفشل، إلا أنه كان ممتنًا لعودة خفة الروح إلى بيته؛ فهي لم تعد تهتم بوجود الأحذية في غير مكانها، وبالتقيد الصارم بالمواعيد بما فيها مواعيد تناول الطعام، والراحة والنوم، والتخطيط الشهري لنشاطات نهاية الأسبوع وتناول العشاء مع الأصدقاء.

وعلى الرغم من قصور التستوستيرون لديه، إلا أن مارتين عاد إلى الشعور بالجاذبية التي أغرمته بها. كان يتأمل إيفيخنيا بحنين ويسعى جاهدًا لممارسة الحب معها بتأجج عاطفة قديمة لا مكان فيها للفتور.

ومثلما تنبأت بيبيانا، فإن تسمية الحزب الغربية لم تعد لها أية أهمية بعد أن صغن أفكارهن وجسدن أحلامهن. ما برز ككلمة سر هو الرمز الذي تشكله الحروف الأولى من اسم الحزب: PIE/قدم. لم تبق امرأة إلا وتحرت عما يعنيه، أو انضمت إلى الموجة العالية التي وضعت

المناضلات النسويات فوق ذروة التسونامي السياسي الذي فاق بحيويته وتجديده طروحات الأحزاب الذكورية التقليدية المعروفة والفاقدة للمصداقية.

تولت إيفيَخنيا مسؤوليات عملية تنظيم نتائج الفضيحة، فمن خلال استمارات عضوية، وعبر موقع إلكتروني شجعت اللحمة الوطنية للعضوات والمتعاونات.

وباتباع نموذج اجتماع الفيمينستيات في سنوات السبعينيات في الولايات المتحدة، اجتمعت النساء لمقارنة تجاربهن وهمومهن، وحتى للبكاء معًا. جرى تنظيم جماعات للذهاب إلى الأحياء والقيام بمعالجة الأقدام. وطلاء أظفار النساء بالأحمر، والتحدث إليهن عن الحزب الذي يناضل كيلا يبقين تابعات للأزواج ويصرن سيدات قدرهن وقراراتهن.

ومن برنامجها التلفزيوني، واصلت بيبيانا تشهيرها وكشفها، فأضافت مقطعًا نسويًا تتحدث فيه نساء من كافة المستويات الاجتماعية، معبرات عن مشاعر عجزهن ورغبتهن في أن لا تنهال عليهن الأعمال المنزلية كطواحين عليهم جرها مثل البغال.

في تلك الأيام، قدمت إليهن كارلا برافيساني، وهي صاحبة وكالة إعلان أثار إبداعها الثوري الكثير من الأحاديث، عرضًا لا يقتصر على أن تدير حملتهن الانتخابية وحسب؛ بل أن تحصل لهن على رعاية عدد من زبائنها المتحمسين لـ (ح. ي. إ.). وكارلا هي أرجنتينية متقنة التكوين والتقاطيع كتمثال، لها ساقان مَسكوبتان، ساقا رياضية طويلتان، وهي تنتمي - من حيث شكل أنفها وتسريحة شعرها - إلى شبيهات فيرجينيا وولف في العالم. والشبه في حالتها يتمثل في النزق والجاذبية الجنسية وعدة قرون من الثقة بالنفس. وقفت في صالون بيت إيفي، شغّلت كمبيوترها وعرضت على الجدار مقطع بوربوينت جعلتهن يضحكن

بأفواه مفتوحة حيال براعتها، وطلبت منهم أخيرًا ألا يشكرنها، وأنها هي من عليها أن تشكرهن لأنهن سيُخرجنها من الترويج التجاري وعلب التونا.

بدأت لصاقات القدم تظهر على علب أقراص لوجع الرأس، وعلى أكياس فوط صحية، وعلى علب حليب الأطفال المجفف، وعلى صناديق المنظفات.

وبنشاط نساء كثيرات، مثل كارلا، انضممن إلى الجهد والمرح الجماعي، استطاع (ح. ي. إ.) الاصطفاف وسط الديناميكية الانتخابية متحديًّا التنبؤات وضحك الخصوم السياسيين الذكور الذين يطلقون عليهنّ تسمية «الإيروتيكيات»، كما لو أن الإيروتيكية مدعاة للعار والخجل.

تذكرت إيفيخنيا البلوزة سارت بها يومًا بعد يوم، على الرغم من أن مديرها هدد بطردها (وهو ما فعله في النهاية)، متهمًا إياها بتحريض جميع النساء الموظفات. كانت بلوزة بيضاء عليها سطر من قصيدة للشاعرة النيكاراغوية جيوكوندا بيللي، يقول ببساطة: **أنا أبارك جنسي**.

نساء كثيرات باركن جنسهن في تلك الأيام، وظهر الجنس النسوي مرسومًا على الجدران، مثل جميع الأزهار ذات الإيحاءات الجنسية: الأوركيدا، والأنثوريوم. تناول حزب اليسار الإيروتيكي مخيلة الناس وخطابات الأحزاب السياسية التقليدية وراح يحقرها إلى حدّ نسي معه أهدافه ومقترحاته الخاصة.

عادت إيفيخنيا إلى الأوراق التي كانت على مكتبها. أطلقت زفرة. فمنذ محاولة اغتيال بيبيانا وهي تشعر بأنها أشبه بشجرة منخورة على وشك السقوط منتوفة وسط الغابة، شجرة غير واثقة من جذورها. لم يكن قد خامرها حتى ذلك الحين أي شك في أن مشروع حزب اليسار

الإيروتيكي، وشعب فاغواس، برجاله ونسائه، يستحق الجهد الهائل المبذول لكسب الانتخابات وتولي الحكم، ولكنها الآن تمضي في الشوارع، تنظر إلى الناس وتتساءل كم من الأشخاص سيشكرونها؛ ربما كانت **السعادة** وهمًا وأنهن سينتهين، كما في السابق، محروقات في واحدةٍ أخرى من محارق اليوتوبيات الكثيرة.

كانت تتألم لما أصاب بيبيانا. ففي المستشفى، أوضح لها الأطباء أن الكوما هي حالة غامضة، فبيبيانا سليمة وقوية، وبمساعدة العلم وقدرة الدماغ الاستثنائية على التجدد، سيكون ممكنًا أن تستيقظ من غيبوبتها. إنها تذهب لزيارتها يوميًّا. ودون أن تدري إن كانت تسمعها أم لا، تقدّم لها تقارير عن كيفية سير الأمور، وتداعب يدها، تتأمل وجهها الشاحب على أمل إشارة عودة إلى الحياة. ولدى الخروج، تصطدم بأكوام الزهور والشموع التي تغطي كوادر كاملة؛ والناس الذين يحتشدون في جماعات لتقصي الأخبار. لم تكن تدري إن كان الحب هو ما يدفعهم أم الانتهازية أم الفضول.

في صباح كل يوم، تصدر وزارة إعلامها تقريرًا، وتُجهد ذهنها كل صباح كيلا يكون التقرير مثل اليوم السابق. أرادت إلغاء تلك التقارير، ولكن ذكرى بيبيانا كانت تدفعها للإصرار على إطلاع الأهالي على كل شيء، فمنذ البدء، أقرت الرئيسة سياسة الأبواب المفتوحة أمام وسائل الاتصال: «منذ طفولتنا نتعلم أن من يخفي أمرًا فلأنه يعرف أنه فعل شيئًا خبيثًا؛ وفي هذه الحكومة يمكن لوسائل الإعلام أن تغطي حتى اجتماعات الحكومة المصغرة». تلك الممارسة، وسهولة الاتصالات التي يوجهها أكبر عدد من المحطات الموجهة إلكترونيًّا والمفتوحة في كافة أنحاء البلاد، سهلت مشاركة المواطنين. فهم يرون الاجتماعات ويكتبون على الفور آراءهم، ينفون تأكيدات أو يقترحون أفكارًا وحلولًا. وكانت

إيفيخنيا، مع فريق واسع من الفتيات، تتولى مسؤولية جعل الجميع يعرفون أن أصواتهم تُسمع.

عادت إلى بريدها الإلكتروني، وبدأت تستعرض سيل الرسائل.

(مادة تاريخية)

اقتراح أول لحملة إعلانية

ح.ي.إ. (حزب اليسار الإيروتيكي)

الاستراتيجية العامة: ما ترمي إليه حملة (ح.ي.إ.) هو أن يستخدم لمصلحته تلك الوصمة التي وضعت النساء على هامش الحياة السياسية، بهدف إحداث تغيير نموذجي يضع حدًّا لأطر الذكورة المستهلكة السائدة.

الحملة: إشهار الحزب.

الهدف السياسي: تجنيد مناصرين.

الهدف التواصلي: التعريف بالحزب.

المستهدف: نساء ربات بيوت.

الاستراتيجية: حملة تسويق مباشر لمنتجات مختلفة ذات استخدام نسائي حصرًا.

منشورات دعائية

١. ضمن تعليمات استخدام مُسكن دوريفال

تخلصي نهائيًّا من أوجاع الرأس

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

٢. على حفاضات الأطفال

البلاد ملطخة ببرازها أكثر من ابنكِ.

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

٣. على جهاز اختبار الحمل

مهما تكن نتيجة الاختبار، إننا بحاجة إلى التغيير من أجل الآتين.

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

٤. على عبوة برش الصابون

إذا لم نقم نحن بتنظيف الفساد، فمن سيفعل ذلك؟

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

٥. على علبة الفوط النسائية. (هنا يوجد خياران)

أ. الرجال ينزفون في الحروب. نحن ننزف كل شهر من أجل الحياة.

ب. الهرمونات إلى الأمام.

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

لافتات

١. عبارة خطية وراء باب تواليت النساء

الشيء الوحيد الذي يُحسن الرجال صنعه وقوفًا هو التبول.

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

٢. عبارة خطية على مرايا حجرة قياس الملابس في متاجر الألبسة النسائية

أجل، أفكارِكِ تبدو ثمينة.

قومي بالخطوة الأولى. انضمي إلى حزب اليسار الإيروتيكي.

أنشطة

١. تنظيم عروض توبروور زائفة من أجل تقديم معلومات عن الحزب توضع داخل علب توبر البلاستيكية.

٢. تنظيم حفلات شاي و«بيبي شاور» كذريعة من أجل صياغة برامج الحكومة.

فعاليات سياسية

الهدف السياسي: التوصل إلى تغيير في النمط.

الهدف التواصلي: إظهار التغيير.

المستهدف: رجال/ نساء

الاستراتيجية: فعاليات سياسية لإيقاظ اهتمام الصحافة والتحول إلى خبر.

١. التامبوناتو

تحويل التامبون (سدادة الرحم) إلى رمز، إلى سلاح دفاعي يمكن عن طريقه إحداث نوع من «الانتفاضة» ضد تعسف السياسيين.

٢. بطون الوطن

تكوين حزام من النساء الحوامل حول المؤسسات العامة المستولى عليها، مثل المجلس الأعلى للانتخابات، وقصر العدل، وغيرها، ودعوة الصحافة العالمية.

٣. حملة طلاء الأقدام

جولات مسير في الأحياء للتعريف بالحزب. الوصول إلى البيوت وطلاء أظفار أقدام النساء.

٤. فعالية لنساء يستلقين في الساحات بسيقان مفتوحة أو جاثيات على أربع

ويخطر لي أن تلقي بيبيانا سانسون في الساحات العامة خطابًا يمكن أن يكون من هذا القبيل: «نحن النساء نريد تغيير الوضعية، لم نأت إلى الدنيا من أجل إنجاب أبناء وممارسة الجنس وتنظيف البلاط. أيتها النساء، فلننهض منتصبات، لدينا طريق طويل لا بد من اجتيازه، ونحن بحاجة لأن نبدأ بتنظيف التاريخ الذي لوثه زعماؤنا مرة بعد أخرى...»

حملة «قذرة»

الهدف السياسي: الحصول على الصوت الذكوري.

الهدف التواصلي: إقناع الرجال.

المستهدف: رجال.

الاستراتيجية: اختراق المجالات الذكورية الأمريكية اللاتينية بالطريقة الشيئية التي حُولت بها المرأة إلى شيء في الأعمال الدعائية.

١. استخدام جسد كاستراتيجية للإقناع. ٢. استخدام الحب، والعاطفة والرغبة للإقناع.

لماذا تعتبر الحملة «القذرة» أمرًا ضروريًّا؟

إنهم لا يعطوننا جهاز تحكم عن بعد، فكيف سيسمحون لنا أن نتحكم بالبلاد.

علينا أن نكون استراتيجيات أكثر منهم. لقد كانت مشكلتنا على الدوام في فرط الذكاء الانفعالي. ولهذا فإن الطريقة الوحيدة لنجد لنا مكانًا في الميدان السياسي هي ـ كما في الجودو ـ استخدام قوتهم بالذات لإسقاطهم.

أن نجعل آليات السيطرة تنقلب عليهم.

عقلانية مبدعة

أ. خلال المباراة، الرجل لا يفكر. في الفراش، الرجل لا يفكر. عند قيادة السيارة، الرجل لا يفكر. من الثابت علميًّا أن الرجل لا يستطيع التفكير بأكثر من شيء واحد في الآن نفسه. لا بد إذًا من استغلال فراغات «التركيز لديهم» من أجل «إقناعهم» بالتغيير الذي يمكن للمرأة أن تحققه في الوقت ذاته.

ب. لقد استخدمتْ الدعايةُ المرأة طوال عقود من أجل الإقناع وبيع منتجات. وربما سيكون ذلك نافعًا لـ (ح. ي. إ.) من أجل إيصال رسائله. لقد كان الرجال تاريخيًّا، يركزون اهتمامهم على نهدي المرأة ومؤخرتها، وليس على أفكارها. فالرجال يخافون النساء الذكيات، ويرغبون في أن يشعروا بأنهم يتمتعون بالحماية والرعاية، وأنهم غير مهددين أو خاضعين لاستجواب.

نشاطات/ فعاليات

* انتزاع بطاريات كافة أجهزة التحكم عن بعد لإجبار الرجال على مشاهدة قناة واحدة فقط، وكي يروا مرشحتنا وهي تلقي خطابها الأول عارية الصدر.

* خلال برامج كرة القدم، تقوم امرأة ذات صوت بالغ الحسية بوصف المباراة كما لو أنها في حالة استثارة شديدة. وتصرخ الإعلان عن «غووووول!» كمن بلغت ذرة النشوة.

* حرب عصابات فدائية: تقوم فصيلة نساء باستخدام تقنية ستنسيل لطبع أختام لها شكل قبلة على الملصقات الدعائية في الشوارع العامة،

وبالتحديد على وجوه المرشحين الآخرين للرئاسة، وإذا كانت الصورة للمرشح واقفًا، فتطبع القبلة فوق موقع عضوه.

* وضع نساء جميلات على الطرق العامة وقد ثقبت عجلة سياراتهن ويطلبن المساعدة.

الهدف: جعل الرجل يشعر أنه مفيد. ثم منحه بعد ذلك قبلة ودعوته إلى مقر الحزب.

بعض الأفكار من أجل حكومة محتملة يشكلها حزب اليسار الإيروتيكي (ح.ي.إ).

١. إلغاء الجيش. استبداله بـ «جيش الحياة».

تشكيل جيش من النساء بزي عسكري مموه باللون الأحمر (كي يكنَّ مرئيات جيدًا) ويتولين عدم وقوع الفتيان (ما قبل سن البلوغ) في شرك المخدرات أو عصابات الفتية، وتثقيفهم جنسيًا.

٢. تماثيل

معظم التماثيل لرجال (فاتحون، محررون، أبطال حروب)، ولكن لا تكاد يوجد تماثيل تمجد الحياة. يجب إقامة تماثيل لعمليات الولادة، والإرضاع، ولأطفال يخطون خطواتهم الأولى، ولنساء فلاحات يحملن أطفالًا.

بكل احترام

كارلا رافيساني

المنشفة

وجدتها بيبيانا على الرف، مطوية ونظيفة، إنها المنشفةُ التي أعطتها لباتريثيا عندما أنقذتها في تلك الليلة، كي تمسح ماء المطر عن جسمها. لقد عرفتها من لونها الفيروزي، ومن رسم الأسماك التي عليها؛ إنها منشفة رخيصة، مشتراة من بائع متجول. مرّت عليها بيدها وهي تبتسم لنفسها. يا للهدايا التي تقدمها الحياة لإحدانا، فكرتْ قبل أن تستسلم للصور المتسارعة التي احتلت ذهنها.

ربما في تلك الليلة بالذات، بينما هي تراها نائمة على الصوفا في مكتبها، قررت أن تتولى مسؤوليتها، وعدم إرسالها إلى دار الإليانس. لا تدري ما الذي رأته فيها من نفسها، ومن كل من عرفت من النساء. أحست بالخجل من جهلها، من عدم مبالاتها كامرأة سعيدة ترى قصصًا مثل قصتها في الصحف، في التلفزيون، في المدونات، وفي أي مكان، وتكتفي في تلك اللحظة بشفقة من لم يتخيل قطّ أن يعيش وضعًا مشابهًا.

استيقظت باتريثيا في اليوم التالي وفي اليوم الذي تلاه ثم الذي بعده، في بيت بيبيانا، صامتة، أشبه بحيوان زاحف في تكتمها. تتناول الفطور وتقضي النهار بعد ذلك نائمة أو في مشاهدة التلفزيون. لا تتفوه بكلمة واحدة حول ما تريد عمله، ودون أي كلمة أخرى حول افتراقها عن زميلتيها.

أوضحت بيبيانا لابنتها سيليستي أن الفتاة بحاجة إلى مأوى لتتجنب زوج أم يريد إلحاق الأذى بها. فسيليستي، وهي في الثانية عشرة من عمرها، كانت سريعة البديهة، قوية الحدس ويقظة جدًا، ولكنها أحست

بأن هنالك شيئًا أشد تعقيدًا، ولم تُظهر ذلك في سلوكها. تعاملت مع باتريثيا بغريزة أمومة مبكرة. أهدت إليها كلبًا من فرو، وصارت تسألها فور عودتها من المدرسة إذا ما كانت على ما يرام، وهل هي جائعة.

أما بيبيانا فاستحوذت عليها فكرة مساعدة باتريثيا وإنقاذها. فهي تريد أن تقدم لها الطعام، أن تشتري لها ملابس، أن تأخذها إلى الطبيب، أن تحتضنها. كانت تجد صعوبة في أن الفتاة لم تكد تتجاوز السادسة عشرة من العمر. فهي تتذكر نفسها حين كانت في هذه السن، متمردة بلا قضية في المدرسة، وقيامها بشيطنات، وأوائل المغرمين بها، والقبلة الأولى، وأول جرعة روم، والهروب من النافذة إلى حيث صديقتها الجارة، وتناولها البيرة كما لو أنه اقتراف خطيئة قاتلة، والبدء في السكستينغ في الموبايل، في ترمنال غرفتها. لقد كانت أمها توليفة: صارمة وليبرالية. وضعت لها حدودًا ولكنها منحتها مسؤوليات على نفسها.

ـ وفي نهاية المطاف، ما سيحدث لك هو شأنك الخاص؛ لأنك أنت من ستدفعين ثمن الأطباق المكسرة، هذا ما يجب عليك عدم نسيانه، أما أنا فإنني امرأة كاملة مكملة. بالنسبة لي أنا، أنا، أنا ـ كررتها وهي تشير إلى صدرها ـ، يمكن أن يؤلمني ما تفعلينه، ولكن ليست حياتي هي التي سيتقرر مصيرها، وإنما حياتك أنتِ. أنا مسؤولة عن أن أقدم لك موادًا جيدة لبناء عمارتك، أما مهندسة هذا البناء فإنها أنت نفسك.

لقد عرفت بيبيانا الثمن الذي دفعته أمها بسبب مغامرتها مع أبيها وكانت هي نفسها نتيجة لتلك المغامرة. وعلى الرغم من أنها لم تُشعرها قط بأن ما حققته لم يكن يستحق العناء، إلا أنها كانت تلحظ المصاعب التي تواجهها كونسويلو كأم عزباء. فكثيرًا ما كانت تسمعها تقول إن مسألة الأبناء هذه لم تُوجد ليتحملها شخص واحد فقط؛ لأن عملها في الناشيونال جيوغرافيك يعني السفر بكثرة مع فرق عمل إلى أمكنة نائية.

فكانت تبحث عمن تتركها عنده مستعينة بشبكة صديقاتها، ومع ذلك لم تكن تنعدم الحالات الطارئة وغير المتوقعة، لكن بيبيانا لا تحتفظ من سنوات حياتها تلك سوى بالذكريات المعتادة: معاناة المراهقة وعدم التكييف، شعورها أحيانًا بأنها أشبه بحزمة تعرقل أمها، فتتركها هذه كأمانة هنا أو هناك. لا شيء يشبه تجربة باتريثيا. كيف يمكن للمرء الشفاء من شيء كهذا؟ من يقنع الفتاة بأن الحياة تستحق أن تُعاش، وأن لها هدف؟ حين مات سيباستيان، فقدت هي القدرة على إيجاد معنى للزمن الذي يملأ الحيز ما بين الولادة والموت. ما الحاجة إلى كل هذه الأيام الكثيرة، كانت تتساءل، طالما ليس هنالك مفر في النهاية من التحول إلى هباء، إلى لا شيء، إلى اسم تحت التراب. الغريب أن هذا التفكير بالذات هو الذي أخرجها من الحداد، الفكرة البسيطة المحققة في أنها على قيد الحياة، وأن هدف الحياة الوحيد هو الحياة نفسها.

من أجل فهم ما الذي كانت تشعر به باتريثيا وإلقاء خشبة إلى بحر الغريقة، بدأت تقرأ عن الاتجار بالبشر وفظاعات حديثة أخرى كانت النساء، بصورة خاصة، شديدات الحساسية حيالها. لقد كانت تلك القصص أشبه بلدغة عقرب في جسمها. مؤلمة وسامة. وخلال أيام قليلة، امتلأت بنسوية سريعة غير قادرة على فهم تسامح العالم، والنساء أنفسهن، حيال ما تعيشه مثيلاتهن. قرأت وثائق نسوية وأزعجتها النبرة التعليمية فيها، ولغة بعضهم العصية على الفهم. يا للعنة يا بنات، فكرت، لا تتظاهرن بالذكاء الآن! فمن أجل أن يُظهرن للرجال أنهن حكيمات، تفقد أديبات كثيرات التواصل مع مستمعينهن الطبيعيين. فاجأتها الحجم، والوزن الذي يحتله الإجهاض كمطلب مركزي، في عالم لا تُحترم فيه أرواح كثيرة. هنالك عدم احترام طبعًا في المطالبة بسلطة فوقية على قرارات كائن مستقل له الحق المطلق في التصرف بجسده، ولكن التعامل مع الأحياء المولودين من النساء يبدو لها أشد إلحاحًا. وبينما هي تفكر في

مسألة التبني، خطرت لها فكرة تبني باتريثيا، وحمايتها قانونيًّا. وبسبب حالة الحماسة والتلهف للعدالة التي كانت عليها، لم تتردد في طرح الأمر.

وصلت في منتصف النهار إلى بيتها بعد الانتهاء من البرنامج التلفزيوني، وذهبت فورًا إلى الصالة بحثًا عن باتريثيا، وجدتها تتصفح معجمًا.

- باتريثيا، أنت بحاجة إليَ من يحميك. وإذا تبنيتك لن يستطيعوا تهديدك. يمكنك البقاء هنا.

لم تكن الفتاة تنتظر ذلك. نظرت إليها حائرة، غير مصدقة.

- ولكن ما هي علاقتي بحياة حضرتك؟ - سألتها وهي لا تزال مذهولة

- لا يا بيبيانا. أشكرك على عرضك، ولكنه غير ممكن.

كان ما قالته لها باتريثيا قليل، لكن حركتها، وطريقتها في الرد بدت شديدة البلاغة، جعلت بيبيانا تلحظ أنها قد تجاوزت حدًّا لا يمكن تجاوزه، وأنه يمكن لاندفاعها حسن النية أن يقوض أي أمل في الوصول إلى علاقة تتطلع إليها مع الفتاة. فتراجعت بأقصى سرعة.

- أتفهمك يا باتريثيا، يمكنك البقاء هنا طوال ما تشائين من وقت.

- شكرًا.

دخلت بيبيانا إلى حجرتها، كان خداها يتأججان، مهمة قديمة لها أن تكون مندفعة حادة الطبع، وقد كان ذلك مفيدًا لها في بعض المناسبات، لكنه كان كارثيًّا مع الانفعالات. ومع ذلك، كانت تكرر التصرف نفسه مرة بعد أخرى: تريد أن تكون متعاطفة جدًّا، تتكلم أكثر مما يجب، تقترح حلولًا كما لو أن العالم يطلب منها على الدوام أن تُصلح ما قد تهشم. وفي الطريق، تستثير أحيانًا حفيظة من تريد مساعدتهم، من تفكر بهم، ولا تتيح لهم الفرصة ليبحثوا عن حلولهم الخاصة. لمست وجهها. ذهبت إلى المغسلة وألقت عليه بعض الماء. أسمت نفسها بلهاء قبالة المرآة. ولكنها

ما إن دخلت إلى حجرتها، حتى فعلت ذلك مجددًا. اتصلت بمارتينا في نيوزيلندا.

- آلمني ردها عليَّ بتلك الطريقة، ولكنها محقة في الواقع. فمن المبكر أن أطرح عليها الأمر، يا للسذاجة. كل هذا يحدث لي لأنني مندفعة. أنت تعرفينني، وتعرفين أن لدي عقدة جِنِّية المحبة الطيبة.

- أرسليها إلى هنا. إنها بحاجة إلى الخروج من هناك، وتغيير الجو. سوف أجعلها تعمل في نُزلي - متأسفة يا حبي، فعملي ليس ما يمكن القول عنه إنه الأكثر ملاءمة للفتاة -، لكنني أعدك بأنه على الرغم من أن النزل يعمل وفق مبدأ «فراش وفطور»، فإنها لن ترى سوى الفطور، ودون أي شيء من الفراش، موافقة؟

- أأنت متأكدة؟ ألا ترين أن إرسالها إلى نيوزيلندا سيكون مبالغة؟ فأبعد مكان سافرتْ إليه هنا هو العاصمة.

- عليك أن تقتنعي بإنها امرأة بالغة، ليس مهمًا عمرها. وهي قادرة على فعل هذا وأكثر.

أبدت باتريثيا اهتمامها بهذا العرض. لقد اتسعت عيناها.

اقترضت بيبيانا نقودًا من المصرف من أجل تذكرة السفر، استصدرت لها جواز سفر، أخذتها إلى المطار، دفعت أجرًا زائدًا كي تسافر كقاصر، وهو أمر لم ترفضه باتريثيا، لأنها على الرغم من أنها لم تشأ إقرار ذلك، إلا أنها كانت تشعر بالتشوش من فكرة السفر، والخوف من الضياع. وقد بدا ذلك على وجهها، وفي المظهر الرسمي الذي بدأت تتصرف به مذ علمت أنها ستسافر إلى أقاصي العالم.

في السنة التالية غادرت مارتينا معها، وقد ملّت من الأغنام والسياح ومن نُزل الـ «فراش وفطور» ومن سلام نيوزيلندا. كانت باتريثيا قد استبدلت اسمها باسم خوانا دي أركو. وكانت ترتدي الجينز المشدود

وبلوزة سوداء، وشعرها مصبوغ بصباغ أسود لامع، وتعلق أقراطًا على محيط أذنيها. لقد كانت تحديًا يمشي على قدمين، ولكنها بدت سعيدة.

- لا تقولي لها إنني أخبرتك - قالت لها مارتينا باسمة -، لقد وقعت في حب إليزابيث سالاندر. إنها بطلتها الآن.

عندما بدأت حملة حزب اليسار الإيروتيكي، اقترحت بيبيانا على خوانا دي أركو أن تكون مساعدتها. كانت الفتاة تبدي تصميمًا شرسًا، وكانت سريعة وتتمتع بحاسة سادسة حادة في تقويم الناس.

(مواد تاريخية)

الموضوع: برنامج

من: بيبيانا

إلى: eva@ss.com،mm@sonajero.com،
rebecadelosrios@celulares.com،portaifi@gg.com

إذا كنا نريد أن يأخذوننا على محمل الجد، وسط كل المزاح والمرح الصاخب الذي اتفقنا على أن يكون طابعنا المميز، علينا أن نتقدم باقترح برنامج أصيل، وهذا أمر لا يخلو من المصاعب (فلسبب ما تتشابه جميع البرامج).

أظن أنه علينا أن نجسد ما طرحناه في البيان، أو أن نحدد إلى أي مدى يكون ممكنًا ما نعنيه بالسعادة. ويشكل ذلك ديباجة للبرنامج، ويكون شيئًا من نوع:

إننا نُعَرِّف السعادة بأنها حالة تكون فيها مسألة الحاجات الأساسية محلولة، وحيث يمكن للرجل والمرأة، بكامل الحرية، أن يختارا امتلاك الفرصة لاستخدام أقصى ما لديهما من قدرات فطرية ومكتسبة للمصلحة الخاصة ومصلحة المجتمع.

إن مقترح حزب اليسار الإيروتيكي ليس محصلة خطط اقتصادية، ولا قائمة وعود كتلك التي اعتادت عليها الأحزاب السياسية التي درجت، طوال سنين، على أن تعدنا بالمن والسلوى لتخلف في ما بعد وعودها. إن

اقتراحنا هو إصلاح شامل من أجل تغير الطريقة نَظمتْ بها حيواتنا القوى الاقتصادية والاجتماعية السابقة لزمننا.

ويتضمن اقتراح الحزب اليساري الإيروتيكي ستة مظاهر أساسية:

أ. إصلاح النظام الديمقراطي (مقترح مارتينا).

ب. إصلاح عالم العمل وإنهاء الفصل بين الأسرة ـ العمل.

ج. إصلاح النظام التعليمي.

د. إقرار نظام محاسبة يضمن الشفافية في إدارة رؤوس الأموال والأرصدة العامة.

هـ. توجيه إنتاجية البلاد نحو التوصل إلى الاكتفاء الذاتي الغذائي وفي مجال الطاقة، وإنتاج مادتين أساسيتين للتصدير: الأزهار والأكسجين.

و. إصلاح المفهوم والنظام الضريبي كي يتجاوب مع فكرة المسؤولية الملقاة على عاتق كل مواطن تجاه بلاده ومواطنيه.

أما ما يتعلق بعالم العمل فهو، كما تعلمون، هاجسي الأكبر. وأرى أنه لن تكون هناك مساواة بين الرجال والنساء ما لم يتغير نمط تنظيم العمل الذي يفترض مسبقًا فصل العامل عن البيت، وبالتالي وجود شخص يتولى رعاية الأبناء والبيت (وهذه مسؤولية تتولاها المرأة تقليديًا). وكيفية رعاية الأبناء والبيت دون أن يعني ذلك التسبب بأضرار وانقطاع أو إنهاء لحياة النساء العملية، وهذا هو التحدي الذي لم يحله المجتمع الحديث بعد.

لقد توالى حتى الآن انضمام النساء بأعداد كبيرة إلى الجامعات، لكن حياة العمل تفرض، عند وجود أبناء، ما لا حصر له من الواجبات الإضافية التي تتحمل النساء مسؤوليتها وتؤدي إلى قصور بفعاليتهن في

الميدانين كليهما. ولا يكون مستغربًا عندئذ، إذا ما توافرت لهن الفرصة، أن يخترن البقاء في بيوتهن. هذا يعني أنهن سيتحولن إلى تابعات اقتصاديًّا لمن يوفر أود الأسرة، مما يجعلهن بالتالي عرضة للهجران والعنف ويُفقدهن الاستقلالية وإمكانية تحقيق ذواتهن في ميدان آخر مختلف عن الأمومة.

لا بد من فصل الربط الآلي امرأة ـ أمومة، وتحويل هذه المهنة إلى عمل محايد، إلى وظيفة اجتماعية خاصة بجنس واحد. وتحقيق ذلك هو مسألة سلطة. فمن يملك السلطة يفرض شروط اللعبة، ويخلق الأسباب التي تسوغ طريقة معينة من التنظيم.

تذكروا أننا بحاجة إلى:

١. الفكرة من أجل علم وشعار (إذا كان ممكنًا أن يتولى أحد إنجاز رسم، سيكون أفضل)

٢. صياغة عبارة شعار.

على هذا النحو تمضي أمور الإصلاحات، يا فراشات.

قبلاتي،

بيبيانا.

خوانا دي أركو

تململت في الكرسي، كانت مارتينا قد طلبت منها أن تتولى فترة مناوبة إلى جانب بيبيانا في المستشفى، لم يكن يروق لها رؤيتها على تلك الحال، ساكنة، غافلة، شاحبة. وتساءلت: كيف ستخرج من حيث كانت؟ لا تريد أن يظنوا أنها قد ضاعت منهن. إنها تمضي في عقلها، متنقلة من فصٍ في الدماغ إلى آخر، غائبة، ولكنها حاضرة، إنها تعرف اللعبة، وقد استخدمتها مرات كثيرة.

تكون أن تكون، تستدعي ذلك إلى داخلها، هكذا تحملت الاغتصابات، وسوء المعاملة والانتهاك، تغيب عن ذاتها، تتخيل أنها ليست هي من تعاني.

لقد فعلت ذلك منذ المرة الأولى، عندما اغتصبها خالها. لكنها لم تكن خبيرة في الموضوع يومذاك. لم تستطع تفادي الصراخ... التراجع، كان ذلك يؤلمها؛ رعب الإحساس بأن رجلًا فوقها، يتعرق، يلهث، قانطًا من أجل إدخال ذلك الشيء الصلب إلى داخلها. كانت المرة الأولى التي عرفت فيها ما الذي يحدث لذلك العضو الذكري. كانت قد رأت الكثير منه في صغرها؛ فقد كانت هي وأصدقاؤها وأخوتها يستحمون عراة في النهر قرب بيت أمها. وكان يُضحكها رؤية تلك الصفارة التي لدى الأولاد، قطعة قصب، ناي صغير وتافه معلق مع ذينك الكيسين الصغيرين. كيف يستطيعون المشي مع هذه القطعة المتدلية؟ سألت أخاها ذات مرة. لا بد أنه أمر غريب، وغير مريح، أليس كذلك؟ ألا يؤلمك حين تركب الدراجة؟

ضحك أخوها وقال: يؤلم حين يلتصق هناك، ليس أكثر، ويعتاد عليه أحدنا، وانظري أنت، كيف هن النساء بأثدائهن المدلاة. ألم تنتبهي إلى الخالة إيراديا حين تركض؟ تشوكوبلوس، تشوكوبلوس، هذا ما يحدثانه، ثم ضحك وهو يضع يديه على صدره ويحركهما من أعلى إلى أسفل مثلما يتحرك ثديا الخالة. جهازنا يظل مختبئًا جيدًا في جرابه على الأقل مادام غير مشغول.

الجهاز. هكذا كان يدعوه أبناء خالها وإخوتها. ولكنها لم تر ذلك الجهاز يعمل إلا في الليلة التي اغتصبها فيها خالها. ولهذا اجتاحها ذعر عظيم عندما أجبرها على لمسه وأحست بقطعة قصب الخيزران تلك، بذلك الجذع الذي بلا أوراق، بقطعة اللحم المتحولة فجأة إلى حجر. وكان الأسوأ حين امتطاها وغرس ذلك الوتد فيها؛ هي التي بالكاد قد ظهر لها قليل من الشعر، وكانت قد نزفت دم طمثها أول مرة. أحست بما يشبه تأجج الفلفل الحار. كانت حرقة لا توصف، كما لو أنهم قد دسوا شعلة مشتعلة في أحشائها. والأدهى من ذلك أنه بدأ يتحرك، ويفرك الموضع المتأجج، يفرك ويلهث، بينما لم تكن هي قادرة على التفكير بأي شيء آخر سوى الحرقة والقرف مما كان الرجل يلمسه هناك، بينما هو يتعرق فوقها، ويصدر تلك الهمهمات كحيوان، كقرد. أمسك الخال رأسها كي يدفع أكثر ويهتز فيها، داخل تلك الحرقة حيث، وهي ممسوكة كذبابة تحته. ظلت على تلك الحال إلى أن جاء (لم تفهم قطّ لماذا يطلقون «مجيء» على الرعشة الجنسية، أين يذهبون كي يجيئون؟) عندئذ صرخ وانهار فوقها. فكرت في أن ثقله سيفجر رئتيها لأنها كانت تجد صعوبة في التنفس. وعندما لم تعد قادرة على تحمل المزيد، دفعته عنها معتقدة أنها تجازف بأن تدفعه إلى ضربها، ولكنه كان أشبه بكيس ثقيل، كميت

في الحياة، ولم يفعل شيئًا سوى التهاوي على السرير، وراح يشخر على الفور. فانتهزت عندئذ الفرصة كي تنهض (كان الدم يسيل على ساقيها). تناولت قطعة خشب وضربته بقوة، قدر استطاعتها، على عضوه، على بطنه، على رأسه. كانت تشعر بأن الحقد ينهشها، وأنها تريد قتله. فتذكرت الوصية الخامسة. توقفت. كان يتلوى. يمسك ما بين ساقيه.

ـ خالي، خالي ـ قالت له مذعورة من غضبها بالذات، مفكرة فيما إذا كانت قد تسببت له بشلل.

ولكنها ما كادت تقترب منه حتى ثبتها بين ذراعيه، ثم ألقى بها فوق السرير وراح يضربها على وجهها، على صدرها، على بطنها.

عندئذ أحست هي بالرعب، وراحت تردد: إنني موجودة دون أن يكون لي وجود، لقد خطرت لها الجملة فجأة، لا تدري من أين خرجت بها، لكنها واصلت ترديدها. كان الضرب يوجعها، لكنها لم تفعل شيئًا، حتى إنها لم تغط وجهها. إلى أن تعب هو نفسه في إحدى اللحظات.

ـ سوف تدفعين الثمن يا ابنة العاهرة ـ صرخ بها ـ. سوف أجعل منك عاهرة سواء أعجبك ذلك أم لم يعجبك، وسوف ترين.

لم تعد تدري كم من الرجال مروا عليها، لم يعد هنالك فرق، فهي لم تكن موجودة قطّ. إنها مثل بيبيانا، مستلقية على السرير؛ مجرد جسد. من المؤكد أن بيبيانا لا تعي شيئًا من كل تلك الأجهزة المتصلة بها: السيروم، الشاشة التي تتابع خفقات القلب، الجهاز الذي تتبول من خلاله، الأكسجين. وفكَّرتْ: يا للمسكينة، فأنا أستيقظ على الأقل متى أشاء، وأقوم بردات فعل، أما هي فغير قادرة على الحركة. أحست بدفقة شفقة، فابتهجت.

انتبهت إلى أنها المرة الأولى التي تشعر بأسى حقيقي تجاه شخص آخر سواها.

عندما جاءت مارتينا، قالت لها إنها لا تريد الذهاب؛ بل تريد البقاء هناك مع بيبيانا؛ لأنه لا بد لأحد من العناية بها.

- لا يا خوانيتا، ستأتين معي، إمير على وشك المجيء، توجد هنا ممرضات، وأطباء. ولا شيء نستطيع نحن عمله هنا.

- هي هنا - قالت - موجودة دون أن يكون لها وجود.

نظرت إليها مارتينا دون أن تفهم.

- أنا أعرف ما الذي أقوله لك - أكدت خوانا دي أركو.

- يمكنك المجيء متى شئت عندما ننهي عملنا - قالت مارتينا -، ولكننا لا نستطيع الاستغناء عنك الآن، فأنت أفضل من تعرف أين هي كل أشياء بيبيانا.

الخاتم

في العنبر، وجدت بيبيانا سانسون خاتمًا كانت قد حزنت على فقدانه لعدة أسباب. لم تكن للخاتم قيمة مادية كبيرة، ولكنه مرصع ببضعة أحجار مرتبطة بشخص من يحمله، لقد كان هذا الخاتم، بطريقة ما، ختمها الخاص، فشارة تقديم برنامجها في التلفزيون «**قليل من كل شيء**»، تتضمن لقطة قريبة جدًّا ليديها. ونقطة البؤرة في اللقطة هي حجرُ عنبرٍ بيضوي فوق نحاس مصقول، يشغل على الأقل نصف الإصبع الخنصر في اليد اليسرى.

إنه هدية من أمها التي اشترته من متجر في إسطنبول.

وهي تتذكر جيدًا، خلافًا لأشياء أخرى، أين نسيت هذا الخاتم. لقد افتقدته وهي عائدة بعد إيصال إمير إلى المطار. لقد تركته على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير في الفندق الذي نزل فيه إمير أثناء رحلته الأولى إلى فاغواس. فأطلقت اللعنات: يا لابن المئة ألف أب كلب قذر! لأنها انتبهت على الفور: سيعرفون في الفندق مع من نام النزيل المذكور، والذهاب للمطالبة بالخاتم سيكون بمثابة وشاية بنفسها. ظلت أيامًا تنتظر أن يتصل بها أحدهم مطالبًا بتعويض مقابل السكوت، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث. من تراه احتفظ به؟ رغبت في التفكير بأن من فعلتها قد تكون النادلة، ولا بد أن تكون قد فعلت ذلك بمحبة، واحتفظت بالخاتم كغنيمة صغيرة من غنائم عملها القاتم والروتيني، وأنها ستأخذه إلى بيتها؛ وسوف تبتسم حين تراها في التلفزيون، لأنها صارت تعرف سرها.

أمسكت الخاتم بيدها. شمته. كانت له رائحة نحاس عتيق، تلك الرائحة المعدنية التي لا يمكن الخطأ بها. هز وجه إمير الكيخوتي الأسمر ذاكرتها.

لقد كانت مدعوة، كشخصية إعلامية، إلى منتدى المجتمعات في مونتيفيديو. وكانت تلك هي الذكرى الخمسين للمنتدى الأول، ومن المقرر أن يحضره ممثلون بارزون من الدول المتحدة وغير المتحدة في أمريكا وأوروبا وآسيا وإفريقيا، وكان الصينيون هم الرعاة الكبار. تذكرة السفر التي أرسلوها إلى بيبيانا كانت في الدرجة الأولى. قدموا لها في قاعة الانتظار بالمطار عدة أشخاص لتصافحهم؛ كان المعجبون بها كثر وكانت تحب أن تكون لطيفة مع الجميع، على الرغم من أنها تفضل البقاء هادئة قبل الصعود إلى الطائرة. وما إن تتخذ الطائرة مسارها في الارتفاع حتى تبدأ الاستمتاع بالطيران، ولكنها ترى قبل ذلك أنها مثل من يلعب الروليت الروسية. تمكنت من النوم حتى الوصول إلى ميامي. وهناك استقلت طائرة ألترا جامبو إلى أورغواي. في المقعد المحاذي للمر، بصف المقاعد الثاني. وضعت القارئ الإلكتروني والكمبيوتر الوحي فوق الكرسي، رفعت حقيبتها إلى رف الأمتعة، ثم توجهت نحو الحمام في الجزء الخلفي، من أجل أن ترى الطائرة فقط، وقد كانت مذهلة، خمسمئة مسافر، لا وجود لطائرات بهذه الضخامة تسافر إلى فاغواس. فبلادها ما زالت وسط إشارة استفهام ما بين العصور الوسطى والحداثة، هذا ما يحدث للعالم الثالث، تعايش القديم مع الأكثر تقدمًا. في بلدان كثيرة لم يعد للتلفزيون وجود تقريبًا، أما في فاغواس، لحسن الحظ، ما زالت توجد مناطق ريفية بلا اتصالات إنترنت في كل بيت، أمر لا يصدق في الواقع، ولكن استمرار وجود التلفزيون مناسب لعملها. وصلت إلى مقصورة الخدمة التي بجوار دورة المياه، كانت هناك امرأة شابة تجلس على الأرض باكية، وتسند ظهرها إلى المقصورة، وساقاها

تستندان إلى صدرها، بينما كانت مضيفة جوية تحاول مواساتها. سأل صوت من خلال مكبرات الصوت عما إذا كان يوجد طبيب على متن الطائرة، تبين أن المسافرة الشابة ضحية نوبة هلع، وأنها تريد مغادرة الطائرة بينما الكابتن يرفض السماح لها بذلك. تحولت بيبيانا على الفور إلى محامية للمرأة، وبعد أن تجادلت بحماسة مع كابتن الطائرة، متظاهرة بأنها طبيبة نفسانية وأشعرته بالخجل من موقفه، سمحوا للفتاة الباكية بالنزول من الطائرة برفقة زوجها الشاب. تهيأت الطائرة للانطلاق وعادت بيبيانا إلى مقعدها. طلبت نبيذًا، تنفست بعمق، ابتسم لها إمير. فجردتها ابتسامته من أسلحتها. (ولكنه إذا كان هرًّا، فهو هر مبتسم.) سمعت في رأسها الجملة التي ترد في قصة لويس كارول، كانت ابتسامة إمير عذبة وتكشف على الفور عن شخص نبيل، ذكي، وكل ما يظنه المرء بالآخر حين يكون السهم قد أصابه وصار على وشك الوقوع في الحب. لم تنتبه بيبيانا طبعًا، في تلك اللحظة، إذا ما كانت الهرمونات هي التي تلعب تلك اللعبة أم القلب؛ لأن الأمور تتعقد على الدوام لدى التمييز بينهما، وكان من المنطقي أن يسألها عما حدث، وأن تحدثه عن بنوبة رعب الشابة المتزوجة حديثًا والتي تعاني من فوبيا الطيران.

- الطيار يقلقه التأخير الذي سيتطلبه إنزال أمتعتهما بسبب الأنظمة، أتدري؟ لا يمكن أن تسافر الأمتعة من دون صاحبها، تحسبًا من أن يكون ما يحمله قنبلة. وقد أقنعته بأن الفتاة لا تتظاهر وأن يتجاهل مسألة الأمتعة؛ ذلك أن إيقاع نبضات القلب لا يمكن أن تتسرع بصورة إرادية، وقد قمت أنا بقياس نبض الفتاة. فكان ١٦٠ نبضة في الدقيقة.

- أأنت طبيبة؟

- لا، ولكن لدي معرفة بنوبات الرعب، إنها شائعة في بلادي.

- ولكن... ماذا لو كانت خدعة؟ ليست بالفكرة السيئة. فتاة شابة، جميلة وممثلة جيدة، تتظاهر بنوبة رعب عصبية، فتتمكن من النزول من

الطائرة وبووووم، ننفجر جميعنا في الجو - قال متصنعًا القلق - إنني أفكر في النزول أنا أيضًا.

- ليست بالطريقة السيئة للخروج من هذا الكوكب - قالت مبتسمة - موت سريع مع مقاطع من سماء زرقاء.

شربا نبيذًا، وبينما هما يتبادلان الحديث، تقدمت عيونهما مقتحمة بصورة متسارعة. عينا إمير زرقاوان جدًّا، إنها تعجبه، يظن أنها جميلة، ضحكتها تفتنه، وكذلك طريقتها في الكلام، وحركاتها، وأسلوبها الخاص في نطق بعض الكلمات؛ والمتعة التي رآها تأكل بها، ودهنها الخبز بكمية هائلة من الزبد، وشربها النبيذ حتى آخر قطرة في الكأس، ورفعها الكأس عارضة عنقها الطويل مما جعله يتخيل طريق عنقها عبر المنحدر الذي عند منتصف بلوزتها. أما عينا بيبيانا من جهتها، فلم تتركا مجالًا للشك في أنها تستمتع بنبرة صوته، وأن كلماته تدغدغها وهي تمر عبر مسمعيها، ونظرته المصوبة من أعلى، شاردة عن كل شيء آخر سواها، كما لو أنها هي الشيء الوحيد في العالم، ومتعة جعله يضحك، وسخرية ردوده، وقد قالت لها الثقة بحدسها لا بد أنه رجل طيب مع الأطفال والنباتات، رجل نبيل بيدين طويلتي الأصابع يمكن له عزف الكمان بقدر ما يمكن له عزف الألحان المتولدة من الجسد، وكان يروق لها أن يوجه إليها أسئلة، وأن يبدو مذهولًا لأنها إلى جانبه تبدو خارجة مَنْ يدري من أي مكان.

لعبة اللف والدوران والإغواء بدأت بنقاش طويل وممتع حول أمن الطائرات والقطارات ووسائل نقل أخرى، ثم انتقل إلى موضوع وسائل الاتصال، والدور الذي تتولاه، وإذا ما كان بإمكانها أن تكون أو لا تكون موضوعية، وإذا ما كان السوق هو الذي يحدد ذلك. تناولا الطعام، وأثناء

تناول التحلية، حدثته بيبيانا عن (ح ي إ/ قدم)، فضحك معجبًا بهذه التسمية.

ـ فكرة جيدة، ألا ترى ذلك؟ فهكذا يتشكل الطريق، بوضع قدم أمام الأخرى ـ قالت ضاحكة.

ـ فكرة لامعة، أهي حروف أولى؟ ما الذي تعنيه؟

ـ حزب اليسار الإيروتيكي ـ قالت بيبيانا، وهي تقدر مفعول قولها.

فارتمى هو إلى الخلف مقهقهًا.

ـ رائع ـ قال ـ، رائع، اعتبريني عضوًا منذ الآن.

لم يكن إمير يتوقف عن الابتسام بينما راحت هي ـ متحمسة لرد فعله ومعتقدة أنها ستكون تجربة جيدة للمنتدى ـ تشرح له قصة الحزب وهدفه.

فقال إمير إنه يدعو منذ سنوات إلى قناعته بأن مسألة السياسة هي مسألة مخيلة، ويرى أن ظهورها له الآن فجأة، وعرضها في الجو، حرفيًا، هذه الفكرة الإبداعية، إنما هو هدية عظيمة.

ثم أضاف:

ـ إنها فكرة غير معقولة أيضًا، ولكنني مقتنع عنيد بفكرة أنه لا بد من تغيير العالم، وقد دفعني ذلك إلى نطح الصخر مرات كثيرة، إلا أنني لا أستسلم، وقد صرت أتوصل الآن، مع كل محاولة أو كل إخفاق، إلى أطروحة، إلى كتاب على الأقل، وهذا شيء ما، أليس كذلك؟ ـ ضحك ساخرًا ـ ولاحظي أنني صرت قائدًا طلابيًا، ورجل حرب عصابات، وأمينًا عامًا لحزب.

ـ غير ممكن!

ـ بلى، وإن بدا تناقضًا، ربما هي روح التناقض، ما زلتُ مغرمًا بالقرن العشرين، بالثورات، بالأحلام الكبيرة. لقد كانت جميلة تلك الأزمنة، حين كان أحدنا يؤمن دون تفكير، لقد صار ذلك مرذولًا الآن. انظري الأدب: الارتيابية والسخرية هي العملة المتداولة في روايات هذه

الأيام، الكتّاب الأمريكيون اللاتينيون الذين هزوا العالم في زمن حركة البوم، يريدون الآن أن يسخروا مما كانوا عليه، ولست أدينهم، علك الحجر بالأسنان سيئ جدًّا. أنا أرفض هذا الأسلوب من الكلبية، وإن كان لا بد لي من الاعتراف بأنني شخص ارتيابي، ويمكن تصنيفي، في هذه الأوضاع، كارتيابي يمضي طوال الوقت بحثًا عن مسوغ للتخلي عن كونه ارتيابيًّا. وأنا أجد ذلك المسوغ بين حين وآخر، فما تروينه لي، على سبيل المثال، شيء جميل، هذا بالضبط ما يروق لي. أنا لا أنفع في شأن عملي، إنني جيد في التفكير والتأمل وتقديم اقتراحات. أفضل ما فعلته هو فتح «مختبر أفكار» في واشنطن، وفيه أقضي الشطر الأكبر من وقتي. لقد احتجت لسنوات من أجل تحقيق سمعة كعارف للمنطقة، لكن ذلك قد أثمر، فأنا أرى آرائي الآن متداولة في تحاليل وسائل الاتصال والناس المؤثرين، وهذا يجعلني أشعر بأنني ذو فائدة. وقد كان عليّ مؤخرًا أن أتولى إدارة أعمال تجارية، فقد مات أبي وخلّف آبار بترول في ماراكايبو، وإقطاعيات في الأورغواي وباتاغونيا، ثروة كبيرة، وهناك أناس كثيرون يعتمدون عليّ الآن. وقد اضطررت إلى التأقلم مع هذه الواجبات، لا أديرها، وإنما أُشرف على إدارتها، أقوم بتنمية الثروة وأستخدمها في بعض المناسبات لأكون كيخوتيًّا، هكذا أتطهر من الشعور بالذنب، أين ستقيمين في مونتيفيديو؟

ـ في فندق بلازا، بمركز المدينة، الصينيون يدفعون.

ـ لقد جذدوه مؤخرًا، لا أريد الظهور بمظهر المتواقح الجريء، ولكن لدي بيت فيه غُرف كثيرة.

ـ أنا أرملة ـ قالت له.

ـ أنا مطلق.

أطلقا قهقهة معًا. يا للأسف، قالت بيبينا، لا أري كيف ولماذا قلت لك هذا.

فقال لها: لأن الوقت قد حان لقوله.

ربما كانت سترفض عرضه باستضافتها لو لم تعاود المضيفة الجوية المجيء مرات عديدة لتعيد ملء كأس نبيذها، ولكنها وافقت؛ لأنها فكرتْ أيضًا بأنه لن يعترض طريقها كل يوم كيخوتيٌّ مليونير.

يا للحياة، الحياة، ما الذي يعنيه هذا كله؟ تساءلت، وكانت تشعر أنها امرأة خبيثة بعض الشيء.

بيت إمير يطل على البحر وهو دارة كبيرة معتنى بها في كاراسكو، وهذا حيّ جميل، تختلط فيه بيوت قديمة بأخرى حديثة، ومكاتب ومتاجر. البيت رسمي جدًّا، جميل، فيه مرايا كبيرة والقليل من الأثاث. يبدو واضحًا أنه قلما يزوره، لكنه بيت نظيف لا تشوبه شائبة، وتوجد أزهار طازجة في الزهريات. استقبلتهما مدبرة البيت عند الباب وعانقت إمير بمظاهر سعادة كبيرة، قالت لها إنها تعمل مع الأسرة منذ سنوات لا تدري ما عددها. وأنها عرفت إمير طفلًا. اقتادتها إلى غرفة فسيحة، فيها أثاث دقيق وناعم، على الطريقة النمساوية، وسرير مهيب. فتحت الأبواب الزجاجية على مصرعيها، وهي أبواب تؤدي إلى شرفة يُرى منها بحر لابلاتا. وفكرت بيبيانا: رؤية ذلك المنظر وحده يستحق العناء. ومع ذلك، كانت عند ذلك الحد تشعر بالندم لقبولها الدعوة. لامت نفسها لاندفاعها، ولأنها لم تفكر بأن البقاء لساعات، دون التمكن من عمل أي شيء آخر، في حميمية مقعديّ طائرة، ليس مثل كونها محشورة في ذلك البيت الفسيح مع رجل لا تكاد تعرفه. كيف ستتوقف عن السماح لنفسها بالانقياد لدوافعها؟ كان ذلك أشبه بلعنة. ستجد نفسها في ما بعد في أوضاع مشابهة، دون أن تعرف كيف تخرج منها. أضف إلى ذلك أنها تشعر بالاستياء من تفكيرها حول الكيخوتي المليونير وما يمكن أن يعنيه لحزب اليسار الإيروتيكي. كان واضحًا واضحًا لديها أن كل شيء، من دون

المال، سوف يبقى مجرد حبر على ورق، ولكن إمير قد أعجبها أيضًا بلا أموال! ويروق لها أن يكون نصيرًا لحزب اليسار الإيروتيكي، كانت تفكر في ما يمكن أن ينشأ بينهما. وإذا ما نشأ شيء، فهي لا تريد أن ينسبه إلى مصلحة أرتزاقية من جانبها. دخلت إلى الحمام، وهو حمام بديع؛ مغسلة الأيدي مثبتة على حاوية من المرمر. نظرت إلى المرآة، إلى الزرقة حول عينيها، كان عليها أن تنام في الطائرة. استخدمت مخفف الزرقة، طلت شفتيها الغليظتين، الممتلئتين. وكانت تعتبرهما أكثر ملامحها كمالًا وإتقانًا. قوس كيوبيد متقن في الشفة العليا. يا لها من تسمية!، قالت لنفسها، قوس كيوبيد! تشريح سيئ الذوق.

وبينما هي على تلك الحال، طُرق الباب. خرجت من الحمام، فتحت الباب، فظهر إمير بابتسامته؛ ابتسامة تطالب باعتذار.

- يبدو أنك نادمة.

- قليلًا، أجل في الحقيقة.

- لا ألومك، هذا البيت مألوف لي، لكنني أتوقع أنه يبدو لك غريبًا. ولكن انظري إلى البحر، تعالي، أطلي من هنا.

أمسك بيدها، اقتادها إلى الشرفة، وهناك بالذات قبّلها أول قبلة طويلة إلى حدّ أنها فقدت التوازن حين أفلتها. ضحكا معًا، احتضنها، ضمها إليه، دس أنفه في شعرها. ونظرا إلى البحر متعانقين. قال إمير إنه معجب بأورغواي، لقد ولد في البرازيل، ولكنه ترعرع ما بين فنزويلا ومنتيفيديو.

منذ زمن طويل لم تلتق بيبيانا برجل. عناق إمير هيج الدم في عروقها، شعرت بأحاسيس الرغبة في بطنها. لم يفلتها، اقتادها وهو يحتضنها إلى السرير، جلست على الحافة، نزع عنها السترة، أنزل كتفي بلوزتها، قبّل كتفيها بعذوبة. ماذا سيكون موضوع محاضرتك؟، سألها

بينما هو يقبلها بنعومة من فمها هذه المرة. «الأساليب النسوية في السلطة»، قالت وهي تفك أزرار قميصه، وما الذي تنتظره هي من المؤتمر، سألها وهو يُخرج البلوزة من رأسها، ملامسًا بإبهامه حواف نهديها، أريد التعرف على أناس يساعدونني، قالت بينما هو يفك حمالة صدرها. أناسٌ يساعدونكِ؟ قال وهو يمسك نهديها بكلتا يديه، وينظر إليهما كما لو أنهما كنز قد اكتُشف للتو. أجل، يساعدونني في تمويل الحزب وفي إقامة اتصالات، قالت وهي تشعر بأنها تسترخي بكاملها تحت قبلاته القصيرة، الرطبة، اللاذعة كلها، في تنقله فوق بشرتها كعصفور كوليبري. ستتركين الأمر لي، قال وهو يُنزل البنطال عن ردفيها، ويقبّل سرتها. سأترك الأمر لك، قالت بيبيانا، وقد صارت عارية، وهي تنهي تعريته أيضًا. أجلِ، قال لها، سوف تتركين الأمر لي، وسأمتطي معك هذه المغامرة الكيخوتية، قال هامسًا وهو يضمها إليه، ويفرك جسده بنعومة بجسدها، يقبّل كتفيها، عنقها، أذنيها. فلنترك الحديث في الأمر إلى الغد، قالت وهي تضحك بصوت خافت، مستعدة تمامًا، خداها يتأججان، والبشرة تتيقظ من البداية حتى النهاية. كما تشائين، قال وهو يدفعها برفق إلى أن صارت في وضع أفقي على السرير، وراح يقبّل قدميها، ركبتيها، مواصلًا الطريق ببطء حتى بلوغ ما بين ساقيها حيث ضاع متلذذًا، متعرفًا إليها ببطء، راسمًا زهرة عضوها بنعومة وبحركة دائرية، بعذوبة وصبر، برقة عظيمة جعلتها تتمثل ذلك كله دون أن تتحرك، خائفة من قطع إيقاع الحركات البطيء والمتكاسل الذي ذكّرها، لسبب ما، بالخبز مع الزبد، والجيلاتين، وكافة اللذائذ والأطعمة المفضلة في الحياة. وأخيرًا سرّع خطواته، ونقر عصفور الكوليبري بسرعة وخفة الزهرة المخبأة، فأطلقت تنهيدة وقوست جسدها بينما رعشة الذروة تجوب جسدها من أقصاه إلى أقصاه.

ذُهلت بيبيانا للسهولة التي اجتازا بها كلاهما بوابات الحميمية المخادعة؛ فقد كانت لإمير، مثلها، علاقة بالغة الحرية والسعادة مع جسده، وميل غريزي إلى اللذة، مثل عشيقين قديمين فرَّق سوء الحظ بينهما، أو مثل النصفين اللذين تخيل القدماء أن كلًا منهما يبحث عن الآخر دون توقف، ثم يلتقيان في العذوبة والشهوة. لحسن الحظ أن البيت يظل خاويًا في الليل، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى القلق من الضحك قهقهة أو إطلاق التأوهات، منذ زمن طويل لم تضحك دون كابح كطفلة. مارسا الحب على كل سرير في البيت الذي أصرّ إمير على أن يريها حجراته؛ فقد كان أحد طقوسه كلما عاد إلى البيت، كما قال لها، أن يزور كل غرفة فيه ليخفف من هواء الحبس والإغلاق فيها. تجولا عاريين في الممرات، صعدا ونزلا أدراجًا. روى لها إمير قصصًا عن أسلافه تنافس قصص غارسيا ماركيز: فأحد أعمامه تصنع الموت كي يتقاضى قيمة تأمين على الحياة، وقصة العمة البدينة التي لم ينتبه أحد إلى أنها كانت حبلى. رجعا عند الفجر تقريبًا إلى حجرة الشرفة. قالا إن عليهما مراجعة مداخلتيهما اللتين سيلقيانهما في اليوم التالي، ولكن الأمر انتهى بهما إلى الحديث عن وضعيات وناما معًا، شبه مخمورين وسعيدين.

خلال المنتدى الحاشد والصاخب الذي عُقد في قاعة المؤتمرات بالمدينة، تابع كل منهما الآخر بعينيه، واهتم بمداخلته. في أثناء تقديم بيبيانا مداخلتها كانت القاعة ممتلئة بالكامل، وكان معظم الحضور من النساء. وعلى الرغم من طلاقتها في الكلام أمام وسائل الاتصال، فقد شعرت أنها عصبية؛ إذ كانت تلك هي المرة الأولى التي تتوجه فيها إلى جمهور واسع ومختلط من الجنسين. قبل موعد صعودها إلى المنبر، ذهبت إلى الحمام لتقضي لحظات من الوحدة، وحين صارت داخل حجيرة الحمام الضيقة، أغمضت عينيها. وفكرت بفاغواس، أحست كما

لو أنها تضم البلاد إلى صدرها. فكرت في المرأة التي تريد أن تجسدها، تصورتها، التحفت بصورتها. ستحمل الخطاب المكتوب تحسبًا لعثرات الذاكرة أو رباطة الجأش، ولكنها ما إن بدأت الكلام، جعلها شغف الثقة بفكرة (ح.ي.إ.) تنسى نفسها. وبنبرة حازمة، قوية، مع مسحة فكاهة، أيقظت حماسة مدوية في الجمهور. وعندما انتهت أحاط بها عشرات الأشخاص، وبتحررها من الواجبات، أحست بالسعادة والرضا. تمكن إمير من شق الطريق إليها، عانقها بقوة، وقال لها إنها رائعة، وذهب لتناول التقديم ماخلته. تمكنت هي أخيرًا من التملص من الناس، ودخلت للاستماع إلى محاضرة إمير التي كانت قد بدأت للتو.

يا للسهولة التي يعبر بها، فكّرت بيبيانا، وهي تراه بكُمَّيه المرفوعين، والقميص المتقن والمخطط بالأبيض والأزرق السماوي. تحليله لعلاقة الولايات المتحدة بأمريكا اللاتينية جاء مفعمًا بمعلومات وفيرة. فأمريكا اللاتينية هي الآن المكان الوحيد المتبقي للولايات المتحدة من أجل تعويض السيطرة الصينية على آسيا وأجزاء من إفريقيا، ولكن سياسة كونها الآن القوة العالمية الثانية تنأى كثيرًا عما كانت عليه في سنوات الحرب الباردة. رآها إمير وهي تدخل وغمز لها بعينه بصورة تكاد تكون غير ملحوظة. أرادتْ الجلوس مقابله مباشرة. تقدمت في أحد جانبي القاعة دون أن تولي اهتمامًا إلى أنهم ينظرون إليها بصورة ملفتة للنظر، ولأنها تعرف أن ذلك مثير للإغواء.

كانت واثقة من أنه لن يضيع خيط أفكاره. فالتحكم بالانفعالات موهبة ذكورية، وهي موهبة تقدرها في سرها، لكن إمير صمت، وصار وقع كعبيها يرن في القاعة، فالتفت الجمهور.

- أريد أن تتعرفوا على بيبيانا سانتوس - قال إمير - إنها صحفية شابة من فاغواس، وشخصية تمتلك كما يبدو رؤية واضحة للفكرة التي تحدثتْ عنها مطولًا: السياسة كتحد للمخيلة.

صفق الجمهور تصفيقًا غير قصير ولا متكاسل. رفعت بيبيانا يدها محيية، وشدت قامتها. وفكرتْ مشوشة: إنها ضربة قاصمة. لم تدر إن كان إمير قد فعل ذلك كي يرد على مقاطعتها له أم كطريقة بريئة من أجل أن يعرفها الحضور.

تناولا الغداء معًا. لقد فعلتُ ذلك للسببين كليهما ـ قال لها إمير ـ يجب أن تعترفي بأنك أردتِ مقاطعتي وأنني قد أرضيتُكِ ـ أضاف مازحًا وهو يقبل يدها.

فقالت:

ـ ما أردته أنا هو أن أثبت لنفسي أن لدي القدرة، مثل أي رجل، على الحفاظ على خيط خطابك دون أن تتوقف.

ـ أنا أتوقف لِما هو أقل بكثير من هذا ـ قال إمير مبتسمًا ـ ولكن ذلك كان جميلًا، لقد أعجبني ما فعلتِه، أربكني، لكنه أعجبني. أما بالنسبة لخطابكِ أنت... كان رائعًا.

ـ وخطابكَ أنت أيضًا ـ قالت له.

ـ كم نحن متواضعان، أليس كذلك؟

ـ التواضع فضيلة بائسة ـ قالت بيبيانا بجد.

ـ وقِّعي وأكدي، سأتبنى قولك هذا كشعار منذ هذه اللحظة ـ ضحك إمير.

في إحدى المقابلات العامة، كانت قد تكلمت عن حزب اليسار الإيروتيكي وانتزعت من الجمهور تصفيقًا مدويًا. وفي اليوم التالي، ظهر خبر الحزب في الصحف الرئيسية؟

أخذها إمير للقاء مع أهم القادة السياسيين الذين يحضرون المنتدى. لقد كان اسم الحزب سلاحًا ذا حدين، قال لها. ولهذا فإن وجودها ضروري

لإضفاء مضمون على الاسم. وقد كان محقًا. وقالت إن هذه المجازفة كانت محسوبة.

استقبلتها تلك الشخصيات البارزة بميل إلى الريبة والحذر، ولكن النساء بينهم ودّعنها بحماس، وودعها الرجال باحترام وبتمنيات طيبة.

ـ أنت امرأة مخيفة ـ قال لها شخص بوليفي ـ، ولكنني أتمنى لك حظًّا طيبًا.

بعد يوم من المشاركة في المنتدى، وسماع خطابات والتحدث في السياسة، كانا متعبين. ولكن إمير أصر، على الرغم من ذلك، على مرافقتها للعشاء. وبعد ذلك، على شرفة الحجرة المطلة على البحر، وبينما هما حافيان وجالسان على الأرض، وظهراهما يستندان إلى الجدار وأقدامهما تستند إلى حاجز الشرفة ذي الأعمدة الرخامية القصيرة، عرض عليها إمير تطوعه لتنظيم حملة جمع الأرصدة. قال لها إنهما سيذهبان إلى الولايات المتحدة لزيارة نساء رائعات وباسلات، مؤيدات لقضايا خاسرة وللعالم الثالث، مناضلات نسويات من الموجة الرابعة. وقال: «مع من أعرفهن سيكون لدينا ما يكفي».

نزعت بيبيانا الخاتم من إصبعها، وضربته على وجهه. إمير، إمير، أين هو إمير الآن؟ أحست برغبة في الركض. لم تستطع فهم ما الذي تفعله هناك، ولا في مكان هي موجودة.

المظلة

لم تكن هنالك مظلة واحدة وإنما مظلات كثيرة على الرف، ورؤية كل تلك المظلات مجتمعة جعل بيبيانا تبتسم ابتسامة عدم تصديق ما تراه. كنتُ أتصور أن عددها كبير، لكن هذا الواقع يتجاوز كل تخيلاتي، فالنظارات الشمسية والمظلات تنال قصب السبق في تلك المجموعة من الأشياء الضائعة، وهما رمزان يمثلان الفصلين المناخيين في فاغواس. المطر في ستة شهور من السنة، وفي الشهور الستة الأخرى تستعر حرارة الشمس فوق البلاد إلى حدّ تجفيفها وتحويل المشهد إلى قفر ذي أشجار عطشى وعشب أصفر محتضر. لقد أهدى إليها إمير معاطف مطرية كثيرة، ولكنها لم تعتد قط على ملابس المطر. وكانت تفضل على الدوام المظلات البسيطة والمفيدة، ولكنها لسوء الحظ كانت تفقدِ تلك المظلات. تنساها عندما تطلّ الشمس من بين الغيوم. وكان ذلك عاديًّا. تظلم السماء، وتهب رياح إعصارية. فتوجه الغيوم السوداء مدافعها وينهال وابل المطر كعمارة من ماء على المدينة. ومع ذلك، فإن الهطول لا يستمر طويلًا. وبانقضاء ذلك المطر الفجائي المندفع، تكنس الشمس بأشعتها ما تبقى من السماء المتجهمة، ويعود الأصيل إلى زرقته الصافية. وقد كان الشفق المغسول والطازج سببًا كافيًّا لبقاء المظلة منسية وراء الباب، أو على الأرض، أو في أي مكان تضعها فيه صاحبتها لتستريح أسياخها من قسوة صفع وابل المطر لها.

تناولت إحدى المظلات من الكوم، جلست على الأرض، فتحتها. كانت ذات لون أخضر زيتوني. جابت بأصابعها القماش المتيبس ما بين الأسياخ. لقد كان المطر يهطل حين قررت إخراج الرجال من العمل في

الدولة. توسلت ذاكرتها إلى أن تمكنت من سماع هطول وابل المطر ورؤية وميض البروق يضيء نوافذ المكتب الرئاسي الغريب الذي سترثه من سابقيها.

هناك كانت هي، وراء المكتب في لحظة سكينة نادرة، كان الوقت متأخرًا في الليل. وكانت قد صرفت خوانا دي آركو، حراسها الشخصيون وحدهم ظلوا ينتظرونها في الخارج. فبعد شهرين من تشكيل حكومتها، لم تكن قادرة على التقدم. حاولت أن تضم من هم أكفاء، سواء أكانوا رجالًا أم نساء، لكن الواقع المتوارث منذ قرون كان يُثقل عليها. فالرجال الذين ما زالوا تحت وطأة انخفاض مستويات التستوستيرون، يعانون الإحباط والتعب، تكبر كروشهم وتضعف قواهم، لم يسمحوا للمبادرة النسائية بالانطلاق. لم يقرروا ذلك بصورة واعية، لكن تعليقاتهم في الاجتماعات كانت تسقط، مرة بعد أخرى، مثل دلاء ماء بارد: آه، المسالة تتلخص في أنكن لا تعرفن هذه الأمور؛ آه، المسألة أنكن لا تمتلكن الخبرة والتجربة. وكان لذلك كله تأثير لا يمكن تفسيره على وجوه النساء العظيمات اللاتي بدأن يعرفن للتو حدود سلطتهن. كانوا يُصَغِرونهن، يجعلونهن ينغلقن على أنفسهن مثل شقائق نعمان مذعورة.

وحتى خلال الحملة الانتخابية، فإن الدفعة التي أحدثها إمير، حين سهّلت مساعيه كساحر و«ميداس» الحصول على أرصدة كبيرة، ما تسبب في انزعاج، ليس بين نساء (ح.ي.إ.)، وإنما بين متعاونات اتهمنها بتحويل رجل، رجلها، إلى ممول للحملة. فكررت هي القول: ما كانوا سيقدمون له سنتًا واحدًا لو لم أكن أنا نفسي مقنِعة. أنا صاحبة التأثير، أما دوره فاقتصر على تسهيل الاتصالات. ما أزعجها أكثر من الاتهامات هي المرارة التي سبّبوها لها. كيف يمكن تجاهل عملها، ما الذي حققنه

بمثل تلك الذريعة؟ ومع ذلك، على الرغم من راديكالية من يتذمرن؛ فقد كان في دخيلة نفوسهن صدى ما لتلك التذمرات؛ ليس من إمير وحده، وإنما من عدد أكبر من أشد معاونيها وفاءً، فكان عليها أن تذكرهن على الدوام بأنهن هنَّ البطلات، وأنهن أمازونيات تلك القصة. في أيام التحضيرات المحمومة لتسجيل الحزب في الحملة الانتخابية (كان لا بد من الانتهاء من جمع التواقيع، وملء كافة الاستمارات القانونية الطويلة المتعبة)، تحسرت بيبيانا بنزق أكثر من مرة لافتقار قائدات ومؤسِسات (ح.ي.إ.) المؤكَّدات إلى سعة المعرفة بحيث يظل اسم إمير والآخرين على شفاههن. لقد كنّ يعرفن اللغة السياسية، ويتعاملن ذهنيًّا مع أرقام وحسابات اقتصادية، ويعرفن الجعرافية والسياسة الخارجية. وإذا كن لا يسمحن للحكمة الذكورية بأن تُفحمهن، فإنهن يطمعن في الحصول عليها؛ ويتحسرن على الوقت الذي كسبه الرجال، في حين كنّ فيه مجبرات على تقليص مدى آفاقهن ليغطين بها الحب، والبناء، والبيت، وكل تلك الأمور التي تكاد تكون، اجتماعيًّا، بلا قيمة. وزعت بيبيانا على الرجال نسخة من رواية «**غرفة خاصة**» لفيرجينيا وولف، الذئبة الكبرى. وقالت لهم إنها قراءة مرغوبة. اقرؤوها لأننا في حالة عجز معرفي بالمقارنة معكم، واكتسبوا الحداثة. لا تشوشونا بكلامكم، إن لديكم الكثير من المعرفة، ولكن الحقيقة أن هذه المعارف، إذا ما حكمنا من خلال ما هو عليه حال العالم، لم تفد في شيء، ولهذا لا تحاولوا توجيهنا؛ بل راقبوا وساعدوا وتعلموا.

ـ أنتِ محقة تمامًا ـ يقول إمير ـ ولكن لماذا تسمحين لهذا الأمر أن يزعجك؟ الرجال في هذه البلاد لم يتمكنوا من تأسيس حزب مثل الذي استطعتن تأسيسه. عيكن استخدامنا، لا تستبعدننا لأن ذلك سيسبب لكنَّ انعدام الأمان.

من السهل قول هذا. انعدام الأمان الذي يتحول إلى قسر، إلى ميل للتنازل أمام السلطة الذكورية الذي يبدو طبعًا في الذهنية النسوية، مثل إدمان الكحول لدى أبناء الكحوليين. لقد قرأت بيبيانا حول أساليب كسر أنواع التبعية السيكولوجية: الأمر الجوهري هو الابتعاد عن المسبب: سجائر، كحول، مخدرات. كم من الوقت يتطلبه ذلك؟ قامت بجولة في المكتب، تخيلت مَشاهد، واتخذت القرار.

استدعتْ خوانا دي أركو، متأسفة لإيقاظك يا خوانيتا، ولكنني بحاجة إلى دعوة مجلس (ح.ي.إ) لاجتماع في بداية صباح الغد.

أما الآن أو لن نستطيع أبدًا، قالت لها. فمن أجل تغيير الأمور بعمق، لابد لهنّ من أن يكنَّ وحدهنّ لبعض الوقت، أن يحكمنّ دون تدخل ذكوري.

- آي، رباه - قالت ريبيكا متذمرة - إذا لم تكن لدينا مشاكل، فيجب اختلاقها.

- وأعود إلى الدليل يا ريبيكا؛ تذكري ما الذي جرى في الاجتماع الذي طرحتِ فيه موضوع الأزهار.

بملابس بيضاء، وصلت ريبيكا إلى الاجتماع حاملة مشروعها الرائد لتحويل فاغواس إلى حديقة، وتصدير الزهور. إنها تجارة ممتازة، كانت قد درست الحالة الكولومبية جيدًا، ولكنها تزودت كذلك بوثائق عن الدفيئات في ألميريا بإسبانيا. فبعد أن كانت أرضًا قاحلة وفقيرة، تحولت ألميريا إلى منتج كبير للخضراوات ومنتجات البستنة. قدمت ريبيكا عرضها. فالزهور ستدر على البلاد أكثر مما يدره البن ومنتجات أخرى تقليدية. أضف إلى ذلك أن آلاف النساء سيحصلن على وظائف. جلست متأججة بالحماسة والشغف اللذين عرضت بهما قناعتها. وعلى الفور،

أثنت بيبيانا على الفكرة، ذلك أنهما كانتا قد ناقشتاها عند صياغة برنامج (ح.ي.إ.). توالى الرجال، واحدًا بعد الآخر، على معارضة تلك الإحصائيات والأرقام والخوارزميات التي لا يفهمنها. وامتد الاجتماع لساعات.

ـ أجل، ولكننا في نهاية الأمر سوف ننفذ المشروع، سواء أأعجبكم أم لم يعجبكم ـ قالت ريبيكا.

ـ ولكن، كم من الساعات أضعناها؟ على هذا الإيقاع سوف نعيق تنفيذ الخطط والوعود التي قطعناها، ومن السنوات الخمس التي لدينا سنضيع أربعًا منها في الجدل والمناقشات. وإضافة إلى ذلك أريد أن أقول لك شيئًا: إنني مقتنعة قناعة تامة ومطلقة أن هؤلاء الرجال لن يتعلموا الشؤون المنزلية إلا مجبرين ـ أضافت بيبيانا.

ـ ولا بد من انتهاز فرصة أنهم صاروا متواضعين ووديعين ـ قالت مارتينا ـ أنا موافقة على رأي بيبيانا.

ـ أنا بحاجة إلى التستوستيرون من أجل هذا الصراع ـ قالت إيفا ـ ما يقلقني هو من سأكلف بمصارعة مغتصبي النساء والسجناء.

ـ لديك أرليني، لاعبة رمي القرص ـ قالت ريبيكا ـ هناك كثيرات يتمتعن بهذه القدرات.

هزت إيفا رأسها دون حماسة كبيرة.

بدا أن بيبيانا لم تنتبه إلى التبدل الطارئ.

ـ قضية أخرى أعرضها عليكن: وزير الطاقة والمياه عارض «مسابقة الحي النظيف»، ومادمتُ قد وعدتُ بأنني سأنظف البلاد، فلا بد للبلاد من أن تُنظف. الناس سعداء بالفكرة، أما هو فتوعدني بتقديم استقالته. إنه قلق على المداخيل والنفقات.

كانت بيبيانا قد أطلقت البدء بالخطة الوطنية للنظافة على شكل مسابقة، مستوحية برنامجًا تلفزيونيًّا. وتتضمن مسابقة الحي النظيف لجنة تحكيم من خبراء يزورون بيوتًا وشوارع ويعلنون آراء تصل إلى مدى نظافة أنوف الأطفال في المنطقة. وتتلقى الأحياء الفائزة خدمة الكهرباء والماء مجانًا لمدة ثلاثة شهور. والحقيقة أن النجاح بلغ حدودًا صارت معه أحياءٌ كثيرة لا تدفع تلك الخدمات.

- أريد أن أقول شيئًا إضافيًا أيتها الرئيسة، إذا كنتِ تسمحين لي - قالت خوانا دي أركو من الركن الآخر؛ حيث كانت تكتب محضر الجلسة على كمبيوترها المحمول - أنا أرى قلة احترام في دخول إمير إلى مكتبك كلما خطر له ذلك. أقول له ألا يدخل، ولكنه لا يعيرني أدنى اهتمام.

- أترون؟ - نظرت بيبيانا إلى الجميع - إنها آلاف السنين من السيطرة الذكورية تثقل علينا.

- ولكن إخراجهم من مؤسسات الدولة فقط، هل سيكون له أي مفعول برأيك؟ - تساءلت إيفيخينيا.

- هذا شبيه بنظرية دوبريه عن بقعة الزيت - قالت بيبيانا -: تُخلق بؤرة ثم ينتشر المفعول. من يبقون في البيت سيتحدثون عن تجربتهم وأنا واثقة من أنهم سيكتشفون ميولًا واهتمامات ويتفاجؤون بأنفسهم. ويخطر لي أنه يمكن لنا أن نقيم واحدًا من **استعراضات الواقع** تتابع فيه سيرورة رجل يبقى في البيت ويرعى الأبناء ويمارس المهمات المنزلية. على طريقة «الناجي»، مع أذونات متضمنة.

- فكرة جيدة - هتفت إيفينخينيا -، يمكن لكارلا أن تتولى تنفيذها.

- لا أدري إن كانت هنالك استعراضات مثل هذا في السويد، ولكن يوجد هناك أرباب بيوت، ودعم من الدولة لدور الحضانة وأنظمة

صارمة لتقاسم الوقت بين الزوجين. الإحصائيات حول مشاركة المرأة تبين أن القضية تتحقق على ما يرام ـ قالت ريبيكا ـ ومع ذلك، بشأن هذه الإجراءات الصارمة، أنا أتقبل رأي الأكثرية، ولكنني أظل على قلقي؛ إذ علينا أن نعيش مع الرجال، فماذا لو تمكنا من العمل بصورة رائعة ونحن وحدنا؟ أيعني ذلك نفيًا مؤبدًا لهم؟

ـ أبدًا، ولا بأي حال ـ قالت بيبيانا ـ ولكن، ألا تلاحظين يا ريبيكا؟ سوف يحترموننا بطريقة أخرى؛ بل أكثر من ذلك، ألا تظنين أننا نحن النساء بحاجة لهذه التجربة؟ لقد حصل الرجال عليها. لقد أداروا بأنفسهم عالم الأعمال، وعالم السياسة. لقد جربوا ما هم قادرون عليه بأنفسهم، أما نحن فكنا على الدوام في ظلهم أو إلى جانبهم. ونستحق الآن أن نخوض التجربة.

ـ لا مزيد من الكلام ـ قالت مارتينا، القلقة دومًا وغير المحبة للاجتماعات (تقول إنها تشعر برهاب الأمكنة المغلقة وهي جالسة في اجتماع).

ـ من أين سنأتي بالأموال كي ندفع لهم رواتب ستة شهور؟ ـ سألتْ ريبيكا.

ـ من الاحتياطي.

ـ سنصبح عند الخط الأحمر ـ قالت ـ وهذا غير مناسب.

ـ نصبح عند الخط الأحمر، نقترض نقودًا، ولكننا غدًا بالذات سوف نحرر القرار وننشره. ونسلم الراتب إلى ربة الأسرة، وهكذا ستكفي النقود لوقت أطول.

ـ نساء المعارضة في البرلمان سيوصلن الصراخ إلى السماء.

ـ هذه حكومتي، وأنا أقرر كيف سأنظمها، لا يمكن لهن التدخل في هذا الشأن. وفضلًا عن ذلك، لدينا حسن الحظ بأنه لا وجود إلا لممثلات

نسائيات في المجلس، وسوف يتفهمن القرار. سوف أتولى شرح القرار بنفسي إذا اقتضى الأمر.

صوتن. وكان تصويتهن جميعًا مؤيدًا للقرار الذي أصدرته بيبيانا في اليوم التالي.

في المساء، دخلت خوانا دي أركو ووقفت قبالة منضدة المكتب.

- أهنئك أيتها الرئيسة - قالت لها - هذا أفضل قرار تتخذينه، ولكنه سيتسبب في مشكلة عظيمة. ومهما يكن ما سيحدث، يمكنك الاعتماد عليَّ.

قالت هذا، ثم استدارت وخرجت.

صحيح ما يقال عن أن السلطة عزلة، فكرت بيبانا، وهي وراء منضدة مكتبها الضخمة، ترتب أشياءها من أجل أن تغادر: الحقيبة، المظلة. لم تعتد بعد على كونها رئيسة. فعندما ينزل المطر ينتظرها السائق تحت المظلة الواقية الكبيرة المخصصة للرئاسة، بينما حارس مرافق يحميها بمظلة عادية، ولهذا تركت مظلتها في أحد الأركان.

من الذي التقطها؟ ماذا كان مصيرها؟ تساءلت وهي تنظر إليها، تقلبها قبل أن تعيدها، مع ذكراها، إلى الرف.

THE NEW YORK TIMES

A NEW CHALLENGE FOR THE FEMINIST GOVERNMENT IN FAGUAS

In the last hundred years, Faguas has seldom been on the American radar screen. That changed last November when a woman's party, the now famous PIE, won a landslide victory in the presidential elections.

The PIE (Spanish for "foot") ran with a most original, feminist but all inclusive platform, which offered to "mother" the country, promising to "scrub the motherland" and leave it "shiny and spotless". Given the poor record of past administrations, "mothering" might be just what Faguas needs, except that President Viviana Sanson recently announced her decision to appoint only women to fill every position in her newly inaugurated administration. The unusual directive states that even menial government jobs are

only to be given to women. Female cadres will take over and oversee the dismantling of the military establishment. Even janitors will be women. President Sanson has indicated she considers this a temporary and necesary measure to assure that a new feminine ethic of caring and solidarity will have a chance to flourish in a country where machismo has historically had the upper hand. Original and revolutionary as it might sound, we cannot but disagree with President Sanson's radical views. In a world popuiated by both men and women, one gender cannot assert itself by eliminating the other. We would hope that the Faguan people -and especially Faguan men- exercise their right to disagree. It would be a sad statement for Faguas' democracy to go from a past of ideological discrimination to an unprecedented form of genre discrimination. The United States whose economic support President Sanson so desperately needs, will certainly not consider this just another antic of her humorous approach to politics.

ترجمة

افتتاحية جريدة نيويورك تايمز[٤]
تحدٍّ جديدٌ من حكومة فاغواس النسائية

في المئة عام الأخيرة، لم تستحق فاغواس سوى القليل من اهتمام الولايات المتحدة. هذا الحال تبدل منذ شهر نوفمبر/ تشرين أول الماضي، حين حقق حزب نسائي، حزب (ح.ي.إ.) الشهير الآن، فوزًا ساحقًا في الانتخابات الرئاسية بتلك البلاد.

تقدم (ح.ي.إ.) إلى المعركة الانتخابية ببرنامج أصيل جدًّا، نسوي ولكنه شامل، يسعى إلى أمومة البلاد، وغسلها وتنظيفها لتصبح متألقة لامعة لا تشوبها شائبة. ونظرًا لسجل الإدارات السابقة المؤسف، يبدو أن الرعاية الأمومية هي بالضبط ما تحتاجه فاغواس، غير أن الرئيسة بيبيانا سانتوس قد أعلنت مؤخرًا قرارها بتوظيف نساء فقط في إدارتها. هذا الإجراء غير المعهود يقر بأن جميع الوظائف في الدولة، ابتداء من أكثرها أهمية حتى أقلها شأنًا، ستشغلها نساء. وسوف تشرف كوادر نسائية كذلك على تفكيك تدريجي للجيش. حتى إن حراسة المباني العامة ستتولاها نساء. وقد صرحت الرئيسة سانسون أنها تعتبر ذلك إجراء مؤقتًا ولكنه ضروري لضمان تمكين أخلاقية نسوية جديدة في الرعاية والتضامن من الازدهار في بلاد مثل فاغواس التي خضعت تقليديًّا

---

(٤) نشر بعد أيام قليلة من المرسوم الرئاسي الذي يعلن أن وظائف الدولة لن يشغلها سوى النساء

للسيطرة الذكورية. ومهما بدت هذه الإجراءات بالغة الأصالة والثورية، فإننا لا نستطيع إلا أن على خلاف مع قرار الرئيسة سانسون الراديكالي. ففي عالم يقطنه رجال ونساء، لا يمكن لجنس منهما أن يعزز مكانته على حساب الجنس الآخر. يطيب لنا أن نفكر ونأمل أن يعمد شعب فاغواس، ولا سيما الرجال، إلى التعبير عن الحق في الاختلاف. وسيكون مصيرًا محزنًا للديمقراطية الفاغواسية الانتقال من ماضي التمييز الأيديولوجي إلى نمط غير مألوف من التمييز في الجنس. إننا واثقون من أن الولايات المتحدة التي تحتاج فاغواس إلى دعمها الاقتصادي، لن تنظر بكل تأكيد إلى هذا الحدث على أنه مجرد دليل آخر على حس الدعابة السياسية التي تميزت بها حكومة الرئيسة سانسون.

إمير

كان إمير مدمن القهوة يرتشف قهوته الأمريكية الساخنة، في الساعة الثالثة مساء، بينما هو يقود السيارة ضمن حركة المرور البطيئة في شارع ماساشوستس في وشنطن العاصمة. وكان مذياع السيارة مفتوحًا على إذاعة إن.بي.آر. NPR، محطة الإذاعة العامة، أفضل إذاعة في العالم، على حدّ قوله. وعبر صوت رينيه مونتاني، مذيعته المفضلة، علم بخبر محاولة الاغتيال. ومثقلًا بدفقة الأدرنالين المفاجئة التي لم تكد تتيح له التفكير، تمكن من الانعطاف عبر أول منعطف يُسمح المرور منه. وأوقف السيارة في شارع جانبي؛ حيث يراكم الخريف الأوراق الذهبية المتساقطة من أشجار البلوط الضخمة على جانبيّ الطريق وفي الأفنية وعلى سطوح البيوت التقليدية بأحياء الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة. لم يُفلت المقود. راح يهزه. لا، لا، بيبيانا لا، غير ممكن، من؟ أي لعين يفكر في عمل شيء كهذا؟

أخرج الهاتف المحمول من حقيبته. كان مطفأً، إنه يطفئه أثناء العمل، وقد كان يعمل في بيته طوال الصباح. حين شغّل الهاتف، وجد كمية الرسائل في صندوق بريده الصوتي، استمع إلى الرسائل. إنها من سيلستي، ومارتينا، وإيفا، وخوانا دي أركو، وكل منهن تكرر الخبر بطريقتها وتكشف تفاصيل أخفتها الأخريات. كان التأثر واضحًا في نبرة أصواتهن. بيبيانا في غيبوبة، في المستشفى، ستستعيد عافيتها، التوقعات ملتبسة، لقد استأصلوا طحالها، المداخلة الجراحية استمرت خمس ساعات، ثقب في الجمجمة، نزيف داخل الجمجمة. كبحَ دموعه. ردّ على

المكالمات واحدة واحدة. خوانا دي أركو كانت في المستشفى، إلى جانب بيبيانا. وحين سمعت إمير انكسر صوتها. قال لها، سأصل على أول طائرة.

وبسرعة لا يفرضها سوى الحب أو الخوف على الكائنات البشرية، أنجز، من بيته، ما هو ضروري في المكتب. استقل رحلة بطائرة لشركة أمريكانا إلى ميامي. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي سيخرج منها إلى فاغواس. كان ذلك المسار هو الوحيد المتوافر.

ست ساعات طيران، وليلة في ميامي. فكر: سوف أصاب بالجنون. سكب كأس نبيذ كبيرًا قبل أن يخرج إلى المطار، وشربه دفعة واحدة، دون أن يلتقط أنفاسه تقريبًا.

لم تكن الاغتيالات السياسية تقليدًا معروفًا في فاغواس. أما الحروب والثورات فكانت شائعة. ولكن إجبار الرجال على الانسحاب إلى بيوتهم كان إجراء متطرفًا في بلد ذي نزعة ذكورية، ويمكن له أن يكون كذلك في أي بلد آخر.

بيبيانا، بيبيانا... بيبيانا النزقة، المتهورة. الحيون الإيروتيكي الأجمل في العالم، امرأته بين سائر النساء. لقد تجرأت على أشياء كثيرة. وكان يمكن له ألا يكون متفقًا معها، ولكنه يعترف بجرأتها، بشجاعتها، يعترف بها بالحماسة نفسها التي ينتقد فيها قراراتها المتسرعة، والتي اعتادت أن تسميها حدس واستشفاف مؤكد. لقد أجازت الإجهاض وشرَّعته، على سبيل المثال. وأطلقت على القانون تسمية: قانون الإجهاض الاضطراري.

جرت المصادقة على القانون بعد أن حصلتْ بيبيانا على أصوات حاسمة من المعارضة؛ إذ تمكنت من إقناعهم بأنه من غير المجدي حظر الإجهاض؛ لأنه سيُمارس في كل الأحوال، وعدم القدرة على إجرائه في

ظروف ملائمة هو السبب في الوفيات التي تحدث. وأن قانون الإجهاض الاضطراري يعد بعدم ترك أي تفصيل دون أن يتقصاه لضمان وجود أسباب اقتصادية، أو تتعلق بخيارات العمل، أو مخاوف بشأن الرعاية المستقبلية للابن، فليس هنالك من امرأة تنظر إلى الإجهاض كخيار ضروري. سنوفر لهن الكثير من الدَلال - أوضحت بيبيانا - لتشعر المرأة، مثلما كان يجب أن تشعر على الدوام، بأن الحمل شيء سيُغني حياتها، ويوفر لها منافع اجتماعية، وليس كأمر سيخضعها للفقر أو يجبرها على التخلي عن خياراتها. ما نحتاج إليه من أجل إلغاء الإجهاض، ليس منعه، وإنما التوقف عن تجريم الأمومة. أما إذا كان هنالك امرأة معرضة لخطر الموت بسبب حملها، أو أنها قاصر مغتصبة، فإنني أقول، بكل أسف، إنها هي من ستقرر بشأن حياتها وحياة الجنين. لا أحد سواها. فالقرار هو دومًا وبشكل مبرم للمرأة؛ لأن جسدها ملكها.

لحسن الحظ أن التغييرات في الكنيسة الكاثوليكية، بشأن العزوبية، صارت تسمح للكهنة بامتلاك رؤية واقعية، وليس بيروقراطية، لضرورات وتحديات الحياة اليومية بين الرجل والمرأة. على الرغم من أنهم ما زالوا يقاومون ترسيم النساء ككهنة، إلا أن النساء موجودات ضمن الكنيسة لأنهن يشاركن في عمل أزواجهن. وهكذا فقد أدانوا القرار، ولكنهم وافقوا ضمنًا على الأخذ بعين الاعتبار الخطة الرائدة التي طرحتها هي نفسها.

تقلص عدد حالات الإجهاض في فاغواس بصورة دراماتيكية. وقد أخضع ذلك النموذج للدراسة كطريق محتمل لحل مشكلة انقسمت بشأنها الآراء لعصور بين الكنائس، وبين النساء أنفسهن بصورة خاصة.

ولكن من الذي يمكنه التأكد مما يجري بين المتعصبين، والأصوليين، والأشخاص الذين لا يترددون، باسم إنقاذ حيوات جنينية، عن حصد أرواح مكتملة، مخلفين بذلك أطفالًا أيتامًا وعائلات محطمة؟

لا يريد إمير التفكير بمن يمكن أن يكون المذنب أو المذنبون. ففي الطائرة، وبينما هو جالس إلى جانب النافذة، بذل جهدًا فريدًا لمراجعة حياته مع بيبيانا. فكر في إغلاق «مختبر الأفكار» الذي يضطره إلى السفر بكثرة إلى واشنطن.

ما زال يديره بحماسة متناقصة أكثر فأكثر، مقتنعًا بأن أحشاء الوحش هي خندق عاجل لصراعات الشمال والجنوب، لاسيما بالنسبة لأمريكا اللاتينية. فالجهل والأحكام المسبقة الشائعة فضائحية، ولأنه صار من المستحيل العمل وفق وصفة نيكولاس غيين الشاعرية القائلة بنقل البلدان الأشد ضعفًا، بقوة التجذيف، بعيدًا عن الجار المتجبر، فقد فكَّر في أن الخيار المتوافر هو محاولة كنس نسيج العنكبوت الذي يحول دون التفاهم. فعدم تعلم التعايش مع الجيران الطيبيين، يبعث على الخوف من أن تنتَهي أمريكا اللاتينية إلى الدوران في الفلك الصيني أو التحول إلى مستعمرة إسلامية. هذه الفكرة ترعبه لأنه يحب أن يكون حرًّا، أن يفكر، وينشر، وينجب ما يرغب فيه من الأبناء، ويكره فكرة النساء الملتفات بالخرق القماشية أو المجبرات على المرور دون أن يُرين. كان واثقًا من أن إمبراطورية في مرحلة انحطاط هي أفضل من أخرى ناشئة، وأن التدين الأمريكي اللاتيني بتعدد طوائفه الصياحة والمنادية بمعجزات مشكوك بها، والراضي عن افتتانه بالزعماء، يمكن له في لحظة واحدة أن يخضع لفتنة المساجد، أو المآذن أو آية الله متدرب مستجد يقرر تخدير الشعوب بأفيون أن الدين هو الطريقة المثلى للوصول إلى الاشتراكية. إنه يفضل بصورة جازمة الأسلوب الغربي، ولكنه كان شريكًا وداعية ومؤمنًا مخلصًا بنظرية التناقص، وبالأطروحة الهدية الأمومية، وقد

انتهت تجربته في (ح.ي.إ.) إلى إقناعه بأن حجر الفلاسفة الاجتماعي والاقتصادي الذي سينقذ العالم من نفسه سيأتي من ميدان النساء.

يجب أن تظل بيبيانا حية. ولسوف ينتزعها هو نفسه من الموت، حتى لو اضطر إلى النزول إلى الجحيم نفسه من أجل استعادتها.

الشَّال

تساءلت بيبيانا عما إذا كانت الجولة التي تقوم بها في ذكرياتها ليست سوى طقسًا عليها استكماله قبل أن تتجسد مجددًا في جسد آخر (لأنها لم تكن تعلم في الحقيقة إذا ما كانت حية أم ميتة). المفاجأة بأن الأمر مرتبط بتنظيف الكارما الخاصة بها جعلها تفقد القدرة على التوجه. وجدت نفسها أمام الرف الأيمن دون أن تدري كيف وصلت إلى هناك. أيكون أنها قد أصابت في التفكير بالتقمص؟ تذكرتْ بصورة مبهمة كتب المعتقدات التيبتيه التي كانت تقرؤها في سنوات مراهقتها. لا يمكن للمرء أن يعرف بأي صورة سوف يتجسد كما تؤكد تلك الكتب. ماذا لو تجسدتْ في صورة حيوان ما؟ لا، قالت متوسلة، رجاء، لا. صحيح أنني أحب الحيوانات ولكنني أريد التكلم.

ركزت انتباهها على الأشياء الموجودة. لا تستطيع أن تصدق كمية الأشياء التي أضاعتها. لا يمكنها أن تتذكر بعض تلك الأشياء بأي حال. مفاتيح قديمة، على سبيل المثال. تمر عليها مرورًا عابرًا. ومع ذلك، رأت إلى جانب حفنة مفاتيح ذلك الشال البديع الهندي، المطرز، البرتقالي والأصفر والبني الذي أرسله إليها إمير كهدية قبل أيام قليلة من تسلمها منصب الرئاسة. لم تسامحه بعد لأنه لم يكن معها يومذاك، ولكنه ألح على أنه لا يستطيع التخلف عن التزام له في نيودلهي.

- لا يروق لك أن تكون أميرًا قرينًا/ زوج الملكة. هذه هي الحقيقة؛ لأنك لا تعود بذلك رجلًا.

- لا. لا شيء من هذا. الفكرة تفتنني. ولكنني التزمتُ منذ عام بهذا الاجتماع، وأنا المنسق فيه، إنه نتاجي. لا يمكنني التخلف. ثم إن هذا اليوم سيكون يومكِ أنتِ. تدينين به لنفسك فقط.

تناولت بيبيانا الشال ورفعته إلى وجهها كي تشعر بالحرير على خدَّيها. فاجتذبت الرائحةُ الذكريات طازجة. أغمضت عينيها مستمتعة بالإحساس، بلا معقولية امتياز أن تعيش تلك اللحظة مرة أخرى. لقد أخذت الشال إلى حفل الاستقبال في تلك الليلة كي تغطي كتفيها العاريين. متنازلة لجانبها العاطفي ومفكرة بأنه أينما يكون إمير، سوف يرى الصور في الصحف، وفي أخبار التلفزيون. وعلى الرغم من أنها كانت مستاءة منه، إلا أن الأقوى من ذلك هي رغبتها في أن يكون معها في تلك اللحظات، كتميمة تجلب لها حسن الطالع.

لدى ملامسة الشال، استعادت اللحظة، رأت نفسها تعود إلى بيتها في تلك الليلة، دخلت على رؤوس أصابعها وأطفأت الأنوار. إنها نزوة سيليستي بترك الأنوار مضاءة. أغلقت باب حجرتها. أحست بالسعادة لأنها وحيدة. لا يمكن مقارنة ما كانت تشعر به إلا بما شعر به يسوع حين مشى على الماء. ولكنه لم يعانِ بالطبع آلامًا في قدميه مثلما تعاني هي الآن، بعد ساعات طويلة أمضتها على الكعبين العاليين، ولكنها لا تشك في أن المشي على الماء قد أخافه بقدر ما أخافها الإحساس بأنها قد أصبحت، دون أي شك، رئيسة البلاد. استذكرت ألق (ذلك) النهار، السماء الخالية من أي غيمة، الجموع الشبيهة بلوحة موزاييك سائلة بألوان كثيفة متموجة تحت الشمس، ضجة الآلاف يتفاعلون مع كلماتها، هدير التأييد، الضحكات، ابنتها تلتصق بها عندما نزلت عن المنبر؛ وفي

الليل رؤية مجلس (ح.ي.إ.) يستقبل المدعوين، جميعهن يرتدن أثوابًا محكمة من قماش سندسي، تنتهي بقطع مستو عند الصدر وكتفين عاريين. الألوان وحدها هي التي تمييز بينهن. أجل، لقد استمتعت وهي ترى ردّ فعل السفراء والسياسيين والشخصيات الأخرى أمام تلك الأزياء! لم تعد تتذكر لمن منهن خطرت تلك الفكرة، ولكنهن جميعًا اتفقن على أنها فكرة ليست لطيفة وحسب؛ بل هي عميقة الأثر رمزيًّا. فعلى العالم - أو العالمة (بالتأنيث) مثلما تقول مارتينا - أن يجد شيئًا أكثر من الأثواب للمفاضلة بينهن.

أقيم حفل الاستقبال في قصر فاغواس الرئاسي غريب المظهر، والذي بني في القرن العشرين خلال رئاسة إولوخيو سانتييّانا. هذيانات عظمة هذا الرئيس التي تتناسب عكسًا مع ضآلة قامته وعدم تناسق جسده، جعلته يأمر ببناء قصر رئاسي ضخم. ويضم «الرئاسي»، كما يسميه الشعب، نسخًا مقلدة عن أبرز القاعات والصالونات التي بهرت ذلك الرئيس المنتخب حين سافر إلى أوروبا قبل أن يتولى منصبه.

المكتب الرئاسي، وهو القاعة الأهم، يشكل نسخة متقنة عن المكتب البيضاوي في البيت الأبيض بواشنطن.

على الرغم من احتوائه تلك الغرائب: قاعة طعام تحاكي قاعة الطعام في قصر الإليزيه بباريس، وقاعة استقبال على طريقة تلك التي في داوننغ ستريت بلندن، ومكتبة مماثلة لمكتبة قصر مونكلوا بمدريد، وقاعة للسفراء هي نسخة قاعة قصر كويرينال الإيطالي، فإن «الرئاسي» يضم كافة المكاتب والمنشآت التي يتطلبها التحكم بمصائر البلاد. وهو مكيّف، ومزود بزجاج مصفح مدخن، واتصالات من خلال حزمة عريضة وستالايت، وقاعة مؤتمرات، وصحافة وحجرات ترجمة، وقد أمضى ذلك البناء الفيلي الضخم عددًا لا بأس به من السنوات لا يشغله سوى

العاملين الأمنيين وعدد من الطيور التي وجدت، بطريقة خفية، الطريق إلى داخل القصر وبنت أعشاشها فوق أفاريز ستائر الصالونات. وقد حدث، بعد إدارة سانتييّانا، أن وصل إلى السلطة زوجان فريدان مارسا الحكم ثنائيًّا، ليس على الرغم من أن أحدًا لم ينتخبها هي، وإنما كذلك في مخالفة للدستور الذي يحظر على الزوجات شغل مناصب عامة. القرار الأول الذي اتخذته الوجه الآخر للرئيس هو رفض شغل البناء الكبير المخصص للسلطة التنفيذية للأمة. فبناء على نصيحة سحرة باطنيين تثق بهم، توصلت إلى نتيجة أن أجواء المكان ملوثة وأن هذا هو السبب في أن اثنين من أبناء سانتييانا قد ماتا بصورة تراجيدية خلال فترة حكمه. ولم تأخذ في الاعتبار أن الميتَيْن قد حدثتا بعيدًا جدًّا عن البناء، ولا صرخات المعارضة ووسائل الاتصال القائلة إن ذلك ليس تبذيرًا، وإنما جريمة بحق الوطن إجبار بلد فقير مثل فاغواس على تحمل نفقات نقل المقر الرئاسي. لم يول الرئيس اهتمامًا للجدل، وخضع لآراء زوجته، وظل خلال سنوات ولايته يُصَرِّف الأمور من منضدة الطعام في بيته، واستقر فريق عمله في أرض حديقته، تحت مظلات مرتجلة من القماش المشمع. وعزا إلى ماضيه الحربي إحساسه بالراحة في ذلك المعسكر، ولكنه حين أنهى فترة رئاسته، كان بيته، ومكتبه، وكل ملحق أمر ببنائه يحتل حيًّا بكامله من المدينة، تحول إلى حصن بسور وبوابة، وحتى مع خندق حوله على طريقة العصور الوسطى.

لم تشأ بيبيانا سانسون الاقتداء بمثال الغالي والغريب هذين الزوجين الغالي؛ فما إن جرى انتخابها رئيسة حتى استردت الصالونات والقاعات الرئاسية من الطيور، وأمرت بإصلاحه وتعديله بأسلوب بسيط، وأعادت تأهيل طابقي المكاتب. وأعلنت أنها تجد نفسها على ما يرام في بيضوية

مكتبها. وقالت مازحة للصحفيين: لا أدري إذا كانت فاغواس ستتحول إلى إمبراطورية، ولكن لديها على الأقل مكتب بيضاوي لتكون كذلك.

قبالة مرآة غرفتها، نظرت بيبيانا إلى انعكاس صورتها قبل أن تخلع ملابسها وابتسمت. ستكون طويلة مهمة تعديل أساليب تصريف الأمور، لكن الحملة الانتخابية أثبتت أن الناس يتجاوبون جيدًا مع ما هو غير متوقع. لم تخطئ حين فكرت أنهن سيتوصلن إلى حلول صحيحة لما كن يطرحنه بسخرية، ولا حين افترضت أن للغة الأمومة جذورًا لا يمكن تخيلها. لقد كانت تميل بفطرتها إلى احتضان الناس. تتكلم إليهم كأبناء مبذرين رجعوا إلى حضنها ولا تجد غضاضة في الانضمام إلى المتطهرين بالبكاء في اجتماعات يتساءل فيها رجال ونساء باكين، من أين جاءوا بالقوة لتحمل سنوات الأحزان والحروب، والكوارث، والحكومات السيئة. وينتهي بهم الأمر إلى عناق بعضهم بعضًا والبوح بمصائبهم. وجهت المعارضة إلى (ح.ي.إ.) تهمة أنه يعقد اجتماعات ساحرات، مؤكدة أن أقل ما يجري الحديث عنه في تلك الاجتماعات هو السياسة. «لقد كانت الأمور على هذا النحو دومًا ـ خرجت بيبيانا لتقول هذا في برنامج الطبخ الأوسع شهرة، في محطة التلفزة التي بدأت نجوميتها فيها:- عندما لا يفهمون ما نفعله، يتهموننا بأننا ساحرات أو عاهرات. الحقيقة هي أسهل بكثير، ما يهمنا هم الأشخاص. ومنذ زمن صار الشأن الشخصي سياسيًا في هذا العالم، وإذا أراد الناس البكاء معي، لا أكتفي بتقديم كتفي لهم؛ بل إنني أبكي معهم، البكاء جيد، ونحن في هذه البلاد نحتاج منذ زمن إلى "جولة بكاء طويلة". آه، يا للخطبة الجيدة التي ارتجلتها أمام الكاميرات بينما هي تحضّر وصفة الفلفل الحار مع اللحم في فقرة البرنامج الذي تتقاسم فيه شخصيات من الحياة العامة الوطنية أطباقها المفضلة مع مشاهدي التلفزيون.

اجتازت الحجرة حاملة الحذاء بيدها كي تضعه في خزانة الأحذية. ثم أخرجت الأشياء بعد ذلك من حقيبتها اليدوية. نظرت إلى المرآة. وكان أن انتبهت عندئذ - لشعورها بقليل من البرد - إلى افتقادها الشال. لقد نزعته عنها كيلا تبدو مختلفة عن الأخريات. أين وضعته؟ لم تتذكر. ولم يكن ذلك مستغربًا. فقد تلقى الأهالي بطاقات حضور الاحتفالات بالتناوب. وكان حدثًا واسع الحضور، ولا ينعدم في هذه الأحوال من يأخذ تذكارًا يخص الرئيسة؛ وقد لقي شال بيبيانا المصير نفسه الذي لقيته الزهريات والأطباق والكؤوس التي اختفت في تلك الليلة.

إصلاحات تربوية

يستند هذا الإصلاح التربوي إلى الدراسات التي تشير إلى أن الأطفال والطفلات يطورون مهاراتهم، وميولهم، وفضولهم بطريقة أكثر صحية ومردودًا إذا ما تلقوا، خلال السنوات الأولى من حياتهم، تعليمًا مفتوحًا يتيح لهم تعلمًا ذاتيًّا بما يتفق مع ميولهم. على قاعدة روح مفتوحة، يتعلم الأطفال والطفلات ما يبدو لهم مفيدًا لسعادتهم ومواهبهم الفطرية. وعلى هذا الأساس، تتولى المدرسة الإعدادية، ابتداء من سن الثانية عشرة، استكمال الجزء الرسمي من تربيتهم، من دون حالات الصدود والإحباط المعهودة حين تفرض صرامة خطة أكاديمية منذ سن مبكرة.

١. منذ سن الخامسة حتى الثانية عشرة تتولى رعاية الأطفال والطفلات مدارس حرة تقام في الأحياء وفقًا لعدد السكان. في هذه المدارس، وبعد انتهاء المرحلة الأولى من تعلم القراءة والكتابة، تقدم للتلاميذ «قائمة وجبات تعليم» في ميادين الآداب والعلوم والرياضيات ومعارف متنوعة. وللطفل أو الطفلة الحرية في أن يختار خلال اليوم الموضوعَ الذي سيكرس له وقته في نظام القاعة المفتوحة؛ حيث يتواجد معلم أو اثنان مشرفان من أجل توجيه ومساعدة الأطفال أو الطفلات أو مجموعات منهن لتنفيذ نشاطات يرغبن في تنفيذها: مطالعة، استخدام أجهزة الكمبيوتر للدخول إلى البرامج التعليمية التي يفضلونها، ممارسة أعمال يدوية أو مشاهدة برامج تربوية. يرتاد الصغار المدرسة منذ الساعة الثامنة حتى الخامسة مساء، ولكنهم يستطيعون العودة إلى بيوتهم

في الساعة الثانية بعد الظهر، إذا طلبت الأم ذلك أو الأب أو الشخص المكلف بهم.

٢. عند إتمام السنة الثانية عشرة من عمرهم، ينتقل الصغار إلى مدارس التعليم الرسمي من أجل إكمال تعليمهم عبر منهاج نظمامي يتضمن: معرفة في اللغة، الأدب، التاريخ، العلوم، الرياضيات، الجغرافية، التربية المدنية والأمومة. هذه الدروس تعطى في قاعات مغلقة وفقًا للنظام التعليمي التقليدي وضمن البرنامج الذي تقره وزارة التربية.

دفتر الملاحظات

وجدت بيبيانا تحت الشال دفترَ ملاحظات قديم. قرأت الجمل الأولى المكتوبة بخط يدها، وأحست بسعادة عظيمة. إنها ملاحظات عن اجتماع المجلس الموسع لحزب اليسار الإيروتيكي الذي عُقد في تلك اللحظة الحاسمة من ولايتها، حين أمرت بإبعاد الرجال عن شؤون الدولة.

في القصر الرئاسي، بالمدينة، كانت الأجواء في الصباح مشحونة؛ كما لو أنها تسجل حالة السكان المعنوية. وكانت السماء كذلك قد استيقظت غائمة بكثافة، مع توعد بهطول المطر.

أرسلت إيفا تعزيزات شرطية لحراسة المقر الرئاسي. وألقت بيبيانا خطبة حماسية بالضابطات والفتيات في فناء المقر. سيكون يومًا صعبًا، قالت لهن، ولكنها تثق بهن. وتأمل أن يُحسِنَّ استخدام العقل أكثر من بناطيل الزي العسكري. وتعتقد أنه سيكون من الضروري اللجوء إلى استخدام مسدسات «التيزر»، وهذه أجهزة تُحدث صدمات بشحنات كهربائية.

- ابتَسِمْنَ للرجال وساعدنَهم على إخراج أشيائهم الخاصة من المكاتب - قالت.

لقد كانت هي ومعظم العاملات في مكتبها يعانين من تأثير السهر والجدال مع أزواجهن خلال الليلة الفائتة.

مركز الهاتف وموقع الويب الرئاسي كانا متخمين بالمكالمات والرسائل، سواء من رجال ساخطين أو من نساء يطلبن متوسلات ألا

يرسلوا لهن الرجال إلى البيوت. ويتساءلن: ما الذي سنفعله بهم؟ سوف ينتهي السلام عندنا.

أما إمير الذي كان يمضي منذ أيام مطأطئ الرأس حيال إصرار بيبيانا على إعلان حكم النساء من أجل إنقاذ رئاستها من داء الوسطية والتفاهة؛ ففقد سكينته، وأعدّ في الليلة الماضية حقائبه، بحركات دراماتيكية، من أجل عودته إلى واشنطن والابتعاد عن تلك المغامرة الكيخوتية التي ستنتهي به، على حدّ قوله، مثل غيرها من المغامرات، إلى القبول صاغرًا بعلك أحجار بأسنانه.

- وقد كان في هذه المرة على الأقل حجرًا من لحمهن، لا يمكنني التذمر - قال.

لم تستطع بيبيانا أخذ كلامه على محمل المزاح؛ فقد كانت متوترة وغاضبة، والأدهى أنها في دورتها الشهرية، فاحتجت لأنه لا يثق بغريزتها السياسية.

- إنني واثقة من أن الأمر سينجح يا إمير. إنها إشارة مؤكدة لعملية تغيير لا رجعة عنها؛ ستكون درسًا من تلك الدروس التي لا يمكن تعلمها إلا من خلال الممارسة. للسلطة علامات ذكورية، والرجال بحاجة لأن يعيشوا بتجربتهم الخاصة ما يعنيه وجود فئة مهمشة، يتخذ الجنس الآخر القرارات بدلًا منها. أضف إلى ذلك أنها الطريقة الوحيدة لجعلهم يختبرون الحياة المنزلية كواقع.

- لم أكن راغبًا في قول هذا، ولكن يبدو لي أن نشوة السلطة قد أدارت رأسك. أسوأ ما يمكن أن يحدث لك هو أن تعتقدي أن الإكراه سلطة.

- لقد كان كذلك، فالسلطة تسلط، وتجارب الطفولة مدرسة جيدة، وعلى الرغم من كل شيء، انظر كيف جعلتنا نصل إلى ما نحن عليه.

- المعذرة، ولكنني كنت أظن أن الهدف من هذه الممارسة هو تغيير طبيعة السلطة.

- أجل، بالضبط. وستكون الآن سلطة نسوية.
- هذا لا يعني أي تغيير. وإنما هو استبدال، حلول سلطة محل أخرى.
- لا تلعب برأسي يا إمير. نحن لم نطرح الفوضوية الأناركية قطّ، ولا نهاية الدولة. الفكرة هي تغيير طبيعة السلطة. وسوف نفعل ذلك، لكننا لا نستطيع تحقيقه إذا ما ظللنا مجبرات دومًا على العمل ضمن الأطر نفسها.
- وضعُ بعض الرجال حكمة قراراتك موضع الشك لا يعني أنهم يجبرونك على التصرف ضمن الإطار نفسه. أنتن لديكن فكرة ثابتة، ولستِ مستعدة للتخلي عنها.
- لا بأس، إذا أردت مني أن أخبرك بالحقيقة، فإنني أتصرف غريزيًّا. غريزتي تقول لي، حين أنظر إلى وجوه النساء الأخريات وهنّ يتكلمن عن رجال، إن هذا البناء الذي نحمله متوغلًا في أعماقنا لن يتراجع إلا بالديناميت. فرجل موجود في المكتب، يبدل إلية المكتب كلها. أنت لا يمكنك أن تفهم هذا لأنك لم تعشه قط. وربما أنني أنا أيضًا لا أستطيع شرحه، ولكن الجسد يخبرني به. وأوافقك الرأي: إنني أتصرف كامرأة، استمع إلى صوت لا يأتي من الرأس، وإنما من إحساس كلي، من ذلك الشيء الذي لا أعرف من سماه **الذكاء الانفعالي**.
- سأجيبك بأفضل عبارة قالها هنري كيسنجر: «لا يمكن أن تكون هناك معركة بين الجنسين لأن ثمة مواجهة أكبر مع العدو». ما تردنه أنتن هو إلغاء هذا التعايش، أليس كذلك؟ ماذا ستكسبن من ذلك، حتى مع افتراض أنكن على حق؟ لا يمكن لكنَّ إبقاء الرجال على الهامش إلى الأبد. هذا عبث.
- أتدري ما الذي سنكسبه؟ الثقة بأنفسنا. هذا هو ما سنكسبه. هذه هي المعركة الأشد ضراوة بالنسبة لنا نحن النساء. منذ طفولتنا يدربوننا على

الشك بوجهة نظرنا لأنها انفعالية، حساسة، ذاتية، تفتقر إلى العقلانية. أنا أريد من النساء أن يدركن أنهن حكيمات، يمكن لهن أن يكن حكيمات في إدارة البلاد مثلما هن حكيمات في إدارة البيت. هل هذا واضح؟ كفى. إنني متعبة. لا أريد مزيدًا من الجدل. أغلقت أذنيها ودخلت إلى الحمام صافقة الباب وراءها. أمضيا الليل قلقين، دون أن يناما ودون أن يتكلما.

في ذلك الصباح ارتدت بيبيانا ملابسها بسرعة، وبها رغبة في البكاء. تركت إمير نائمًا. وبعد قليل من وصولها إلى مكتبها، دخلت عليها مارتينا.

- فنجان قهوة يا خوانيتا - قالت حين مرت بمنضدة هذه الأخيرة، وشدتها من أذنها بتحبب.

- باعتياري وزيرة الحريات غير المشروطة، أيتها السيدة الرئيسة - قالت بينما هي تتقدم لتجلس قبالة مكتب بيبيانا -، عليّ أن أخبرك بأنه لدي طلبات لتنظيم تظاهرات ولتشكيل، فلنر - قالت وهي تُخرج أوراقًا من حقيبتها - المنظمات المدنية التالية: جمعية الرجال الأحرار وجمعية الذكور المنتصبين الأحرار المتحدين.

- دعك من المزاح يا مارتينا. فالوقت غير مناسب لذلك.

- ليس مزاحًا - رفعت الأخرى الصوت - إنه حقيقي. وقد منحتُ تصريحًا للجمعيتين.

دخلت خوانا دي أركو حاملة فنجان القهوة، ووضعته أمام مارتينا.

- شكرًا - قالت لها هذه الأخيرة.

- مارتينا - قالت بيبيانا، بعد أن أغلقت خوانا دي أركو الباب - كيف ترين خوانيتا؟ يقلقني كونها شديدة النضوج. إنها لا تخرج، لا تلهو.

- إن لها عالمها يا بيبيانا، تعيش في رأسها؛ تكتب، تقرأ. إنها على ما يرام، هذه رؤيتي لها. أي أهمية ستجدها في الجنس أو في الرجال؟ إنها تعيش بطمأنينة معي. هذه هي الابنة التي حلمت بأن أنجبها.

- ما الذي سيحدث اليوم برأيك؟

- اهدئي أنت أيتها الأم الكبرى. لن يحدث أي شيء. فالرجال لا حماسة لديهم الآن للمماحكات. وهم سيأخذون النقود. فضلًا عن أنهم واثقون من أننا بعد أقل من ستة شهور سوف ننفجر باكيات ونطلب منهم العودة إلى وظائفهم. اطمئني، هل سمعتني؟ لن تندمي على ما كنت ترغبين في عمله لوقت طويل. إذا كانت حاسة شمك تخبرك بما يجب عمله، فلنبدأ بعمله. الخطأ أفضل من أن نبقى نتساءل إلى الأبد عما كان سيحدث لو أننا تجرأنا على العمل.

- معك حق - قالت، ثم أضافت :- إمير سيغادر.

- أستغرب ذلك. ليس هذا طبعه. ما الذي يريده أكثر من أن يكون شاهدًا على حدث تاريخي كهذا؟ ولكن إذا ما ذهب، فيجب أن تتصرفي وكأن شيئًا لم يحدث. إنه يحبك ولن يذهب لوقت طويل.

- لقد اعتدت على رفقته. وصرت أخشى الوحدة.

- الوحدة القوادة. ولكن انظري كم من الجرائم ترتكب باسمها، كم من الناس لا يختارون حياة بائسة لمجرد تجنبهم مواجهة الوحدة.

- وأنت يا مارتينا؟ ألا تحتاجين لصديقة لكِ؟

- غريب عليّ أن يقال لي هذا لأنه كانت لدي صديقات على الدوام، ولكن منذ عودتي بدأت هذه المشاغل تسممني؛ إنها أشبه بمخدر. لا ينقصني أي شيء. فبمحبة خوانيتا ومحبتكنّ جميعًا أجد ما يكفي ويزيد. لا بد أن مفعول البركان قد أثر عليّ - قالت مبتسمة -؛ ربما خلال بضعة شهور سأخرج منفلتة بلا ضابط، أصرخ عارية في الشوارع، أما الآن فلدي كل الاستثارة والسعادة اللتين أحتاجهما.

خرجت مارتينا ودخلت خوانا دي أركو مجددًا إلى المكتب. نظرت إليها بيبيانا. رأت عينيها لحادتين الذكيتين. إنها لا تتوقف عن الإعجاب بتحول باتريثيا إلى هذه المرأة الشابة الخبيرة المجربة.

- أيتها الرئيسة - قالت لها -، أرجو أن تعذريني إذا كنت أوجه إليك أسئلة مزعجة، ولكن، من سيحل محل الرجال ويقوم بعملهم؟

- هذا ما نحن فيه، لا تتراخي. اليوم، في الساعة السادسة، سندعو إلى اجتماع هنا لمجلس (ح.ي.إ.) ولقائمة النساء القياديات في المجلس الاستشاري. عليك أن تخبري إيفيخنيا أنه عليها أن تطلب من القناة الوطنية للإذاعة والتلفزيون حجز وقت بث غدًا الساعة الثامنة صباحًا. سوف أوجه رسالة إلى الأمة.

- سأخبرها فورًا. وبالمناسبة: يتهاطل مطر طلبات لمقابلات من وسائل اتصال محلية ودولية.

- فلتنظر إيفيخنيا إذا كان علينا أن نعقد مؤتمرًا صحفيًّا أم نجري مقابلات فردية.

في الساعة السادسة مساء، رأت بيبيانا غروب شمس ذلك اليوم من مكتبها. إنها تحب رؤية غسق فاغواس. إنه بديع، ولاسيما في الشتاء. الغيوم الهائلة تطفو بلا وزن متلاعبة فوق البحيرة.

جسدها يؤلمها من التوتر والتعب، ولكنه لا يبدي اختلالات وهذا خبر طيب.

كانت إيفا أول الواصلين. جاءت ترتدي الزي العسكري كاملًا. تهاوت على الصوفا.

- لقد صرتُ بلا جنود - قالت -. جرت محاولة تمرد في أحد المعسكرات، لكن الجنرالات النساء تصرفن على مستوى الحدث. لحسن الحظ أنه ما زالت هنالك نساء في المراتب القيادية. إنهن كثيرات في الحقيقة، ولكنهن يعملن في مهمات إدارية. لن أتمكن أبدًا من فهم الرجال. كم أوجعهم اضطرارهم إلى التخلي عن أسلحتهم الفردية النظامية! أكثر

من واحد منهم خرج من هناك باكيًا. الأسلحة ظلت في الأفنية؛ جبل من الحديد القاتل. لقد شعرتُ برغبة في إطلاق النار عليهم. حين يفكر أحدنا بكمية الأموال التي تُهدر على ذلك كله... ولن أحدثكِ عن نظرات الحقد التي وُجهت إلي. لا بد لي من الاستحمام في القرفة، مثلما كانت تقول أمي، كي أنزع عني الإصابة بعين الحسد. أما رجال الشرطة فقد شعرت بالحزن لرؤيتهم يغادرون. أنتِ تدركين أن موجة سرقات وجنايات ستجتاحنا، أليس كذلك؟

ـ أجل، أدرك ذلك جيدًا. ولكنها لن تستمر طويلًا.

ـ لحسن الحظ أن لدينا شيئًا مسبقًا من الدورات التدريبية للشرطيات ـ قالت ذلك وهي تُخرج مبردًا لإصلاح حال ظِفر مكسور ـ آمل ألا نكون قد أخطأنا في إقدامنا على هذا العمل.

جاءت ريبيكا ومارتينا وإيفيخنيا معًا. أخبرتهم خوانا دي اركو بأنهم يجهزون قاعة المؤتمرات وأن المجلس الاستشاري بانتظارهن.

ـ وصلت صوفيا مونتينغرو ـ قالت بوجه طفلة في عيد الميلاد ـ، ثم جاءت دونيا يفون، ودونيا أولغيتا، ودونيا ألبا، والشاعرة، ودونيا مالينا، ودونيا ميلو، ودونيا آنا بيلما، ودونيا لودريس، ودونيا ريتا.

المؤسسات الأصليات للحزب اليساري الإيروتيكي صرن عجائز. كثيرات منهن كنّ مشهورات في فاغواس؛ إذ إنهنّ مناضلات جريئات من أجل حقوق النساء. وقد كانت مونتينغرو مُنظرة قرأنها جميعهن حتى الإنهاك في أيام تأسيسهن (ح.ي.إ.) وقد كانت بلاغتها أسطورة مدينية.

فور دخلولهن قامت مونتينغرو بمعانقتهن واحدة فواحدة، وعلى الرغم من أنها كانت تستند إلى عكاز، إلا أنها بدت قوية وبعينين لامعتين.

ـ أنتن حققتن أحلامي كلها ـ قالت مبتسمة ـ لقد صرت أعرف الآن على الأقل أنني لن أتململ في قبري.

استمر الاجتماع حتى الفجر وكان لقاءً وصدامًا بين أجيال. المتقدمات في السن طلبن من الشابات ألا يُعدن النسوية إلى تعريف نفسها بالأنثوية. لحسن الحظ أن جدول الأعمال لم يكن يتسع لمناقشات نظرية من هذا النوع، حسب ما قالت بيبيانا مستخدمة سلطتها. إلا أنه لم يكن هنالك مفر من خوضهن نقاشًا حول دلالة المقدس والدنيوي في اللحظة التاريخية التي يعشنها. أما أعقد جدال فتركز على كيفية تحقيق وعد حملتهن المركزي بتحويل عالم العمل كي يتضمن الإطار الأسري. بدا لبيبيانا أنه يمكنها سماعهن يفكرن لأن ذلك هو ما يحدث لها بالذات: فعندما تحين ساعة الحقيقة يكون من الصعب الخروج من العادة، مما شاهدن الحكومات والوزراء يفعلونه طوال حيواتهن. فرفعت يدها فجأة، وحركتها في الهواء بحركة تعني سوف يُمحى كل شيء، سنمحو كل شيء، ليس هذا هو السبيل. وعدن للبدء من جديد. كانت خوانا دي أركو، في الركن، تنقر بأصابعها على لوحة المفاتيح بنزق، وتذهب بين حين وآخر وتعود حاملة قهوة وبسكويت. قالت مونتينغرو إنه من الضروري التفكير بما نعنيه بالأسرة، وأنها تقترح أن يفكرن بالنساء حسب تصنيفهن: متزوجات لهن أبناء، أمهات مثليات، أمهات عازبات، نساء بلا أبناء. إذا كن يتكلمن عن دور الحضانة، فما هي أهمية التوجيه الجنسي؟ تساءلت إيفيخنيا؛ فأي رجل أو امرأة له أبناء سيتمتع بالحق في الدخول إلى دار الحضانة. المشكلة ليس في دور الحضانة وحدها؛ المشكلة هي الوقت مع الأطفال، قالت ريبيكا التي هي أم لتوءمين ذكرين في الخامسة من العمر. والطلبات، قالت إيفيخنيا (لها طفل في الخامسة وطفلة في السادسة). وكان حلمها أن توجد أيضًا ـ حيث يوقف المرء سيارته من أجل المشتريات ـ مواقف أخرى يُترك فيها الأطفال تحت

الرعاية بينما يذهب المرء لإنجاز أموره. فقالت بيبيانا: لهذا السبب وجد الأب. يبدو أننا ما زلنا نفكر كما لو أن الآباء لا علاقة لهم بهذا الأمر.

ـ أقترح أن نقوم بإعداد تحقيق إحصاي بين زوجات المفصولين من العمل من أجل تحديد أي النساء لديهن ميول أمومية من تلك التي تستمر طوال اليوم، وأيهن أنهين دراسة جامعية ولا يمارسن المهنة التي درسنها لعدم وجود من يهتم بالبيت وبرعاية الأبناء. أنا وإيفي سوف نحل مسألة التناقض: أمومة ـ عمل، مع صديقتين لديهن فائض من الميول الأمومية. سوف نرتب حيزًا مناسبًا في بيت واحدة منهما ونترك الأطفال هناك. وسندفع مقابل الرعاية بالتساوي بيننا ـ قالت ريبيكا.

ـ وماذا عن الرجال؟ ـ قالت دونيا ميلو.

ـ باتباع هذا النموذج أو شيء مشابه له، سوف نوفر للرجال المواد الأولية اللازمة من أجل بناء أو تأهيل الأمكنة المخصصة لرعاية الأطفال في بيوت «الأمهات المتطوعات» (سواء أكانوا رجالًا أو نساء). أنا أطلق تسمية أمومة على من يتولى رعاية الأبناء، ولكننا سنوسع الاصطلاح ليشمل الرجال والنساء ـ قالت ريبيكا ـ. يجب الفصل بين وظيفة رعاية الأطفال والجنس المؤنث.

ـ ويجب أن تدفع أجور هذه «الميول الأمومية» ـ قالت دونيا أولغيتا.

ـ وماذا عن المؤسسات الخاصة؟ ـ تدخلت دونيا مالينا التي كانت تغفو للحظات وتستيقظ.

ـ سنمنحهم ثلاثة شهور لتأهيل رياض أطفال في الشركات. وسوف نقدم إليهم المواد الأولية بناء على التكاليف والمخططات، وسوف نعفيهم من الضرائب مقابل هذه النفقات ومقابل مواصلة صيانة المكان ودفع أجور العاملين فيه. وإذا لم يلتزموا الإنجاز خلال ثلاثة شهور، سيفرض عليهم دفع غرامات عالية. وسنقدم إليهم حوافز ضريبية أخرى تتناسب

مع عدد النساء اللاتي يوظفونهن. فالنقود هي التي تتكلم في الشركات الخاصة... وانظري إلى الولايات المتحدة حيث الأثرياء (كأشخاص أو مؤسسات) هم أكبر رعاة الفنون؛ لأنهم لا يدفعون ضرائب عن تبرعاتهم - قالت بيبيانا.

هنالك أمور ثلاثة، قالت إيفي، وهي أمور تبدو لها جوهرية كي تتمكن النساء من الانتقال حقًّا إلى عالم العمل: رياض الأطفال، حجرات الإرضاع في أمكنة العمل، وحجيرات الأمومة. فسألتها ريبيكا: وما هو هذا؟ فقالت إيفي إنها فكرة منها، مثل فكرة مواقف السيارات، وتتمثل بإنشاء سلسلة حجيرات منفصلة عن بقية المكتب؛ حيث يمكن لمن يرغبن في وجود أبنائهن بقربهن للحظات أن يفعلن ذلك دون إزعاج الآخرين. هذا ما لا يمكن أن تحققه سوى شركات قليلة في فاغواس، قالت بيبيانا. ولكنها فكرة جيدة. المسألة هي في كيفية إقامة ذلك كله في بلد فقير، قالت ريبيكا؛ لأن الأمر لا يقتصر على بناء دور الحضانة، وإنما كذلك جهاز الموظفين الذي سيخدم فيها. إذا ما تعمقت في التفكير فستجدين أنه استثمار غير مبالغ فيه، قالت بيبيانا، وهو مصدر توظيف هائل لأنه بإمكاننا أن ندرب خلال ثلاثة شهور أعدادًا كبيرة من الرجال والنساء للعمل في دور الحضانة، وأن ندرب كذلك دفعة أخرى من المشرفات والمشرفين.

- علينا رفع المشروع إلى الجمعية - قالت إيفي.

- آه، الدكتاتورية! - قالت بيبيانا.

إنهن لا يعرفن كم يغويها تجاوز كل تلك القيود القانونية، وأن تأمر وتتحكم فقط كإمبراطورة رومانية.

- لم أتصور قطّ أنني قد أتوصل إلى فهم الدكتاتوريين - قالت ضاحكة.

- لحسن الحظ أننا معك - قالت ريبيكا -، وإلا كنت ستأخذين بنسيان كونك دكتاتورة.

بدا على المستشارات المسنات أنهن قد استعدن الحياة حين جرى الحديث عن الدكتاتورية. يجب ألا يحدث ذلك ولا بأي حال. فهن لديهن تجربة مع الدكتاتورية، وهذا أسوأ ما يمكن أن يحدث. مع أنهن كن يعتقدن أن الأمور تمضي على ما يرام.

وعن كيفية دعوة النساء للانضمام إلى العمل، كان موضوعًا آخر للنقاش.

- بإعلانات - قالت برافيساني، وكانت قد ظلت تراقبهن صامتة -. إعلانات كبيرة وتحمل عبارات من نوع: **مطلوب نساء مستعدات للعمل، سواء أكانت لهن خبرة أو لا، سواء لهن «مظهر لائق» أو لا، سواء لهن بنات أو لا، سواء أكنّ متزوجات أو عازبات، عاديات أو مثليات، حوامل أو غير حوامل، بتعليم عالٍ أو من دونه، صغيرات أو كبيرات، نرحب بهن جميعهن. يوجد مكان لهن جميعًا. العرض المقدم لرعاية الأبناء خلال ساعات العمل.**

ضحكن. سيهطل مطر من المرشحات.

جرت الموافقة على الإجراءات بالاجماع في المجلس. وفي الأسابيع التالية، وافق الناخبون المأهلون بالأغلبية على اصلاحات في الميزانية تقلص نفقات الدفاع وتخصصها لدور الحضانة. وفي الجمعية، على الرغم من عدم توافر الإجماع، إلا أن أغلبية حزب اليسار الإيروتيكي فرضت نفسها. أما نساء المعارضة اللاتي تذرعن بأنه لا وجود لما هو أفضل من الأمهات في رعاية الأبناء، ولكن اقتراح حجيرات الأمومة وقاعات الرضاعة أعجبتهن. ولولا أن إجراء طرد الرجال يبقيهن على أهبة الاستعداد للصراع، لكان التصويت بالإجماع، كما رأت بيبيانا.

وضعت الإعلانات في وسائل الدعاية والإعلام. توافدت نساء من كافة الطبقات الاجتماعية مستجيبات للنداء. خجولات متلعثمات أحيانًا، وأخريات متشككات، ولكنهن جميعهن فضوليات، وبحماسة لا بأس بها،

ملأن ممرات الطابق الأول من المقر الرئاسي، تحرين عن مضمون إعلان لا يستثنيهن للأسباب المعهودة. ومن ليس لهن سوى إلمام ضئيل بالقراءة والكتابة أو لا يعرفن شيئًا منها على الإطلاق، كن مدركات لعوزهن، لكنهن كن يتصرفن بجدارة ويبدين اهتمامًا بالتعلم بعد أن صارت هنالك الآن حكومة تقلق عليهن. أما ريبيكا التي تولت المسؤولية اللوجستية للمهمة، فكانت تهرع مرة بعد أخرى إلى مكتب بيبيانا، بعينين تشيان بتأثرها، لتنقل إليها بانفعال ومشاعر أخبار صفوف المنتظرات الطويلة. رأت الرئيسة من نافذتها رتل النساء المنتظم الذي يمتد في الشارع ويغيب عن الرؤية عند تخوم الحديقة العامة. فعانقت ريبيكا وقد اغرورقت عيناها بالدموع أيضًا، ثم قفزت كلتاهما، كطفلتين، بفرح وسعادة.

صُنفتْ المتقدمات وفقًا لمستواهن التعليمي، ودُربت جماعات منهن للقيام بإحصائيات في كل حي، وتم تجنيد محترفات لملء المواقع الشاغرة، ونساء لمهمات الشرطة، ووضعت قائمة طويلة بأسماء من يفضلن العمل كأمهات متطوعات. امتلأت إدارات الدولة بملابس ملونة، وبمناضد مزركشة ونباتات زينة. وكانت سفينة الأمة الخارجة عن مسارها تتمايل متأرجحة بين أيدٍ غير خبيرة تقودها، لكن الموظفات الجديدات تصدين للتحدي، وضربة بعد ضربة، وضعن قدمًا أمام القدم الأخرى، وكرسن للعمل أفضل ما لديهن.

كانت هناك احتجاجات نسوية. فهنالك من يرين في إخضاع الرجال للقيام بالأعمال المنزلية خرقًا لترتيب إلهي.

وكانت شعاراتهن تقول: سيحولون رجالنا إلى مخنثين.

- وماذا يردن أفضل من هذا؟ - تصرخ مارتينا غاضبة - رجال بأرواح أنثوية.

زيزان سعف النخيل

أحيانًا، كما في فعل سحري، تقترب الأشياء من بيبيانا. تطفو متحررة من الجاذبية في طيران هادئ. عندئذ يخطر لها أن ذلك المكان الخاص بالذكريات دائمة الحضور إنما هو مغارة علي بابا، وأنه مكان آت من ألف ليلة وليلة، وبازار أعاجيب.

ابتسمت وهي تعيد دفتر الملاحظات إلى مكانه. ووجدت نفسها فجأة وقد أُحيطت بكائنات صغيرة: زيزان، فراشات، جعلان مصنوعة من جريد النخيل.

أطفال فاغواس، الأطفال المتسولون، يصنعون هذه الأشكال من سعف النخيل لاستبدالها بصدقات. إنهم يحيكون أزهارًا، صلبانًا. لكن أشكالهم المفضلة هي الزيزان، إنها محاكاة خضراء للحشرات الغريدة التي تُذَكّرها برحلات إلى مناطق معتدلة من البلاد؛ حيث جادات تظللها أشجار خضراء متشابكة، وفي المساء، يبدو كما لو أن أوراقها تكتسب حياة وتنطق، ذلك أنها تمتلئ بزيزان - سوبرانو تضج بموسيقى لجوجة شبه معدنية، ذات وقع عالٍ جدًّا، وسط ظلال صفوف أشجار المانجو أو المامي.

لم تُفاجأ بيبيانا حين وجدت الكثير من الزيزان المصنوعة من سعف النخيل على الرفوف. لقد كانت تتركها في كل مكان؛ لأن أطفالًا كثيرين كانوا يضعون تلك الأشكال بين يديها. لقد كانوا يصنعونها من أجل لحظة معينة، من أجل حماية كرامتهم عند طلبهم الصدقة. أما هي، منذ المرة الأولى التي قدّمتها إليها يدٌ طفولية من تلك الأيدي، أشعلت الإيماءة شعلة

دفء في صدرها. ولهذا، حين بدؤوا ببرنامج دور الحضانة وكان عليهم التفكير بشعار للإعلانات والأوراق الرسمية، اقترحت على إيفي استخدام رسم مستوحى من تلك الأشكال.

المرة الأولى التي وضع طفل في يدها زيزًا من سعف النخيل، لم تكن قد صارت رئيسة للبلاد بعد. كانت تتمشى في محيط القصر الرئاسي مع ابنة خالة تعيش في لوس أنجلوس وآتية في زيارة. يا لأمور الحياة، فكرتْ. من كان يصدق يومذاك أنه سيأتي زمن تجتاز فيه صباح كل يوم سور حديقة القصر الرئاسي في سيارة تقودها سائقتها أليسيا؟ ما زال ذلك يسبب لها الذهول. وبينما هي تمشي باتجاه مكتبها، تجعلها تحيات الاحترام التي يوجهها إليها العاملون تفكر بأن الذي يمر هو البابا وليس هي نفسها.

كانت خوانا دي أركو تقف قبالة المنضدة الصغيرة ذات العجلات التي تُحضرها إلى الاجتماعات. لديها منضدة كبيرة عند مدخل مكتب الرئيسة، لكنها تقول إنها تفضل الحركة. وعندما لا تكون الرئيسة في المكتب، تقف خوانا دي أركو بجانب النافذة ناظرة إلى البحيرة كثيفة الخضرة، وإلى بركان ميتري في البعيد، بينما أسراب طيور تخفق أجنحتها بتكاسل في الهواء الساخن. لا تدرين القشعريرة التي تسببها لي رؤية المشهد، تقول لها خوانا. إنه يذكرني بنيوزيلندا. هناك اكتشفت مدى حساسيتي للخضرة والغيوم، وهي أشياء لم أكن أنتبه إليها من قبل.

تروي مارتينا أن خوانا دي أركو كانت تذهب يوميًّا، خلال السنة التي أمضتها في نيوزيلندا، إلى الدروس حيث تعلمت أعمال الإدارة، واللغة الإنجليزية والأتمتة. كانت تمتص المعارف كإسفنجة، وكذلك الكتب. وقد ذهبت كذلك إلى مُعَالجةٍ سيكولوجية، بدأت معها بالتطهر من ماضيها. ماذا كانت تقول لك المعالجة النفسية؟ سألتها بيبيانا ذات يوم. كانت تقول

لي إن أحدنا يختار كيف يروي قصته لنفسه، وأنه يمكنني أن أختار روايتها بصورة إيجابية أو سلبية، وحتى تجربتي كمومس يمكن أن تتحول إلى وسيلة تزودني بحساسية خاصة لرؤية الناس وفهمهن؛ وهو أمر هيأني بطريقة ما لهذه المرحلة.

لقد ساعدني كثيرًا التخلي عن الإحساس بأنني ضحية، التخلي عن التفكير بأن ما عانيته يبرر لي أن أتصرف كمعادية للمجتمع خلال ما تبقى من حياتي. وكان ما حدث أشبه بالسحر حين بدأت أروي قصتي بطريقة أخرى. وأنا أدرك الآن أنه يمكن لأشد الأمور رهبة أن تتحول إلى سقالات للانتقال إلى الجانب الآخر الأكثر إضاءة في إحدانا بالذات.

وبينما هي تفكر بهذا كله، استدعت بيبيانا خوانا دي أركو عبر جهاز الاتصال الداخلي:

- صباح الخير أيتها الرئيسة.

- تعالي - قالت لها -. لقد جئت ورأسي أشبه بعقدة.

دخلت خوانا مبتسمة. تناولي قهوة، قالت لها ووضعت لها القهوة على المنضدة.

- أظن أنه علينا أن ننشئ وزارة لرياض الأطفال.

- وزارة أخرى؟ لقد أنشاتِ وزارتين جديدتين.

- أجل، ولكن هذه الوزارة مفصلية. أعطني الصحف.

قرأت بيبيانا العنوان، «الحكومة تشكل وزارة للحريات غير المشروطة».

- لا أكاد أصدق - قالت لها - ما أجد صعوبة فيه هو إضفاء مضمون سياسة دولة على مسألة الإيروتيكية. تعالي اجلسي وساعديني على التفكير.

- جميعكن ايروتيكيات. وأنا لن أشغل نفسي بهذا.

- كيف يمكننا خلق فكرة مختلفة عن الجنس وخاصة بنا نحن نساء هذه البلاد شديدة الذكورية؟

نهضت بيبيانا وبدأت تمشي عبر المكتب.

- يجب إلغاء مسابقات ملكات الجمال. إنها مهينة، وتوجد هنا واحدة منها كل يوم - علقت خوانا دي أركو.

- يمكن أن تكون مسابقات مشتركة، ما رأيكِ؟ أن يكسب النموذج الأجمل، سواء أكان رجلًا أو امرأة.

انفجرت خوانا دي أركو في الضحك قهقهة، وقالت:

- فكرة عبقرية. تعجبني هذه الفكرة.

- وماذا لو أنشأنا دورات ليتعلم الناس فيها ممارسة الحب؟ معظم الناس لن يتعلموا أبدًا.

- أوتظنين ذلك؟

- أجل.

- يمكن إدراج «الإيروتيكية» كمادة دراسية ضمن دورات دروس الأمومة.

- تضمينها حلقة أفلام إيروتيكية، على سبيل المثال. إنها أفلام نادرة، أتعلمين؟ ولكنها موجودة.

- كيف تقولين إنها نادرة؟ توجد أفلام كثيرة جدًّا.

- إنها بورنوغرافية. الإيروتيكية شيء آخر. أتذكر أنني قرأت مقالة تتحدث عن أنهم في إحدى العيادات يدخلون العشيقين إلى غرفة جميلة جدًّا، فيها ملاءات ناعمة، وإضاءة خافتة ويمنحونهما طقس اكتشاف نفسيهما. ويتمثل التحدي في كبح الإيلاج وتأخيره لأطول وقت ممكن، هل اتضح ما أعنيه؟ أن يتبادلا الشم، الملامسة، الاكتشاف المتبادل.

- يمكننا أن نعرض أفلامًا في التلفزيون.
- أنا سأبقى مع شعارات من نوع: **أنا أبارك جنسي**. إنها شعارات جيدة جدًّا.
- إذا ما قُدّم شيء أكثر وضوحًا سيسبب لنا مشاكل. فكثير من النساء متحفظات بتطرف - قالت خوانا دي أركو.
- معك حق. ولكن للإيروتيكية تأثير هائل في الحياة. ولن أستسلم لعدم عمل أي شي.
- ما زلت تلبسين بطريقة إيروتيكية أيتها الرئيسة. وتتحدثين بهذه الأمور في خطاباتك. أما أنا، في الحقيقة، لستُ مستشارة جيدة في هذا الموضوع.
اقتربت منها بيبيانا وعانقتها. إنني بلهاء، فكرتْ، كيف يخطر لي التحدث في هذا الأمر معها.
- متأسفة يا خوانيتا- قالت لها - اعذريني. أحبك كثيرًا. أنت لا تدرين كم أنا فخورة بك.
- وأنا فخورة بك أيتها الرئيسة - قالت خوانيتا وهي تعانقها بدورها - لا تقلقي عليّ. وخذي الحياة بصبر. لا أظن أن تعلم ما هي الإيروتيكية التي تتكلمين عنها ستكون ممكنة خلال دورة رئاسية واحدة - ضحكت - فضلًا عن كل ما مرَّ من المياه تحت جسر هذه البلاد. إن توقفهم عن إساءة معاملتنا نحن النساء سيكون كافيًا حاليًّا.
خرجت خوانا دي أركو. جلست بيبيانا على الصوفا في المكتب. كيف يمكنها تجاوز كل ما عاشته؟ خافت من نفسها، من تسلط فكرة الحكم التي يمكن لها حملها إلى نسيان جوهرِ ما عداها من الأمور ورؤيتها كمجرد سطح تتقافز عليه أفكارها.

ليتيسيا تشكو

- هل شاهدت نشرة الخبار يا إيميليانو؟ الرئيسة لا تزال حية. لقد أخطأ رجلك.

- سوف يؤذيك الطعام يا امرأة. أكرر لك: لست أنا من دبّر ذلك.

لم تكن قادرة على كبح نفسها.

- عندما تستيقظ، إذا قيض لها أن تستيقظ من الغيبوبة، سوف تكون المرأة الوسع شعبية في هذه البلاد، يا للبراز. سيعاد انتخابها. أو سيعاد انتخاب أي واحدة من **الإيروتيكيات**.

- لن تستيقظ.

- آه، لا؟ هل رجعت للتو من نادي «الأمل هو آخر ما يمكن ضياعه»؟

- التقرير الطبي الذي قرأته هو ما يمنحني الأمل. لقد دُمرت تلك المرأة. إذا ما استيقظت لن تكون هي نفسها. أشك في قدرتها على استعادة المنصب.

نظرت ليتيسيتا إلى زوجها بغيظ. قاعة الطعام التي يتناولان فيها الغداء عندما لا يكون هناك من يرافقهما هي شرفة بيتهما الفسيح. في الحديقة المعتنى بها جيدًا، بشجيرات أزهارها المشذبة على شكل سِلال، ورشاشات الماء التي لا تتوقف عن ري العشب.

- صوت هذه المرشات المائية كصوت السياط - قال إيميليانو وهو يقضم قطعة خبز مضمخة بزيت الزيتون والخل.

- أليس لديك ما تقوله؟ ألا توجد خطة أخرى؟ ماذا تنوون أن تفعلوا، تصفيتها فقط؟

- قلت لكِ إنه لا علاقة لي بالقضية. ولكن بقاءها حية سيعقد الأمور دون شك، بالنسبة لمن فعل ذلك. ولا سيما أنكن أنتم معشر النساء عاطفيات جدًّا. لا أفهمكن. وكأن وجود المرأة في حالة كوما هو أسوأ من رؤيتها ميتة. أنا اقترحت أن نتحرك من أجل إقالتها، إلا أن السيدات يرين أن هذا التصرف، بينما هي في المستشفى، سيجلب لنا ازدراء الناس.

- أيفاجئك أن تعلم، في هذه الحالة، أنني أتفق معهن.

- أنا لا أتفق مع رأيهن. يبدو لي أن هذه اللحظة تحديدًا هي المناسبة للتصرف؛ لطلب اختيار شخص آخر فورًا. فذلك الإصلاح الذي قمن به لإلغاء منصب نيابة الرئيس كان تصرفًا جنونيًّا. وقد قلت هذا منذ البداية.

- تقوله لأن الخطة لم تنجح. فلو ماتت بيبيانا سانسون، لكان لا بد من الدعوة إلى انتخابات جديدة. هكذا كانت الفكرة، أليس كذلك؟

- قلتُ لكِ إنه لا علاقة لي بالأمر. لا تسمحي للحقد أن يعميكِ. لا بد لك من رؤية جبل الزهور الذي وضعوه أمام المستشفى. لو لم تكن هذه البلاد فقيرة لنافست بحر الزهور الذي وضعوه للأميرة ديانا. المسألة أنني أعتقد أن لك روح رجل. أيكون هذا هو سبب زواجي بكِ؟ ـ قال مبتسمًا بسخرية واستخفاف.

ضحكت ليتيسيا. تناولت جرعة من النبيذ الأبيض.

- روح رجل... أهكذا ترى؟ لا أدري إذا ما كان علي اعتبار **كلامك** شتيمة أم ثناء.

- بما أن القول آت مني، أظن أنه يمكنك أن تكوني **واثقة من أنه ثناء.**

- حذار. فقد يكون هذا كشفًا عن أنك مخنث.

ضحك إيميليانو الآن. أطلق قهقهة طويلة ومدوية.

- لا يا يا ماما ـ قال وهو ينظر إليها بشبق ـ. روح رجل **بجسد امرأة** هي التوليفة الدقيقة. أنا لا أستبدل جسدك بأي **شيء في الدنيا... ولكن لو** أنك خرجت لي محتشمة، وديعة وكل هذا النوع من الصفات **المرضية**

التي تصيب النساء، لكنتِ أُقصيتِ منذ زمن طويل جدًّا عن هذا المكان. ولكنتُ تزوجت من واحدة من فلاحات مزارع أسرتي؛ امرأة جلفة، مسترجلة. أشعر ببهجة مما هو وردي، أنثوي، وبصورة خاصة لدى النسويات. فما ترغب فيه هؤلاء، في أعماقهن، هو أن يكنّ رجالًا. ولهذا يعشن محبطات.

لم يقل أكثر من ذلك. سكبت ليتيسيا مزيدًا من النبيذ في كأسها. نبيذ أبيض، من صنف فاخر. كأس الكريستال المتقن خفيف. هي وإيميليانو يعيشان على ما يرام. ابنهما قد تزوج ولم يتسبب لهما بأية مشاكل قطّ، أما بالنسبة للزوجين، فقد صارت، بطريقة أو بأخرى، بعيدة جدًّا تلك الحروب الشرسة، وحصار المدن الحميمة والإضراب عن ممارسة الجنس أو عن الطعام. ومع ذلك، فإنها لا تستطيع أن تتحمل في بعض الأحيان مشاعر الضغينة والغضب التي ابتلعتها دون هضم من أجل الوصول إلى هذه النقطة. إنها تمقت عدم نسيان ذاكرتها تراكم الإساءات والإقصاءات التي نثرها على امتداد ستة وعشرين عامًا من حياتهما الزوجية. أمور كهذه، كقوله إن لها روح رجل. أو سخريته خجلها، من خراقتها الاجتماعية، مثلما يسميها؛ أو إخضاعها للازدراء الذي يشعر به تجاه سائر الجنس الأنثوي. جهوده لإخفاء ذلك كانت تزيد في الواقع من إبراز الازدراء التقليدي لدى من يخفون إحساسهم بعدم الثقة بأنفسهم متخذين مظهر الرجال الأقوياء. ولكنها لا تقع في فخ النسوية، ولا في تصديق قصص **الإيروتيكيات**، هذا الصنف من النسوية المقلوب الذي يعظ مستخدمًا لغة نساء مثلها من أجل خداع النساء جميعًا. فالرجل والمرأة هما مثلما هما، وعلى كل منهما التموضع في موقعه، وألا يحاول الاعتقاد بأنه قادر على تغيير ما فرضه الرب والطبيعة. المرأة في بيتها

ومع أبنائها هو الصواب. فهي لم تشأ أن ترى إيميليانو محشورًا في المطبخ، ولم ترد له أن يتولى تربية ابنهما. كان يمكن لعمل ذلك أن يصيبها بالجنون. إنها تعرف كيف تحصل على ما تريده دون كثير من مظاهر المبالغة أو قصص عن تغيير العالم. لما بين ساقيها قدرة تفوق أربعة من خطابات أولئك النسوة. إنهن حمقاوات أولئك **الإيروتيكيات** بإصرارهن على كشف اللعبة للرجال. يا للوضع اللعين الذي وصلوا إليه. بيبيانا في كوما؛ والبلاد بأسرها متوقفة، بلا حركة، بلا ضحك، كما في لعبة طفولية، والزوج لم يعد ينزع عنها ملابسها.

نظرت إلى إيميليانو. كان قد شغل التلفاز وبدأ يغفو. دائمًا هذه هي الحال، ليلة إثر ليلة.

ثقّالة الورق

ثقيلة، بلورية وعليها كتابة O2، انتزعت ثقالة الورق ابتسامة من بيبيانا. نهم استعادة ذكرياتها ينقلها من رف إلى آخر. لا وجود لكراسٍ في هذا المكان، فكرتْ، كم هو مؤسف أنني لم أترك كرسيًّا منسيًّا قطّ؛ صوفا مكتبي تناسبني تمامًا. تذكرت غرفتها وأحست بالحنين. كانت قد نسيت أين هي. لقد اكتفت بأن تعرف كم سيستمر وقتها في العنبر... إذا كانت كلمة وقت هي الكلمة الصحيحة، وإذا كان للعنبر أي وجود فيما وراء تخيلاتها. وماذا عن البلد، فاغواس، وحزبها اليساري الإيروتيكي، وصديقاتها، وأمها، وإمير؟ حين تفكر بهم يكاد الغمّ يقطع أنفاسها. تتصل للحظات بمشاعر جسدية لا تفسير لها، تخيفها لأنها تشعر عندئذ أنها تموت. تعود للتركيز على العنبر، على الأشياء التي فيه، كما لو أن عمل ذلك ينجيها.

في بعض الأحيان، تمر الأشياء المنسية أمام عينيها، كما في محلات الغسيل الصينية تلك؛ حيث تنتقل الملابس على حزام ناقل طويل ومتعرج معلق بالسقف. أتكون الأبدية هكذا؟ أهي رحلة طويلة عبر الذاكرة، بقاء بلا أي شيء آخر سوى تلك الصور سريعة العبور وجزيئات من الماضي تتكشف بصورة لا متناهية؟ أعادت النظر إلى ثقالة الأوراق. لقد كانت رمز إحدى أشد حملاتها نجاحًا منذ توليها رئاسة فاغواس: بيع الأكسجين. ففي عالم بلا أشجار ويعيث به الخراب مثلما هي حال كوكب الأرض، يعتبر امتلاك غابات وأدغال كالموجودة بوفرة في فاغواس رفاهيةً لا تقدر بثمن. وفي أحد الأيام، بينما هن يشغلن أذهانهن في

التفكير من أين سيحصلن على موارد لدفع تكاليف برامجهن: رياض الأطفال ومدارس الأحياء بصورة خاصة، خطرت الفكرة لريبيكا. أرتها على الإنترنت كثرة المواقع التي تعرض «قسائم الكربون»

موقع/ فئة/ تربية واتصالات/ نشاطات اجتماعية/ وعي بيئي

المنشِيء: مجهول

أنقذ غاباتنا بشرائك قسائم كربون

قسائم الكربون آخذة بالتحول أكثر فأكثر إلى البديل الأوسع شعبية لمشاركة الأفراد والشركات في حلّ مشكلة الاحتباس الحراري. الفكرة الأساسية لقسائم الكربون تتلخص في حساب النشاطات التي يقوم بها الشخص عادة، مثل السفر بالسيارة أو الطائرة، إضافة إلى الاستهلاك المنزلي، أي كل ما يستهلك طاقة ويساهم في الاحتباس الحراري. هذه الكوتا التي يستهلكها أحدنا تشكل ما يُعرف بـ «بصمة الكربون» التي يخلفها كل شخص في العالم. هذا المصطلح يشير إلى ثاني أكسيد الكربون، الغاز المسؤول الأول عن ظاهرة الاحتباس الحراري. يمكن لحضرتك أن تعادل بصمتك الكربونية بشراء قسائم الكربون. شراء هذه القسائم يمول تقليص إطلاق هذه الغازات من خلال تقديم أرصدة لإقامة مزارع الرياح ومصادر أخرى للطاقة النظيفة والتي سيتقلص، بوجوها، الطلبُ على الوقود الملوث للبيئة. من خلال تمويل هذه المشاريع التي تقلص انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحراري، وازن حضرتك واطرح تأثيرك الشخصي في الاحتباس الحراري بقيمة تعادل استهلاكك. قسائم الكربون تساعدك في أن تكون مسؤولًا مباشرًا عن الأثر البيئي لنشاطك واستهلاكك اليومي.

شراء قسائم كربون CO_2

نحن شركة سويسرية لها ممثليات مالية. نرغب في شراء قسائم كربون CO_2. تسهيل الحصول عليها خلال ٤٨ ساعة. الكميات ليست مهمة.

كان شراء «قسائم الكربون» واحدًا من الصفقات بعيدة المنال، إنه نوع من إلية تكفير، يعاني من خلالها سكان البلدان الغنية بشعور أقل بالذنب لكمية ثاني أكسيد الكربون - الغاز المسؤول عن الاحتباس الحراري - التي ينتجها أسلوب حياتهم. فالأفراد أو الشركات البيئية الواعية، بعد القيام بحساب كمية غاز الكربون الذي تنتجه أعمالهم، يشترون قسائم لنشاطات أخرى يقدرون أنها تنفع للحفاظ على الأكسجين أو إنتاج طاقة لا تلحق الضرر بالوسط البيئي. إنها مسألة يدين اثنتين، محو بإحدى اليدين ما تفعله اليد الأخرى، مفهوم غريب، ولكن يمكن **للإيروتيكيات** أن يلجأن إليه للحصول على رأس مال يحتجن إليه من أجل إنجاز الإصلاحات التي يقترحنها. الأمر بسيط، أوضحت لها ريبيكا: يحسبن ما يعنيه ماليًّا لفاغواس قطع الغابات واستغلالها، ومن جهة أخرى، حساب كمية الأكسجين التي تنتجها تلك الغابة نفسها إذا ما حُفظت دون أن تُقطع. وباستخدام هذه التقديرات كأساس، يجري الإعلان عن مزاد عالمي. من يدفع أكثر؟ من يدفع مقابل الأكسجين بطريقة لا تجد فاغواس مضطرة إلى قطع غاباتها من أجل الحصول على موارد للمعيشة؟

لاقت الفكرة نجاحًا غير مسبوق. وفر إمير لهن التواصل مع خبيرة علاقات عامة من واشنطن، فقامت بتنسيق حملة كونية وضعت (ح.ي.إ.) وبيبيانا وريبيكا والمزاد في مركز مناظرة دولية حامية. وقد وفر الإشهار

للمزاد الواجهة التي يحتاج إليها ليتفوق حتى على أكثر التوقعات تفاؤلًا. وقد سافرت كلتاهما، بجاذبيتهما وانفتاحهما وجرأتهما، واجتمعتا مع ممثلين عن بلدان مجموعة السبعة وكل من رغب في الاستماع إليهما من رجال الأعمال والمليونيريين. وكبطاقة تعريف، كانتا تتركان ثقالة الورق، مع الدمعة اللامعة بغاز الـ O2 محفورة على سطحها.

حصلن على أموال من أجل مشاريعهن، ومن أجل البدء بتشكيل جهاز شرطة بيئية وظفن فيه أعدادًا كبيرة من الرجال الذين جرى تعميدهم باسم محبي الغابات.

أعادت بيبيانا ثقالة الورق إلى الرف بحركة متثاقلة. تروق لها فكرة محبي الغابات. فقرار طرد الرجال من العمل في الدولة تسبب لها بما لا حصر له من الخلافات. إلا أن مهنة محبي الغابات فُسرت على أنها إشارة إيجابية، بالرغم من أنها اقتضت انتقال الأزواج والأبناء والعاشقين إلى خارج المدينة.

ترك النساء وحدهن يعملن في الحكومة أكد حدسهن بأن تركهن على هواهن، من دون عين الذكر لتقيمهن وإطلاق أحكام يشعر الرجال بأن لهم الحق بإطلاقها لمجرد الاستناد إلى ثقل خُصّيهم الهشة والحساسة، وتتخلص النساء من عقليتهن المتساهلة، ومن أسطورة أنه لا يروق لهن إصدار الأوامر والحكم، ومن حكاية أن التحديات تضايقهن. لقد كانت المسألة بطيئة. لم يكن عليهن التخلص من ثقل الحضور الواقعي للرجال وحسب، وإنما كذلك القاضي المتحفظ، والرجل الضئيل، الذي يرفع إصبع التهديد دومًا ووجه الأب أو الكاهن أو العم أو الأخ الذي ينتصب كتمثال وقور ومتجهم وسط الحدائق الظليلة للأدمغة النسوية، يذكرهن إما بأنهن بنات حواء: خاطئات؛ بنات أم سوء: عاهرات؛ بنات باربي: بلهاوات؛ بنات مريم العذراء: طفلات محتشمات؛ بنات أمهات أفضل

منهن لم يكنّ يرين أنهن أفضل ممن حولهن: نساء صامتات وجيدات السلوك... سلسلة نماذج نسائية مطهرة أو مزدراة هي صور مسطحة، ذات بعد واحد؛ إما هذا أو ذاك؛ وكقاعدة عامة ينكرون كُليَّة ما يعنيه كونها امرأة.

لا يشبهون النساء بفرجينيا وولف كمرجعية (فهذه كانت مجنونة، وقد انتحرت)، أو جين فوندا، أو برث موريسو، أو فلورا تريستان، أو إيما غولدمان، أو غلوريا ستاينم، أو سوزان سونتاج، أو روساريو كاستيّانوس، أو سور خوانا إنيس ديلا كروث... في المقام الأول، لأنهن مجهولات لديهم، وفي المقام الثاني إذا كانوا يعرفونهن، فلأنه، كما يقال بالعامية، لهنَّ **ذيل**. يمكن أن يكنّ لامعات، ولكنهن كذلك لكونهن غير متكيفات، لأن شيئًا لا يسير على ما يرام في حياتهن؛ وفي أفضل الحالات، يفعلن ما يشأن ولكن نهايتهم تكون كئيبة (انتهى بهَا المطاف إلى درس رأسها في الفرن، أو تحولت إلى مومس، أو أنها كانت قبيحة كالشيطان، أو سحاقية ـ كما لو أن ذلك سيئ، على حدّ قول مارتينا ـ، أو لم تتزوج قطّ، أو ماتت عزباء، أو يا لها من راهبة مسكينة). لم يحطّ أحدٌ من مكانة فان غوخ لأنه قطع أذنه، ولا هيمنغواي لأنه ملأ رأسه بالخردق؛ إذ لا يمكن لأي عيب أن يُنزل الرجال من مكانتهم. أما النساء فيدحرجونهن إلى القبو. لهذا السبب لعبتْ لعبة الرئاسة من أجل المتعة، والحرية، والمزاج، والأكسجين، ولرؤية النساء ينغمسن في العمل ويمنحن أفضل ما لديهن دون اهتمام بما سيفكر فيه أو يقوله رؤساؤهم في العمل أو زملاؤهم أو الوسطاء.

ومع أنه في حالات المساواة، كانت المرأة من ذوي الكعوب الطينية، شديدات الهشاشة ومائلات إلى الانكسار. فالمرأة تحتمي وتحترس من

النساء الأخريات؛ لأن هنالك أيضًا من هنَّ مستعدات لأن يوجهن خنجر قرف إلى امرأة أخرى من أجل كسب رضا رئيسهن، أو حتى سائق رئيسهن. إنها تريد للنساء أن يكن أفضل المتواطئات. فقد كن بطبعهن أفضل الصديقات. حين يتحالفن معًا يخرج ما هو أفضل وأكثر طزاجة وحيوية؛ بحيث يمكن حتى لأكثرهن تقدمًا في السن أن يواصلن قُدمًا.

كانت بيبيانا مقتنعة بأن التغيير الذي تحلم به يتطلب فضاء يتواجدن فيه بأنفسهن ولأنفسهن، وفي حالة، مهما كانت مصطنعة ومهما كان وقتها قصيرًا، تتيح لهنّ اكتشاف أنفسهن كيلا يعدن قط، ذهنيًا، إلى تقبل أن يبدونّ أقل مما يستطعن أن يكنّ.

ومن جانب آخر، من أجل إحداث تحول في الحياة اليومية - وهذه هي عقدة المسألة الحقيقية - يجب على الرجال أن يلتقطوا مذاق البيت، المطبخ، أو أن يتوقفوا على الأقل عن النظر إليه كعمل يحطّ من مكانتهم ويهدد رجولتهم. إنها لا تتطلع إلى مجتمع أمومي وإنما إلى مجتمع مساواة. وهذا ممكن. تؤمن به بكل ما فيها من هرمونات ومادة رمادية.

حتى إمير نفسه، على الرغم من عدم اتفاقه مع الإجراء، لم يستطع مقاومة فضول معرفة ما ستتمخض عنه التجربة.

في تلك الليلة، رجعت بيبيانا إلى بيتها متعبة، تستند رأسها إلى زجاج نافذة السيارة التي تقودها أليسيا. كانت أضواء المدينة تنعكس على النافذة. لم تكن مدينة جميلة، ولكنها مدينة خضراء؛ كثيرة الأشجار، وبعض تلك الأشجار - أكثرها ارتفاعًا ومهابة - جرى تدميرها في وقت سابق بتصرف متوحش أقدمت عليه شركة إسبانية لتمديد كابلات التزود بالكهرباء؛ إذ عمدت فرق عملها، غير المزودة بأدنى قدر من التأهيل لحماية الأشجار، إلى قطع رؤوس الأشجار وأغصانها التي قد تلامس

أسلاك التمديدات الكهربائية. فمنذ سنوات كان الجادة الفسيحة والظليلة في المدينة، محاطة بأشجار تشيلاماتي المعمرة والتي كانت ستشكل ذات يوم نفقًا من الخضرة، ولكن جرى تحويلها إلى مجموعة جذوع متعفنة ما زالت تحاول، حتى في وجودها الملتوي، أن تستعيد خضرتها بإطلاق أغصان لا معنى لها.

اقترحت وزارة الترفيه والحدائق استعادة جمال الجادات المهمة والحدائق المهجورة؛ بل كانت لديها كذلك خطط لتقاضي رسوم سنوية، تتناقص تدريجيًا، كي يتمكن جميع المواطنين من الذهاب إلى السينما ومشاهدة العروض الفنية بأسعار مخفضة. لقد أرَدْن إحياء الرغبة في التلاقي والمرح الجماعي، وهو أمر كانت أجواء التبدد والحزن في المدينة تتكفل بالاستخفاف به. فللوسط المحيط، مثلما يعرف الجميع، أثر حاسم على السلوك. وقد كانت واثقة من أن النظافة والجمال سيكون لهما، دون ريب، وقع صدمة على نفسية المواطنين. إذا ما تم تعليم الأهالي العناية بالفضاء العام، فسوف يتعلمون العناية ببلدهم، والعناية بها هي نفسها. سوف تُستخدم النساء عما قريب في العناية بالحدائق، سيكون ذلك جيدًا للأشجار؛ لأنه النساء لا يملكن القوة البدنية لتخريبها ببهيمية.

وصلت إلى بيتها. دخلت لترى سيليستي. كانت تنجز واجباتها المدرسية. كل يوم تقضي هي وابنتها بعض الوقت معًا. عند خروجها من المدرسة، تذهب سيليستي إلى المكتب الرئاسي، وفي قاعة صغيرة مجاورة، تتناول وجبة العصر، وتشاهد التلفزيون، وتقرأ أو تقوم بإرسال رسائلها النصية. وفي أثناء ذلك تكون هي إلى جانبها، تقرأ وثائق، وتكتب اقتراحات. تتبادلان تعليقات وتتنفسان على الأقل الهواء نفسه. ففي الثالثة عشرة من عمرها، كانت قامة سيليسي تزداد طولًا كل يوم، ولم تعد تشبه أبيها سيباستيان بل صارت تزداد شبهًا بها وبجدتها.

- يا له من يوم! أليس كذلك يا أماه؟

- رهيب. ولكنه انقضى. يوم غد سيكون أفضل.
- لحسن الحظ. في المدرسة لم ترق لهم كثيرًا فكرة ما جرى للرجال. ولكنني حدثتهم عن برنامج تلفزيون الواقع الذي ستحققونه مع أرباب البيوت، وقد أضحكتهم الفكرة.
- لحسن الحظ أنك ذكرتِني به. أسوأ ما في الأمر أنني أنسى الأفكار الجيدة التي تخطر لي - قالت بيبيانا مبتسمة -. قرص دماغي الصلب ممتلئ فوق طاقته.
- ولكن خوانا دي أركو لا تنسى شيئًا. إنها تسجل كل شيء. لم أرها قطّ من دون كمبيوترها اللوحي ذاك. هل تناولتِ العشاء؟ أنا تعشيت مع إمير.
- ألم يغادر؟
- لا. لقد ذهب للعب التنس، هذا ما قاله لي.
طبعت قبلة على خد سيليستي.
وجدت الأنوار مضاءة في غرفة نومها. فتحت الباب. كان إمير مستلقيًا في الفراش واللابتوب مفتوح فوق حضنه. كانت حقائبه مكومة عند الجدار.
- ألم تغادر؟
رفع عينيه عن لوحة المفاتيح.
- لم أستطع.
اقتربتْ من السرير ببطء وجلست على حافته. تخلصت من حذائها وألقت بنفسها على السرير، فوق الوسائد.
- يا له من يوم! - تنهدت -. إنني مستنفدة.
- ولكنكِ لا تزالين في السلطة - قال مبتسمًا -. يجب عليك أن تقيمي مذبحًا مقدسًا على شرف هذا البركان. كنت أنتظر توجهات حربية أكبر لدى رجال فاغواس.

- الدولة هي حزء صغير من البلد ككل. كان يمكن للأمر أن يكون مختلفًا لو أن جميع الرجال ذهبوا إلى بيوتهم، ولكنني لا أتمتع بمثل هذا النوع مَن السلطة.

- لحسن الحظ.

- كيف قررت البقاء؟ ظننت أنك ستنتقل إلى تضخيم الانشقاق... الطلاق، المعارضة.

- كان ذلك هو اندفاعي الأولي، ولكنني كعالم اجتماع، وجدت أن إغواء متابعة تجربتك على أرض الواقع أكبر من مخالفتي لك في الأمر. ولا بد لي من الاعتراف أن ما جرى مشوق.

- هل خرجت إلى الشارع؟

- لا. ذهبت للعب التنس في النادي.

- و؟

- كان اهتمامك ضئيل بالناس الذين يملكون الموارد يا بيبي.

- لستُ بحاجة لمنحهم الاهتمام. أتخيل تمامًا ما الذي يقولونه عني.

- لا تظني ذلك. إنهم ينظرون إليك على أنك مجنونة، ولكنهم في الوقت ذاته أذكياء بما يكفي لأن يلمسوا أن هنالك منهجية في «جنونك»، مثلما يقال بالإنجليزية، there is a method to your madness. إنهم يعرفون أنه منهج أكثر مما هو تعسف. هنالك بالطبع من لا يتحملون مجرد سماع ذكر اسمك. وأحذرك من أنهم لن يظلوا هادئين.

- لا شك لدي، ولكن هنالك ثلاث نساء مقابل كل واحد منهم.

- لا تنسي ما قاله كيسنغر - وابتسم - المواجهة مع العدو... تجعل الحرب مستحيلة.

- يسعدني أنك لم تغادر. الحرب ضد أبناء جنسك تبدو قاسية لي أنا بالذات - وغمزتْ بعينها.

- عدم مغادرتي لا يعني أنني أوافق على ما فعلتِه. ما زلت أعتقد أن خلق أوضاع لا علاقة لها بالواقع، لن يغير الواقع.

- ولكن انظر كيف أنكم، أنتم الرجال، قد غيرتم الواقع وخلقتم بذلك واقعًا لا علاقة له بالواقع.

- هكذا بالضبط. لقد كانت بلاهة. فلماذا تكريرينها إذن؟

- آه يا إمير، لأنه، كما يقول المثل: لا أحد يتعلم بدماغ غيره؛ حيث يعيش الرجال خلال ستة شهور ما نعيشه نحن النساء، سيفهمون المسألة بصورة أفضل بكثير.

- وهذا انطلاقًا من أن النساء سيتركون لهم تولي زمام أمور المنزل.

- صحيح. لقد فكرتُ في هذا الأمر؛ ولكن الفكرة هي أنهن سيتركونهم في البيت ويذهبن إلى العمل.

- ولكنكنّ لن تستطعن إجبارهم.

- لا نستطيع إجبارهم، ولكننا نستطيع إقناعهم.

- هذا هو السبب تحديدًا في بقائي. أريد أن أرى إذا ما كان الإقناع سينفع.

- أيمكنني إقناعك بأن تعمل لي مساجًا يا إمير، للظهر.

في العنبر، فتحت بيبيانا عينيها. يمكن لها أن تقدم أي شيء مقابل الإحساس مرة أخرى بيدي إمير على ظهرها، على وركيها، على ساقيها. ألقت ثقالة الورق محبطة، فشقت الثقالة فضاء العنبر كأنها عصا بومرانج وعادت لتستقر على الرف.

ريبيكا

ريبيكا قلقة. كانت قد تركت التدخين، ولكنها ليست قادرة على التفكير دون أن تضع شيئًا في فمها: بطاطا مقلية، جوز، قطع حلوى. من المؤكد أنها كانت سنجابًا في حياة أخرى، هذا هو تعليق سكيرتيرتها حين تقوم هي والأخريات بتبادل الملاحظات حول نزوات رئيساتهن في العمل.

في طريق عودتها من المستشفى، لم تستطع ريبيكا تحمل المزيد. مرّت في طريقها لشراء سجائر، اعتكفت في غرفة مكتبها وفتحت الباب المنزلق لتخرج إلى الشرفة وكيلا تتسرب الرائحة إلى الطابق كله. الشرفة موجودة في واجهة المبنى، فوق ميدان الجمهورية بالضبط، ولكن قلة من الناس يمرون من هناك في مثل هذه الساعة، لا يُرى سوى حراس أقفاص مغتصبي النساء. هنالك مذنبان اثنان فقط هذا الأسبوع. يقضي المذنبون الوقت عادة جالسين على الأرض، يثنون أرجلهم ويخفون الوجه بين الركبتين. لكن هذين الشخصين كانا واقفين. يهزان قضبان القفص الحديدية. يصرخان. أيكون الخبر السيئ هو ما استثار حماستهما، فكرت ريبيكا. تكتيك إيفا المثير للجدل أعطى نتائج جيدة، باعتماد هذا الإجراء العقابي والحراسة في الأحياء، ومصابيح الإنارة في الشوارع المظلمة. لم تأخذ أي حكومة من قبل، على محمل الجد، ذلك العنف المشؤوم ضد النساء. أما هنّ ففعلن. لقد استثمرن في ذلك مبالغ مالية كبيرة. وهي تعرف ذلك جيدًا لأنها كانت وزيرة الاقتصاد أو التموؤنة (إنها تسمية أقل أناقة ولكنها تروق للأخريات). فهي من كان عليها التعامل مع الأرقام، وهذه كفاءة كانت تتمتع بها بصورة استثنائية.

فمنذ الصغر فاجأ عقلها الرياضي معلميها. كانت مفتونة بالإحصاءات والأرقام، والإسقاطات، اللعب بهذا العالم الذي لا يفهمه سوى قلة بينما هو بالنسبة إليها أشبه بتمرين المكعبات الملونة. ولهذا لم يكن يقلقها أن تكون الحكومة مدينة إلى حدود لا يمكن تخيلها. لقد كانت متأكدة من أنهن سيسددن تلك الديون. فإجراءات التحديث التي أُطلقت صارت تظهر بازدياد في المجلات والتقارير الاقتصادية الدولية. ومن انتقدوا تلك الإجراءات بذريعة عدم توازنها، صاروا يمدحونها الآن لجرأتها. وأنه عند الثقة بالنساء تكون النتائج مذهلة. لقد حدث ذلك بالقروض قصيرة الأجل في العالم بأسره. ومع ذلك، على الرغم من الالتزام الجيد بالتسديد وحس المسؤولية لدى النساء، فإن القروض التي تسمح بولوج التكنولوجيا وتتيح لهن القفز من المشاريع الصغيرة إلى المؤسسات الكبيرة لم تكن متاحة للنساء في معظم الأحيان. لقد حققت حكومة (ح.ي.إ.) القفزة. فمشروع الأزهار حقق نجاحًا غير مسبوق. لم يكن قد خطر ببال أحد من قبل إقامة دفيئات زراعية سواء من أجل استغلال قطع الأرض أو من أجل تخطي حاجز الخضوع لعوامل المناخ. أضف إلى ذلك، أنها لم تتردد في استثمار أموال لشراء طائرات مبردة، طبعًا، لأن الزهور بلا تبريد وبلا طائرات لن تنفع لأي شيء.

منظر المزارع باهر الجمال. لقد كانت الفكرة نتيجة إلهام خطر لها عندما تحدثت ببيبيانا عن المبالغة بما هو نسوي. وما هو الشيء الأكثر نسوية من الأزهار؟ انكبت على دراسة تلك التجارة. وبغريزتها، وأرقامها، وبعض الرحلات والكتب التي التهمتها، أقنعت الأخريات، ووضعت الخطة موضع التنفيذ. وأضافت إلى هذا المشروع زراعة الحبوب، وتأمين الاكتفاء الذاتي للبلاد غذائيًا، ربطتْ بين أمر وآخر؛ وحسنًا، لم يكن كل شيء كمالًا، ولكن حتى الآن لم تتحقق نبوءات

المتشائمين. كما أنها تدخلت في تطوير السياحة بالاعتماد على سياحة التخييم، نظرًا لافتقاد الأموال اللازمة لبناء الفنادق، فكان تنظيف عقارات وتأهيلها من أجل التخييم نافعًا ومفيدًا، أضف إلى ذلك أن الأمر أفاد في أن تجد جماعة كبيرة من الرجال ما تفعله. بهذه المشاريع الثلاثة، فضلًا عن مشروع الأكسجين، صار لديهن ما يكفي. إضافة، بالطبع، إلى حلمهن في أن يبعن كل معدات الجيش. وقد كان ذلك منجم ذهب ينتظر منهن استغلاله. أطلقت ريبيكا سحابة دخان طويلة وأطفأت السيجارة بحذائها. التقطت علبة السجائر ودستها في جيب سترتها. نظرت إلى ساعتها. ما زال أمامها نصف ساعة من أجل الموعد مع سفير إسبانيا. ستنزل إلى دار الحضانة لتلعب مع توءميها. فاللعب مع أبنائها هو أفضل مضاد للكآبة. زوجها، إغناثيو، يعيش حبيس عالمه. لا يراها إلا كمرآة حيث تعكس صورته هو. لقد كان نرجسيًّا إلى أقصى الحدود. لا يهمه من أمرها إلا ما يؤثر على صورتهما كزوجين وكأسرة. يعاملها كما لو أنها امتداد لصورته ولهذا، عند فوزهن، بعد شهر الحملة الانتخابية، نسي النزاعات والاعتراضات وقام بدوره كزوج فخور. ومع ذلك، بدأ دور الزوج يُتعبه. فالأضواء لم تعد تُسلط عليه، ولم يكد يمضي وقت قصير إلا وراح يستغرب ويتضايق لأنه ليس مركز الاهتمام. لماذا لا تتركه؟ تساءلت. من سيأتي ستكون له عيوبه، هكذا كانت فلسفتها. السيئ المعروف خير من الجيد غير المعروف. وليس لديها في هذه الفترة وقتًا تكرسه لمعاملات طلاق.

من الساحة، حيث كانت تقف سوسنة، ابنة خوسيه دي ارتيمتيكا، وقد صارت عضوة في سلك الشرطة، وهي الآن في وردية حراسة لقفص مغتصبي النساء، رأت المرأة طويلة القامة، ذات الشعر القصير القاتم

والأملس، ترتدي الأبيض، وتعود إلى مكتبها. تعرفت عليها. إنها ريبيكا دي لوس ريوس، وزيرة الاقتصاد: حاجبان كثيفان، عينان شديدتا السواد وأنف صغير ودقيق. من يمكنه تجريمها بأنها تدخن في هذه الأيام؟ فالجميع يمضون عصبيين بسبب الخبر عن أن الرئيسة في حالة كوما. المجرمون الذين في السجون، بمن في ذلك المغتَصِبون، مذ علموا بالخبر وهم حانقون جدًّا. ولا بد أن يكون وقع الأمر على شخص كالوزيرة أسوأ بكثير.

والأدهى أن **الإيروتيكيات** قد ألغين منصب نائب الرئيس وأقررن أنه، في حالة موت صاحب منصب الرئاسة أو عجزه، يتولى الحكم بصورة مؤقتة مجلس تكون مهمته الأساسية الدعوة إلى انتخابات جديدة خلال أقصر وقت ممكن. وكانت بيبيانا قد قالت، وهي محقة في ذلك، أن أعلى منصب في الأمة لا يجب الوصول إليه بفعل حادث أو عن طريق الوراثة، وأن إبقاء شخص مؤهل في وظيفة كنيابة الرئيس ما هو إلا تبديد للإمكانيات. المشكلة الآن، حيال عدم التأكد مما إذا كانت الرئيسة ستستعيد عافيتها، هي أنه لا يمكن الدعوة إلى انتخابات جديدة. ولم يبق سوى الانتظار.

كانت سوسنة تقدر السهولة التلقائية التي تشرح بها ريبيكا قضايا معقدة. وقد تساءلت عما إذا كانت منها فكرة جمع أكثر الناس ثراء مع أفقر الناس في البلاد. وعلى الرغم من أن بيبيانا هي من ترأست الاجتماع، إلا أن الفكرة تحمل بصمة الوزيرة. إنها تتذكر كم كانت صادمة رؤية أكثر عشر نساء ثراء وأكثر عشر نساء فقرًا في فاغواس، يجلسن وجهًا لوجه، على جانبي منضدة طويلة. وبالتناوب، بطلب من الرئيسة، روت كل واحدة منهن قصة حياتها وتحدثت عما تفعله خلال

اليوم. لا يمكن لأفضل المسلسلات التلفزيونية أن تصل إلى مستوى القصص كانت تُسمع في تلك الاجتماعات. المثير للفضول أن وجودهن في التلفزيون قد أفلت العنان لألسنتة النساء بدلًا من أن يكبحهن ويمنعهن من التعبير بحرية. لقد كان مذهلًا ظهور تباينات شديدة في البلاد نفسها، ولكن الصادم هو تأكيد تشابهات لم يكن تصورها ممكنًا. «الفقر والثراء لهما أسياد ـ قالت الرئيسة ـ على الأغنياء أن يروا وجوه الفقراء، أن يعرفوا أسماءهم، ويسمعوا قصصهم؛ وعلى الفقراء أيضًا أن يتعلموا شيئًا من الأثرياء، وأنه ليس جميع الثروات قد تشكلت من العدم. هنالك أثرياء كانوا فقراء وعملوا أو أنهم يعملون لامتلاك ما يملكونه». ما قالته في خطبتها هو شيء من هذا القبيل. لا تتذكره سوسنة بحذافيره. بعد عدة مواجهات تاريخية، مع ذلك، اختفى الأغنياء وتحول العثور على من يقبل أن يكون كذلك، ويذهب إلى البرنامج، إلى ما يشبه المستحيل. كان ذلك مؤسفًا. فبقي الفقراء وحدهم، كالعادة، هم من يروون قصصهم.

تعمل سوسنة مع الوحدات الخاصة التي تأسست للصراع مع المتعسفين ومغتصبي النساء ومرتكبي أعمال العنف المنزلي. لم يعد بإمكان الرجال الأشرار المتجبرين الجبناء الاستقواء على نساء بيوتهم على الأقل. لقد كانت الحكومات في السابق تغير أشياء لا تُرى، لا يفهمها سوى الاقتصاديين، فكرتْ، أما هؤلاء فيعلمننا أن نعيش حياة مختلفة.

كانت ريبيكا على وشك الخروج من المكتب عندما رن الهاتف. وكانت إيفا هي المتصلة.

ـ اسمعي يا ريبيكا، هناك مظاهرة نساء ضخمة أمام مكتبي. يجب أن تأتي.

ـ ماذا يردن؟

ـ «عدالة»، هذا ما تقوله اللافتات «السجن للقاتل».

- لا يمكنني الذهاب يا إيفا، إنني بانتظار سفير إسبانيا. زبائننا الإسبان قلقون بسبب تأخير طلبية الزهور الأخيرة ولما سيحدث الآن. أحتاج إلى طمأنتهم ومنحهم الثقة.

- حسن، لا بأس. ما هي إلا رغبة مني في أن تشاركيني رؤية هذا المشهد. سأخرج للتحدث إلى النساء. إنني سعيدة ومؤيدة لمطلبهن. لقد حان الوقت ليحدث ذلك.

- أخبريني بالمزيد - طلبت منها.

- شيء بديع - قالت لها بتأثر واضح - يوجد حشد كبير، لا أرى إلى أين تصل الجموع، ولكنهن كثيرات. يرفعن لافتات: «من جرح بيبيانا؟ فليدفع الثمن». «لا نريد عنفًا». «قومي بعملك يا إيفا». وأشياء أخرى من هذا القبيل.

- ولكن لم يتم التوصل إلى أي أثر للجاني بعد.

- لدي حدس ببعض الخيوط وأقوم بالمتابعة، ولكن لا شيء مؤكد.

- هل أخبرتِ إيفي؟

- كل وسائل الإعلام موجودة، البعض يصورون المسيرة وآخرون هنا خارج المكتب يريدون مقابلتي بشأن التحقيق.

- أتمنى لك التوفيق يا أختاه، يجب أن أتركك، لقد وصل السفير - رأت ريبيكا سكرتيرتها سارة تومئ لها من باب المكتب.

نساء في الشارع ورجال منزليون

عندما تلقتْ مكالمة إيفا، كانت مارتينا في الطريق إليها. لقد بدأت المظاهرة كتجمع صغير في منطقة الأسواق وفاقت في توسعها كل توقعات من نظّمنها. وفي خطبتها أمام الحشود، تقدمت آنا بيخيا، القائدة المتحمسة لحركة نساء الاستقلال الذاتي، باقتراح التوجه نحو وزارة الدفاع للمطالبة بالقبض على المسؤول عن محاولة الاغتيال ومعاقبته. تلقت مارتينا اتصالًا من الشرطة تطلب منها تعليمات حول السماح بالتدفق الشعبي، فوافقت مارتينا على السماح للتظاهرة وقالت وهي أكثر من سعيدة.

- احرسنهن، وفرن لهن الحماية وافتحن لهن الطريق.

وصلتْ إلى مكتب إيفا، ومن خلال النافذة شاهدتا معًا اقتراب البحر البشري.

- سيكون عليكِ الخروج للتحدث إليهن - قالت مارتينا بحماسة وسعادة لا تتسع لهما نفسها.

- ماذا أقول لهن؟ ليس لدينا سوى شبهات.

- أنا أرى أن تعدينهن بتحقيق العدالة، وأن تخبرينهن بأنه عليهن البقاء متيقظات لأنه لا بد لنا من الخروج من هذه الأزمة معًا وأكثر قوة. وحدثيهم ببعض الطرائف عن (ح.ي.إ.)... أتسألينني أنا، وأنت خطيبة أفضل مني بكثير؟ المهم أن يشعرن أنهن يتمتعن بدعمنا، وأن يدركن أننا سعيدات بخروجهن إلى الشوارع.

ابتسمت إيفا. لم تكد تعرف النوم منذ محاولة الاغتيال. كان ذلك ظاهرًا على وجهها. لقد سجلت التحريات وجود تحركات مشبوهة لبعض الموظفين السابقين، من المعادين الشرسين للحكومة. وهي تشك بالقاضي خيمينيث، وبالرئيس السابق باكو بويرتاس، والأصولي إيميليانو مونتيرو، ولكنها لم تتوصل إلى الهدف بعد. والأسوأ من ذلك أن طاقتها التي لا تكل قد بدأت تخونها. وقد بلغ بها الإحباط حدّ التفكير بأنها ستنهار تماما دون مفر. لهذا فسرت المظاهرة على أنها نَفَس جديد لها، مثل ناقوس الحكم في مباراة ملاكمة.

ـ لقد أنقذت هؤلاء النسوة حياتي للتو ـ قالت لمارتينا ـ. انظري كم هو جميل المشهد؛ أضافت وهي تشير عبر النافذة إلى الحشد متعدد الألوان، واللافتات الجريئة، المكتوبة على قطع كرتون متنوعة ورخيصة، وبصورة متسرعة.

ـ هيا، اخرجي للتحدث إليهن، قفي فوق الدبابة. سأقول لسكيرتيرتك فيوليتا أن تجهز المايكروفون. لا بد أن يكون قد أُعد كل شيء، هيا، أججي حماستهن.

دخلت إيفا إلى الحمام، مرّت بيدها على شعرها وخرجت مستعدة للصعود فوق الدبابة القديمة، تلك الشهادة عن حروب سابقة، والموضوعة كنصب عند مدخل الوزارة.

عندما خرجت إيفا، فتحت مارتينا النوافذ كي تسمع. سمعت الصخب والتصفيق. رأت هيئة إيفا الضئيلة والقوية، والشعر الأحمر المربوط في عقصة غير منتظمة، بينما هي تصعد برشاقة إلى الدبابة. إنها تحب جميع رفيقاتها، ولكن إيفا هي أقربهن إليها؛ بل كان يصل بها الأمر أحيانًا إلى التفكير بأنها تعشقها. لقد كانت وحيدة أيضًا. ولهذا، كثيرًا ما كانتا ترافق إحداهما الأخرى، تذهبان معًا إلى البحر، تلعبان الشطرنج، تشاهدان

أفلامًا. وبتعاونها مع إيفا وكارلا برافيساني وإيفي أنجزن معًا برنامج تلفزيون الواقع عن الرجال المنزليين الذي حقق نجاحًا خرافيًّا في فاغواس. ضحكت وحدها وهي تتذكر ذلك.

«الأبطال المنزليون»، بهذا الاسم عمدن البرنامج. لم يتصورن وجود كل ذلك العدد من المتطوعين، ولكن كثرًا أغرتهم جائزة الحصول على بيت جديد، بأثاث كامل، في أحد المشاريع السكنية الجميلة ذات البيوت مسبقة الصنع التي شيدتها الحكومة. جرى اختيار خمسة من بين المرشحين الكثيرين. وفي كل أسبوع يقوم فريق تلفزيوني بتصوير واحد منهم، منذ الصباح حتى الليل، بينما هو يقوم بالأعمال المنزلية. ويبث البرنامج الاستعراض يوميًّا. وفي نهاية الأسابيع الخمسة، قام الجمهور ولجنة محكمين وربات بيوت بالتصويت للأفضل. المشاركون: سيلفيو، وأدولفو، وخيمي، وخوير، وبوانيغريس، جميعهم آباء أسر، ومن الموظفين السابقين في الدولة، بعضهم أكثر يسرًا من الآخرين. وكانت ممتعة جدًّا رؤيتهم وهم يتعاملون مع حفاضات أطفال ملوثة بالبراز كما لو أنها قنابل نووية، والقرف مرسوم على وجوههم، بينما هم يغلقون أنوفهم. ومن أجل تنظيف مؤخرات الأطفال، يستخدم أقل واحد منهم عشر فوط مبللة أو نصف لفافة ورق صحي. وبوانيغريس الذي كان ضابطًا عسكريًّا من قبل، نظم أبناءه كفرقة عسكرية وكلفهم بالعمل بينما هو يشاهد برامج رياضية (لم يكسب الجائزة طبعًا). أما خايمي فلم يكن يعرف طهو أي شيء سوى اللحم المشوي، ويقضي فترة الصباح كلها عند موقد الشواء، تاركًا تنظيف البيت لابنته.

أما سيلفيو الذي لديه غسالة، فقد انكمشت عنده الملابس كلها. فكان على أبنائه لبس بنطلونات مزمومة وقمصانًا تبدو كأنها ترجع إلى أيام الهيبيين؛ وقد تمثل عذاب أدولفو في تنظيف الحمامات. وكان يحافظ على

البيت مرتبًا لأنه يخبئ كل ما هو غير مناسب، بدسه في أي دُرج. وقد كان المطبخ هو التحدي لهم جميعًا، على الرغم من أنه قد تبين أنهم جميعهم يعرفون طهو الأساسيات، ولكنهم يستخدمون كل ما في المطبخ من أوعية وأدوات من أجل إعداد أي طبق بسيط؛ ويحترق معهم الرز، وتظل الفاصوياء قاسية أو تذوب سائلة، أو أنهم يذهبون إلى السوبرماركت من أجل المشتريات (هذا يفتنهم) ولكنهم يُسيئون تقدير الكميات المطلوبة فتتعفن الخضروات. وكان خوير أكثرهم مبادرة، بدأ الأسبوع بغسل بيته، بما في ذلك الجدران، مع ما تبع ذلك من إلحاق أضرار بالأثاث وبعض الأجهزة الكهربائية المنزلية التي لم ينتبه لحمايتها من طوفان الماء الذي سكبه. في البدء كان بكاء الأطفال الرضع يربكهم حين يستمر أكثر من خمس دقائق. وقد كانوا جيدين جدًّا في تحضير زجاجات الرضاعة، لكنهم سيئون في معالجة حالات المغص. أما كيّ الثياب فكان جيدًا عند سيلفيو وأدولفو. لكن الآخرين كانوا كارثيين. وقد برز معظمهم في التعامل مع الأطفال الأكبر سنًّا لأنهم لعبوا معهم كفتيان، وبدا على وجوههم حبهم لأبنائهم. وثبت أن أكثر ما يستثير حماستهم هو ريّ الحديقة. جميعهم دون استثناء كانوا يقومون بعملية السقاية في المساء، كما لو أن خرطوم الماء امتداد لذكورتهم ويعيد لهم هوية الرجولة التي ظنوا أنهم قد فقدوها في فترة الصباح.

ولأنه وسيم ولطيف لا لأنه الأكثر جدارة، فاز سيلفيو في المسابقة.

كان يروي يوم عمله كما لو أنه يعلق في برنامج رياضي؛ يصرخ «غول» عندما يصيب في إدخال مقذوف من الزبالة في سطل القمامة، ويوجه لكمة يسارية أو يمينية خاطفة بينما هو يرتب السرير... لقد جعل الناس يضحكون مقهقهين. وبناء على طلب مشاهدي التلفزيون، صار يعاد الآن بث البرنامج كل خمسة أسابيع. الجوائز كانت أكثر تواضعًا،

ولكن شهرة الظهور في التلفزيون كانت كافية لأن يتقدم متطوعون كثيرون.

يبدو الأمر غير قابل للتصديق، فكرت مارتينا، لمقدار التعليمية التي تكشف عنها ذلك البرنامج الاستعراضي، وقد كان ذلك واضحًا؛ ففي نهاية الأسبوع، بصورة عامة، يتمكن المشاركون من القيام بالعمل بصورة جيدة؛ بل تكون جيدة إلى حدّ أنهم يبدؤون بإدراك أن المشكلة ليست في أن العمل سيكون صعبًا، وإنما تحديدًا في روتين وجوب القيام به يوميًّا، وفي التعب الذي يسببه لهم العمل ويخلفهم بلا طاقة للاهتمام بأنفسهم، وكذلك عزلة بقائهم محشورين في بيوتهم. وعبثية انقضاء حياة المرء كلها في تلك الأعمال وحسب، هذا ما خرج يقوله أدولفو في المقابلة النهائية في التلفزيون؛ إذ لا يتبقى للمرء وقت حتى للتفكير. وقال خيمي، لا بد من دفع أجور مقابل هذا العمل، لقد قتلني القيام بالطبخ ثلاث مرات، يومًا بعد يوم، قتلني حقًّا، لست أنفع لهذا العمل.

يا للمزبلة، لم يخطر ببالي قط أن كل تلك الكمية من الزبالة تخرج كل يوم! صرخ خوير.

الاستفتاء الأخير حول المشاركة في العمل المنزلي كان مشجعًا.

ومع ذلك، لا تزال هناك مسافة لا بأس بها من طريق يجب اجتيازها. ففي حالة زوجين يعملان كلاهما، يقوم الرجل بثلاث ساعات عمل في المهمات المنزلية مقابل ست ساعات للمرأة. وكانت النتيجة الأكثر أهمية في الاستفتاء هي أن الزوجين الأكثر سعادة هم أولئك الذين يقومون بأفضل توزيع للعمل المنزلي فيما بينهم.

كانت مارتينا تسمع نتفًا من خطاب إيفا. الصوت تحمله الريح لأنها تقف وراءها. وأخيرًا رجعت إيفا. ألقت ماء على وجهها. لقد جاءت متعرقة، ولكن مشرقة.

- هل سمعتِ؟

- لم يكن الصوت يسمع جيدًا من هنا.

- لقد حدثتهن عن ليسيستراتا، بطلة أرستوفانيس. فمن أجل وقف حرب أثينا ضد إسبارطة، قررت النساء الامتناع عن ممارسة الحب مع رجالهن ما لم يتوصلوا إلى اتفاق سلام. وإذا ساءت الأمور هنا، قلتُ لهنَّ، ها قد أصبحتن تعرفن أن لدينا هذه الوسيلة: السيقان المطبقة.

عانقتها مارتينا مودعة بقوة، أنتِ عظيمة، قالت لها، وأرجو ألا نصل إلى ذلك.

سيليستي

كنزة سيليستي الوردية! أمسكتها بيبيانا وتلمستها لتشعر بابنتها حين كانت في السنة الثالثة من عمرها، الطفلة السمينة، وجه مدور لا يُقاوم، تتمتع منذ يوم ولادتها بهبة الإغواء كما لو أنها هي من اخترعتها. ومع ذلك، لم تكن تلك الذكرى واحدة من أفضل ذكرياتها؛ إذ إنها نسيت الكنزة في أول روضة أطفال أخذتها إليها، وفضلت ألا تعود إليها مرة أخرى، سواء معها أو بمفردها. لقد كانت تجربه سيئة لكلتيهما، كانت تلك هي المرة الأولى التي ستبقى فيها الطفلة وحدها، أقنعتها مديرة المكان بأن تذهب على الرغم من صرخات سيليسي ورفسها بساقيها. فهذا ما يحدث عادة للأطفال. يبكون قليلًا ثم يهدؤون، وينغمسون في اللعب بسعادة. لم تشأ هي التصرف كأم مستجدة، شديدة الحرص ورعديدة؛ وبينما هي تسمع ولولات الطفلة، ركضت لتركب السيارة وغادرت وهي تقسم للطفلة أنها لن تتأخر.

الأطفال الآخرون يهدؤون بعد قليل، لكن سيليستي لم تهدأ. اتصلوا بها كي تأتي لتأخذها، وعندما حملتها بين ذراعيها، كانت الصغيرة تتعرق بغزارة ووجهها مُحمر من كثرة البكاء. وفيما بعد، لم تعد تقبل البقاء بعيدة عنها لحظة واحدة. فإذا غابت عن نظرها، تبدأ الصراخ كمن بها مس. وعندما أخذتها بعد سنة من ذلك إلى روضة أطفال أخرى، كان عليها أن تقضي أسبوعين وهي تقرأ في صالة الاستقبال؛ بحيث يمكن لسيبيستي إذا ما احتاجت إليها في أي لحظة أن تعرف أنها موجودة هناك. وهكذا إلى أن أحست بالأمان.

تلمست بيبيانا الكنزة، دست أنفها في القطن متراص النسيج. أغمضت عينيها، ومن بعيد، من بعيد جدًّا، حسبت أنها تسمع صوتها، ليس صوتها وهي طفلة، وإنما صوت سيليسي التي خلفتها للتو في الميدان بعد الاجتماع الحاشد.

ـ ماما، يجب أن تستيقظي يا أماه، استيقظي يا أمي، لا تذهبي.

يرتد الصوت، يشكل دوائر وحيدة المركز كما تفعل الأحجار في الماء، استدارت بيبيانا بلا وزن، طفت في الهواء مثل حشرة مجنحة. انمحى العنبر من تحت قدميها، ورأت حجرة مستشفى وابنتها ترتدي بنطال جينز محكم عليها وقميص بلا أكمام، وتنحني على أحد يرقد على السرير، امرأة نائمة. رأت وشم القمر الذي على كتف سيليستي يهتز. إنها تبكي.

ـ عليك أن تعودي يا أماه ـ قالت بصوت خافت جدًّا ـ ارجعي يا أمي، لا تظلي حيث أنت. ارجعي، أماه.

في اللحظة التي أدركت بيبيانا أن المرأة التي على السرير إنما هي نفسها، أُغلقت أمامها نافذة هذا العالم. تملكها رعب سحيق. ووجدت نفسها من جديد في العنبر. بدأت تركض بهستيرية باتجاه الباب. كانت تتحرك دون أن تنتقل من مكانها، جسدها يضطرب دون أن يتزحزح من مكانه. ورأت، إلى جانبها، مرور الرفوف كما لو أنها تُرى من نافذة قطار. إنها تدوخ، تدخل في غيبوبة، وفكرت، إنني في خطر، سأموت، فكرت، إذا لم أفعل شيئًا سأظل حبيسة هنا إلى الأبد. خطر لها أن تهمس بكلمات، كلمات بها حرف آ، كلمات بها ب، كلمات بها ج، احتضنت نفسها وتحمست متخذة دور الأم مع نفسها بالذات. حاولت التقدم، وصلت إلى الباب، الخروج من هنا. راحت تطمئن تدريجيًّا. بدأت تشعر بحضور يواسيها. كان إحساسًا تكاد لا تسعى إلى فهمه وتتكور على نفسها، ولكنها

لمحت بصورة غامضة ما يشبه حبلًا مجازيًّا، نقطة استناد يمكنها التمسك بها للدفع قليلًا قليلًا والاقتراب من الباب.

إمير ينظر إلى بيبيانا

توقف إمير عند بوابة المستشفى. رحلته الجنونية، أرق الليلة السابقة، الرحلة التي قضم فيها أظفاره، مثلما كان يفعل في طفولته، ساعداه على بقاء ذهنه مركزًا على التعجل حتى الوصول إلى حيث بيبيانا. والآن، وقد صار على بُعد خطوات، تعكرت عيناه، متأثرًا بكميات الزهور التي على الرصيف، والشموع، واللافتات المُعبرة عن المحبة، راوده شعور بأن ساقيه تتثاقلان بصورة رهيبة، وأن خوفًا شديدًا ينقض عليه.

أليسيا، سائقة بيبيانا، التي جاءت به من المطار، حين رأته يتعرق بغزارة ويبدو شاحبًا ومتوعكًا، ساعدته على الجلوس في حجرة الاستقبال وهرعت بحثًا عن ماء.

وبتكتم، دون أن تسأل أو تقول شيئًا، جسلت إلى جانبه. أمسكت يده. ابتسمت له.

- متأسف - قال إمير - حتى الآن لا أكاد أصدق ما حدث - شدَّ على يد الفتاة. أسند رأسه إلى مسند الكرسي. نظرت أليسيا إلى الدموع تسيل على خديه من عينيه المغمضتين. تنفس إمير بعمق. كان يمكن له أن يبكي بلا كابح، ولكن عليه أن يهدأ، قال ذلك لنفسه. فسيليستي تنتظره إلى جانب بيبيانا، وهو لا يريد أن تراه منهارًا، بينما تبدو هي متحكمة بنفسها، راشدة، هادئة، ناضجة.

استوى في الكرسي، مسح وجهه وعينيه بالمنديل. استجمع قواه وتوجه مع أليسيا إلى الغرفة.

عانق حارسة الباب، أرلين المهيبة، ودخل. اقتربت سيليستي وخوانا دي اركو منه. بكت سيليستي هنيهة. مسحت دموعها وأمسكته من يده حتى أوصلته إلى حافة السرير. ابتعدت خوانا دي أركو بعد أن حيّته، بتجبر، ولكن بعينين مضمختين.

ـ سنتركك معها ـ قالت سيليستي ـ. سيأتي الطبيب ليتحدث إليك.

هز إمير رأسه دون أن يزيح بصره عن بيبيانا.

المثير للفضول أن رؤيتها بعثت فيه إحساسًا براحة لا متناهية. فعلى الوسادة، وهي ثابتة ومتصلة بمجموعة أجهزة، بدت كحالة من التناقض وانعدم التماسك. كان رأسها ملفوفًا بأضمدة. بينما لون البشرة النحاسية الفاتحة، يشكل ضدًا لخلفية بياض الملاءات. لونها يبدو جيدًا. وقد ذكّره بأول مرة رآها عارية، ببشرتها التي بلون الكراميلا المضاءة بشمس غروب مونتيفيديو.

أمسك يدها وقبّلها. انحنى وقبّل شفتيها، جبينها. رغب في الاستلقاء إلى جانبها، احتضانها. أين أنت يا حبي؟ همس في أذنها. عِيشِي، عِيشِي، لا تتركيني في انتظارك.

في الأيام التي تلت، أيام لقاءات مع الممرضات والأطباء، تحريكها وحقنها، سيشعر إمير في بعض اللحظات برغبة في هزها، مناداتها، إيقاظها وإخراجها بحنق غمه من ذلك النوم العميق، ولكنه اكتفى في ذلك اليوم الأول بلمسها، مداعبتها، مقتنعًا بأنه يمكن، في أي لحظة، لصوته ومداعباته أن توقظها في نهاية سعيدة، كما لو أنه الأمير المسحور في حكاية حوريات.

دخل طبيبان إلى الغرفة، أحدهما متوسط العمر والثاني أكثر شبابًا.

إنهما جديان ورسميان، لكنهما لطيفان، قالا إنهما من كُلفا بإدخال بيبيانا المستشفى وعلاجها.

- إنها حالة فريدة جدًّا - قال أكبرهما - لم نشأ تقديم معلومات كثيرة للجمهور لأننا نحن نفسينا في حالة ترقب. إن حالتها مشابهة لحالة سلفادور كابانياس، وهذا لعب كرة قدم من باراغواي - قال الطبيب بينما هو يرسم رأسًا ودماغًا على الورق - أنكره الآن لأن كابانياس استعاد عافيته تمامًا - ابتسم - كنا نعتقد أن الرصاصة قد لامست الجانب الأيسر، ولكن الحقيقة أن رصاصة دخلت في ما نسميه المنطقة الصامتة من الدماغ وواصلت طريقها حتى القسم الخلفي؛ حيث ما زالت تستقر - كان يتكلم بينما هو يرسم على الورق كي يريه إياه - وكنتيجة للصدمة، تشكلت خثرة صغيرة في المنطقة اليسرى، وقد استأصلناها بنجاح. حدث تورم خفيف في المخ، وكي نتأكد من عدم وجود ضغط على الكتلة الدماغية، قمنا بإحداث ثقب في القحف. لهذا تراها مضمدة على هذا النحو. لدى وصولها إلى المستشفى، مرت بعدة لحظات صحو، نطقت اسمها، واسم ابنتها، واسم حضرتك. قررنا أن نحرض بقاءها في الكوما كي تظل مستقرة. تنفسها، ومستوى الأكسجة في الدم، وضغطها، كل هذا جيد. المشكلة أننا عندما نحاول إخراجها من الغيبوبة، لا تستجيب. ولا ندري ما السبب. هناك بعض الجزئيات الضئيلة المستقرة في الكتلة الدماغية، وهي صغيرة جدًّا، الصورة الكهربية لدماغها تسجل اختلالات طفيفة، لكن الدماغ فعال. أما التوقعات، وإن كان من المعقد والصعب تحديدها بدقة، إلا أنها ستكون جيدة جدًّا، ولا تشير فقط إلى إمكانية بقائها على قيد الحياة، وإنما استعادتها للحياة أيضًا. ومع ذلك، فإن واقع أنها لا تزال في غيبوبة يثير القلق. لا وجود لأذى في البصلة السيسائية. ولا وجود، عند هذه النقطة، لأي ضرر يفسر الأمر، ولكننا نأمل أن تكون

مسألة وقت. الدماغ، كما تعرف، ما زال سرًّا غامضًا بالنسبة لتحديد المكان الدقيق الذي توجد فيه القُدرات. ولهذا، إلى أن تستيقظ، وحسب الوقت الذي سيستغرقه استيقاظها، سنعرف كيف حالها. ليس لدينا حاليًّا ما يمكن عمله سوى الانتظار.

- ولكنك تقول إن هناك رصاصة مستقرة في الجزء الخلفِي. ألا يتوجب إخراجها؟

- ولا بأي حال - تدخل الطبيب الشاب - يمكن لها أن تعيش بهذه الرصاصة المستقرة هناك. ولكنها في منطقة معقدة، المنطقة التي تستقر فيها الغرائز الأولية، بالقرب من الدماغ الحوفي. وقد تؤدي محاولة إخراجها إلى أضرار لا علاج لها. أعرف أن لكلامي وقعًا مثيرًا للذعر، ولكن هذه هي أفضل طريقة للعمل.

- والباقي، ماذا عن الطحال؟

- اضطررنا إلى استئصاله. ويمكن لها أن تعيش من دونه. البنكرياس يحل محله أوتوماتيكيًّا - قال الطبيب الأكبر سنًا.

- نحن مطمئنون من هذه الناحية. لقد تعافت بصورة جيدة، ودون حمى

- أضاف الشاب.

- فلننتظر يا إمير. فلننتظر أن تجد هي نفسها طريقة للاستيقاظ. أعتقد أنها ستفعل ذلك... حسنًا، هذا ما نرغب فيه جميعنا - ابتسم الطبيب الأكبر سنًّا - ولكن العلم عمل، حتى الآن، كل ما يمكن عمله.

- ما الذي يمكنني أن أفعله أنا؟

- سنرسل ممرضة لتبين لك ما هي التمارين التي يجب أن تُجرى لها، مرتين يوميًّا على الأقل. ونحن موجودون دومًا لتوضيح أية استفسارات أو شكوك؟

العيش مع رصاصة مستقرة في الدماغ. يا لهذه الأمور، فكَّر. جلس على الكرسي وتراخى. ظل نائمًا بعمق، دون أن يفلت يد بيبيانا.

استنساخ كامل للمقابلة الثانية مع السيد خوسيه ديلا أريتمتيكا

إ.س.: ماذا لديك يا دون خوسيه؟

خ. آ.: هنالك إشاعات كثيرة أيتها الوزيرة، وتقولات كثيرة. النساء مغمومات والرجال يتفكرون. سرت عند المستشفى. أعتقد أنكِ رأيت كميات الزهور والقناديل التي وضعها الناس. لقد تذكرتُ ما جرى مع تلك الأميرة الإنكليزية.

إ. س.: الأميرة ديانا.

خ. آ.: أجل، هي نفسها.

إ. س.: وماذا سمعتهم يقولون؟

خ. آ.: لاحظي أن الآراء تتراوح بين القول إن الرئيسة جنت على نفسها حتى التساؤل إن لم يكن القاضي خيمنيث هو من أمر بقتلها للانتقام؛ حيث إن الرئيس بويرتاس قد منحه العفو.

إ. س.: لقد كان ذلك مصيبة. لو أنه ظل مسجونًا عندما توليت منصبي، لكان واحدًا من الذين وضعتهم في الأقفاص بالساحة العامة.

خ. آ.: لستُ أدري أيتها الوزيرة إذا ما كانت مسألة الأقفاص هذه ستؤدي إلى نتيجة.

إ.س.: لا أستطيع أن أصدق أن هذه الفكرة قد تسببت بصدمة كبيرة لكم أنتم الرجال. لم أفكر قطّ أنكم ستثيرون من هذه الضجة، وأن تخرجوا

بكل تلك الخطابات حول «الكرامة الإنسانية». كيف لم يصدر عنكم أبدًا أي رد فعل كهذا وأنتم ترون قصص الفظائع التي يقترفها الرجال ضد النساء؟

خ. آ.: معك حق جزئيًا، ولكن وضع ذلك الوشم على جباههم؟ إنه عمل قاس جدًا أيتها الوزيرة، عمل شديد القسوة. لا يتناسب معكن. فقد حققتن أشياء جيدة كثيرة، لكن مسألة الأقفاص والوشم لا أستطيع تقبلها.

إ.س.: الوشم أشبه بوسيلة تنبيه، هل تفهمني؟ إنه صغير جدًا، ولا يستحق كل هذا اللوم. فمغتصبو النساء يستحقون هذا وما هو أكثر منه. فليشكروننا لأننا لم نخصِهم. ولكن انظر يا دون خوسيه، من أجل أن تفهم، الفكرة هي أن يتعرض الرجال الذين يقترفون أعمال الاغتصاب ضد النساء إلى العار نفسه الذي تتعرض له ضحايا الاغتصاب. السجن عقوبة تبدو خفيفة عندما يكون أحدنا شاهدًا على الأذى النفسي الذي تعاني منه المغتصبات. نساء كثيرات لا يتقدمن بشكوى ضد الجريمة بسبب الخجل والعار. ولهذا السبب فكرنا أن الوشم وعرض المغتصبين في أقفاص هي العقوبة الأكثر مناسبة لجريمتهم. نحن نعرف أنه إجراء قاس، ولكن اغتصاب النساء جائحة رهيبة علينا أن نوقفها بأي ثمن.

خ. آ.: ولكن لاحظي، أنا أقول شيئًا، لماذا لا تعاملونهم بالحسنى؟ أنا أرى أن حملتكنّ الانتخابية عملت بصورة جيدة لأنكنَّ عرضتنَّ شيئًا مختلفًا، عرضتنّ ما نحتاجه جميعنا: عبادة الأم. لقد كانت حملتكنَّ مرحة جدًّا. جنونية بعض الشيء وهذا منحها فلفلًا حارًا؛ لقد افتتن الناس لأنكن تعرفن أنه إذا كان هنالك شيء في هذه البلاد، فهو حس السخرية، وقد التقط الناس كل شيء: المعانقات، البكائيات، الطبخيات، والرئيسية وأفكارها العاصفة تلك، مثل إدخال مادة الأمومة في المدارس وتعليم البنات الكارتيه منذ الصغر.

إ. س.: سوف ترى كيف أنه لن تكون هنالك في الجيل القادم امرأة واحدة يضربها زوجها.

خ. آ.: ولكن إذا أردتن الاستمرار لا يمكن لكنّ رمي الرجال خارجًا.

إ. س.: ولكن يا دون خوسيه، العاملون في الدولة فقط هم من أرسلناهم إلى بيوتهم، وقد أرسلناهم مع راتب ستة شهور، وقدمنا لهم عملًا ببناء مدارس ودور حضانة للأطفال في الأحياء.

خ. آ.: أجل حسنًا... أنا لن أجيء لأقول لكنّ كيف يجب عمل الأشياء.

إ. س.: أخبرني، ألا يوجد رجال سعداء؟ ألم تسمع أي رجل يقول إنه سعيد؟

خ. آ.: بلى، بلى، لن أقول لك إنهم غير موجودين؛ بل لقد لفت انتباهي أنه لم تنشب أي حرب بعد كل ما فعلتنَّ وحركتن. لدي صديق يشعر أنه سعيد جدًّا مع أبنائه، أما بيترونيو المسكين الذي لا أبناء لديه، يقول إنه لا يستطيع أن يفسر ماذا فعلت زوجته لتتمكن من أن تقضي في البيت كل تلك السنوات التي كان يعمل فيها ولا يسمح لها أن تخرج للعمل لأنه يغار عليها. أما الآن، بعد أن صارا عجوزين، لم يعد يهمه. ولكنه يقول إنه لا يوجد هناك ما يعمله أكثر سقالة الحديقة.

إ. س.: أليس عليه أن يرتب بيته وينظفه، وأن يطبخ؟

خ. آ.: لا تروق هذه الأعمال للمسكين.

إ. س.: كثيرات منا نحن النساء لا تروق لنا هذه الأعمال ولكننا مضطرات للقيام بها. أنا على سبيل المثال، أكره الطبخ.

خ. آ.: أنا محظوظ لأن زوجتي طاهية عظيمة وتستمتع بالطبخ. عليّ أن أتحمل بدانتها فقط. تصوري أنني آكل، ومع ذلك لا أسمن. لابد أن السبب هو أنني أقضي النهار كله متجولًا في الشوارع.

إ. س.: (صوت كرسي ينزلق) يجب أن أذهب إلى اجتماع يا دون خوسيه. هل لديك شيء خاص تريد قوله لي؟

خ. آ.: كل ما هنالك أنني أحب تبادل الحديث معك. أنت امرأة ذكية جدًّا. ليس لدي من تكلم معه عن كل هذه الأمور التي تحدث لي... ولكن، حسنًا... لقد طلبت اللقاء بك لأن لدي طرف خيط على ما أعتقد.

إ. س.: (صوت كرسي ينزلق) كلي آذان مصغية.

خ. آ.: لإحدى بناتي صديقة، اسمها إرنستينا، اتصلت بابنتي قبل أيام وهي تبكي بشدة. ذهبت ابنتي سوسنة لرؤيتها. قالت لها الأخرى إنها تعرف شيئًا وأنها ستموت إذا لم تخبر أحدًا به، وهو شيء له علاقة بما حدث للرئيسة. وكانت على وشك أن تبوح بما لديها عندما دخل عليهما زوجها. وهو يدعى ديونيسيو. أنا أعرفه. يعمل مراسلًا. امرأته تخاف منه لأنك لا تعرفين عدد المرات التي خلفها فيها ذلك الرجل في أسوأ حال. عندما كانت حديثة العهد بالزواج، اعتادت أن تأتي كل شهرين أو ثلاثة شهور إلى بيتنا بحثًا عن مساعدة لأن الرجل يعذبها.

بعد ذلك تحول. دخل إلى إحدى تلك الطوائف التي تتكلم لغات. «لا تبكي أكثر»، أظن أن هذا هو اسم الطائفة، وتحول إلى متظاهر بالتقوى. وحتى وهو كذلك ظل يضربها، ولكن أقل من السابق. كان يضربها ثم يبكي على الأقل ويطلب منها الصفح. كيف تفهمين هذا. ولكن لا بأس، ما حدث عند دخول ديونيسيو إلى البيت أن المرأة تجمدت، أما الزوج الذي كان يعرف ابنتي جيدًا لأنها وزوجته صديقتان منذ الصغر، فقد تفوه ببعض البلاهات، قال لابنتي إنه اعتاد أن يرى السيدة العذراء، وأن العذراء تظهر له كل يوم في المغسلة بينما هو ينظف أسنانه، وأنها تبكي على البلاد؛ لأن الجميع سوف يعاقبون بسبب نساء (ح.ي.إ.). أليس صحيحًا أن ظهور العذراء لأحدنا يعني أنه يجب على هذا الشخص أن يفعل شيئًا يا سوسنة؟ وجه السؤال إلى ابنتي. أخبري امرأتي هذه حتى لا تظل بلهاء مثلما هي.

لم تعد سوسنة تعرف ما يمكنها أن تقوله، ولا أن تفهم شيئًا من ذلك كله، ولكنها أحست أن ثمة شيئًا كريهًا. بعد ذلك طلبت منها إرنيستينا أن تذهب، وأن تنسى ما قالته لها، وأن ما قالته مجرد بلاهات.

هذا هو ما أردت أن أخبرك به أيتها الوزيرة.

(مواد تاريخية)

مذكرة

من: أمانة الجمعية الوطنية

إلى: عضوات المجلس السياسي لـ (ح.ي.إ.) المحترمات،
إيفا سلفاتييرا، ريبيكا دي لوس ريوس، مارتينا ميليندِيث، إيفيخنيا بورتا

الموضوع: رئاسة بالوكالة

عضوات المجلس السياسي لـ (ح.ي.إ.) المحترمات:

مثلما هو معروف لحضراتكن، فإن الإصلاح الدستوري في أيار/ مايو من العام الجاري قد ألغى منصب نائب رئيس البلاد. ويقرر الإصلاح المذكور أنه: «في حالة موت صاحب المنصب التنفيذي، تختار الجمعية الوطنية بصورة انتقالية مجلسًا من ثلاثة أشخاص، يكون اختصاصه إدارة الحكم خلال الوقت الضروري، بصورة صارمة، للدعوة إلى انتخابات؛ بحيث لا يشغل منصب رئاسة الجمهورية سوى مواطن أو مواطنة منتخب مباشرة لهذا الغرض».

أود لفت انتباهكن بشأن التحدي الدستوري الذي نواجهه حيال حالة الكوما التي صارت إليها رئيستنا بيبيانا سانسون، بعد الأحداث المؤسفة المعروفة للجميع. فالرئيسة سانسون غير قادرة على القيام بمهامها، ولكنها لم تمت كذلك، وبهذا نجد أنفسنا أمام فراغ قانوني لم يلحظه

الإصلاح الدستوري الذي صوتت بالموافقة عليه أغلبية هذه الجمعية؛ لأنه إذا كان بالإمكان فقط اختيار مجلس للسهر على تنظيم وإجراء عملية انتخابية؛ فإنه لا وجود لسند ولا صيغة قانونية، ولا إجراء مقرر لتعيين رئاسة بالوكالة، أو نيابة رئاسة، وهو ما سيكون مناسبًا أكثر في هذه الحالة.

لا حاجة للقول إن البلاد تحتاج إلى قيادة كفوءة تستطيع إنجاز مهمات المنصب التنفيذي إلى أن يتحدد وضع الرئيسة سانسون. وبناء عليه، ونزولًا عند رغبة رئيسة الجمعية العامة ندعو جميع الممثلات المنتخبات من حزبها، حزب اليسار الإيروتيكي، إلى الجلسة غير العادية؛ حيث سيُناقش قانون تعديل جزئي للدستور يجب صدوره من أجل حل مسألة الفراغ القانوني الذي أشرنا إليه.

مع تمنياتنا بالشفاء العاجل لرئيستنا، أتقدم إليكم بوافر التقدير والاعتبار

أضاليا سوليس
أمينة الجمعية الوطنية
لجمهورية فاغواس.

من سيكون معها أيضًا في العنبر؟ أية أرواح أخرى تطفو هائمة في ذلك الفضاء؟ بيبيانا تسمع أصواتًا بين الفينة والفينة. دمدمات. لو أنها تسطيع الخروج من هناك، تقول لنفسها. ما الذي تفعله وراء الباب؟ ما قبل الأخيرة كانت متعسفة وتساءلت كيف لم يكن من نصيبها رؤية النفق المضاء، رؤية ذلك الضوء الأبيض، وإذا لم يكن هذا هو الليمبوس فأين تراها تكون. الليمبوس! ضحكت وهي تتذكر أن البابا بندكت السادس عشر، الألماني، كان قد ألغى الليمبوس. حين قرأت الخبر بدا لها طريفًا ولكنه أشبه بإهانة لبراءة أناس مثلها؛ إذ حمّلت نفسها،هي طفلة، مشقة تخيل الليمبوس على أنها روضة الأطفال الملائكية؛ حيث يعيش حياة أبدية سعيدة أولئك الأطفال الصغار الذين ماتوا قبل أن يتوصل آباؤهم إلى تعميدهم.

وبعدم وجود الليمبوس ـ فكرتْ ـ من المنطقي أن أكونِ في الجحيم. كان الظلام كثيفًا، لكنها استبعدت ذلك. لن يكون عدلًا، قالت لنفسها. لن تدّعي أن حياتها كانت ناصعة لا تشوبها شائبة، ولكنها متأكدة من أنها لا تستحق عذابًا أبديًّا، اللهم إلا إذا كان الماوراء سيكرر ظلم ألما أمام. صحيح أنها قد عاشت مرحلة من الضياع، قبل أن تتعرف على سيباستيان، ولكنها لا تندم إلا على عدد محدود من تلك المضاجعات العابرة، وليس ذلك لاعتبارات أخلاقية، وإنما لأن أولئك الرجال ما كانوا يستحقون العناء. فممارسة سيئة في الفراش ليست إضاعة للوقت وحسب، وإنما هي مشكلة: فذلك الاضطرار إلى القيام بمهمة شرطي

المرور لأن الآخر لا يتقن حتى مجرد توجيه مركبته بالشكل المناسب. رجاءً. أو أولئك الضخام وسيئو الكلام غير الراضين عن الحجم الإكسترا طولًا، عليهم أن يثبتوا أنهم فحول بتحدثهم بأساليب الرعاع في الفراش. أو من لا يلحظون، حتى لو لم يكن الحجم مهمًا، أن التعويض ليس فكرة سيئة أحيانًا. مصاعب مهنة المضي بحثًا عن المختار. لا خلاص. ربما أكون قد سببت أحزانًا غير مستحقة لأحدهم. يمكن الندم على ذلك، ولكن لا وجود فيه لما يستحق ذهابي إلى الجحيم. لكنني أشعر بالمقابل بأن هنالك شيئًا طيبًا قد فعلته. فالتحفيز لتأسيس (ح.ي.إ.) على الأقل كان إيثاريًّا.

وبينما هي ساهية، مرت بيدها على العقد البديع الذي على الرف، فاحتل خطابها الأول أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة الأبعاد الثلاثية لذهنها. كان الصحفيون يحاصرونها. ففي تلك الأيام، وصل وفد من المعارضة إلى نيويورك وواشنطن لاتهامها أمام العالم بأنها تؤسس لنظام أبارتيد. فغيرت خطابها في الساعة الأخيرة، قدرت أنه لا يمكنها تبديد الفرصة التي أتاحوها لها، لأنه إذا كان الحديث عن الأبارتيد، فليس هناك من يتعرض للأبارتيد أكثر من النساء. فُجرتْ الفضيحة. لقد كانت الأرقام حاسمة ودوّت بصورة راسخة ومثيرة للقشعريرة في القاعة الشهيرة؛ حيث يوجد رجال أكثر مما في حلبات الملاكمة. كيف سنؤسس لنظام أبارتيد آخر؟ قالت. المقارنة سخيفة. المسألة هي تبادل أدوار. ولوقت قصير فوق ذلك. وبعد بعض العبارات الممازحة الساخرة، اتخذ صوتها نبرة كاهن: أكاد لا أصدق أننا، ونحن في القرن الحادي والعشرين، ما زلنا نناقش مسألة الاشتراكية أو الرأسمالية أو الأزمة الاقتصادية، دون أن نلحظ أننا لم نحل بعد مسألة التسلط أو التعسف داخل بيوتنا نفسها. لقد أثبتنا نحن النساء أننا قادرات على التفكير خارج ما هو سائد، والخروج

من الصندوق الأسود لهذه الكارثة المعلنة. مصير الإنسانية لم يتحدد بعد؛ لأننا، نحن، لم نعلن موقفنا بعد. وعليكم أن تتقبلوا أننا نحن من صنعنا حضراتكم جميعًا، وقد جاء دوركم الآن لأن تسمعوننا، التخلي عن الكلبية والارتيابية، وعن الخدع، والسماح لنا بحيز صغير نطالب به من أجل هذا الاختبار، من أجل إعادة اختراع المجتمع. إننا نريد عالمًا آخر، وتجنب إكمال الانسانية لدائرة وجودها بتدمير ذاتي.

كانت تحفظ الخطاب عن ظهر قلب. النساء صفقن، وصعدت بعضهن فوق كراسيهن. في ذلك اليوم أدركت أن حجم بلادها ليس مهمًا. فمثلما تقول نظرية الشواش، يمكن لفراشة تحرك جناحيها في الكاريبي أن تسبب عواصف تهز الوعي الغافل والكوكب المهمِل بأسره.

الاستبدال

ظلت بيبيانا في حالة الكوما، يسهر عليها كل من إمير وخوانا دي أركو. بحر الزهور في شارع المستشفى لم يكن يذبل. فالأزهار الناضرة موضوعة في دلاء بلاستيكية وتتجدد باستمرار. ريبيكا تنسب هذه المعجزة إلى الدَّين الذي تدين به صناعة الزهور لـ (ج.ي.إ.). فقد أولت بيبيانا اهتمامًا خاصًّا للنساء الفلاحات، ممن يقطفن الزهور ويوضبنها. وهنّ يشكرنها الآن بهذه الطريقة.

في تلك الأثناء، وجهت أمينة الجمعية الوطنية دعوة إلى الأحزاب من أجل اجتماع استثنائي لإقرار الإجراء الواجب اتباعه لحل المعضلة الدستورية لرئيسة لا يمكن اعتبارها حيّة ولا ميتة.

كانت مارتينا تهرب من وزارتها لأوقات قصيرة كي تذهب إلى المستشفى. تجلس على حافة سرير بيبيانا وتتكلم دون توقف. لقد كانت متأكدة من أن التحدث إلى الأشخاص الذين في غيبوبة مهم جدًّا من أجل عودتهم إلى اليقظة. وقد قامت هي وخوانا دي أركو، بينما إمير يتأملهما، ويضحك أحيانًا، بإخبار بيبيانا ما حدث على إثر دعوة أمينة الجمعية الوطنية.

مارتينا: أنتِ لا تعلمين يا بيبي ما الذي عناه لي الدخول إلى المكتب البيضاوي وعدم رؤيتك فيه. لقد أدركت أن لطفك اللامتناهي وحده هو الذي يخفف من تأثير قبح ذلك المكان العبثي، ولكننا قررنا الاجتماع

هناك، في مكتبك، كي نكون قريبين على الأقل من أشيائك ومكانك. خوانا دي أركو موجودة الآن هنا، إلى جانبي، وقد بذلتْ جهدًا كبيرًا في التحضير للاجتماع. وفَّرت البسكويت، والكؤوس، وأباريق الماء والقهوة، وحقيبة خضراء لكل واحدة منا مع أوراق وأقلام لتسجيل الملاحظات. يدخل المرء ويعرف أن الاجتماع سيكون شكليًا واحتفاليًّا. ولا بأي حال. كان لا بد من الجلوس واتخاذ موقف في الأمر.

خوانا دي أركو: لقد كلفوني بكتابة محضر الاجتماع فقط. ومثلما تعرفين فإن أميليا هي من تتولى عادة أمور التوثيق في القصر الرئاسي، ولكنها كانت تمارس مهامها بتصوير نسخ من الوثائق، وبين هذا العمل وذاك، لم تكن تتوقف عن البكاء بحرقة. كانت الدموع تسيل من عينيها بغزارة. لذلك أرسلتُها إلى بيتها؛ لأنني لا أريد أوراقًا مضمخة بالدموع، ولا بأي حال. لا بد من الحفاظ على نظام في الفوضى.

مارتينا: كانت بداية الاجتماع طويلة وبطيئة. كنا في حالة صدمة، في حالة إجهاد رهيب. بدا لي أن العالم بأسره يتدحرج في حركة كاميرا بطيئة. كانت ريبيكا ترتدي بدلة لونها بيج، ولكن مع حذاء رياضي، بينما ربطت إيفا شعرها فوق رأسها. وهي التي كانت شديدة الوضوح دائمًا، بدت آنذاك أشبه بكتلة من العقد.

خوانا دي أركو: ظللن لما يزيد عن نصف ساعة يتحدثن عن محاولة الاغتيال. وأنا جامدة على منضدتي واللابتوب مفتوح أمامي، انتظر أن يبدأ الاجتماع. سماعهن ذكّرني بأحاديث الكبار بعد الزلزال حين كنت صغيرة؛ أيام وأيام لا يتكلم أحد خلالها عن أي شيء آخر. خطر لي أنهم يخافون أن يبدؤوا. لم يكن من السهل التكلم عمن سيخلفك أيتها الرئيسة. أظن أنهن كنّ يدركن أن الوقت قد حان لتقبل ما حدث، وما يعنيه ذلك. ولكنهن لا يردن تقبله. رؤيتهن يتكلمن على تلك الحال سببت لي رغبة

رهيبة في التدخين، على الرغم من أنني كنت قد تخليت عن هذه الرذيلة. وأحسست بالخوف. خشيت أن يبدأن فجأة بالنيل بعضهن من بعض.

مارتينا: لا!

خوانا دي أركو: إنه أمر كثير الحدوث بين النساء لسوء الحظ (تجعد وجهها، ترفع ذقنها). بما أن الأمكنة قليلة، يقررن إخلاء الميدان بأية طريقة. ولكنني في (ح.ي.إ.) لم أر ذلك قطّ. هذا لا يحدث في (ح.ي.إ.)، والسبب بالتحديد هو أن هنالك من منحناها جميعنا زعامة القضية. أظن أنني عرفت في ذلك اليوم أن التصرف العملي يكون بتكليف شخص باتخاذ القرارات، طبعًا، والدليل ما جرى في هذا الاجتماع الأخير من لف ودوران، والوقت الذي أضعناه.

مارتينا: لا تبالغي كثيرًا يا خوانيتا. من الطبيعي أن نفضفض عن أنفسنا. يبدو أن حبك لإليزابيث سالاندر قد حولك إلى سويدية.

خوانا دي أركو: أنت ما كنتِ تراقبين الوضع مثلي. لقد بدا الحال أشبه بباليه أو لعبة كرة يد باستخدام كرة غير مرئية، تنتقل من واحدة منهن إلى أخرى. جميعهن جيدات السلوك ومهذبات جدًّا. حتى إنني تساءلت ألا يكون دخولنا نحن النساء في أزمة مثل هذه سببًا في أن يظهر لدينا ميل قسري إلى الصمت، إلى تغييب أنفسنا. ولكنني على أي حال كنت أتأرجح في الكرسي، وعندما لم أعد قادرة على التحمل، تذكرتُ جملة ترد في مذكرات مونتينغرو وقلتها بصوت عالٍ: ما العمل، هكذا قال لينين؟

(تطلق مارتينا قهقهة. تتحكم بنفسها. تخفض صوتها)

مارتينا: صرنا نرى خوانيتا كما لو أنها شبح. كنا قد نسينا وجودها هناك، تنتظر تسجل محضر الاجتماع الشهير. حسنًا، بدأنا بقراءة رسالة الجمعية. وأنا في داخلي كنت أشعر براسي يتحطم، أقسم لك، كنت أفكر

ما الذي سيكون أكثر حكمة، إذا ما تجرأت على اقتراح إيفا لتولي المنصب؛ لأنني كنت أرى أنها الأكثر كفاءة، أم أنتظر لأرى ما الذي ستقوله الأخريات، فقد كان واضحًا لدي أن المسألة هي في الخيار ما بين إيفا وريبيكا؛ كلتاهما تتمتعان بشخصية قيادية، وكلتاهما تعرفان أن كلًا منهما كفوءة للقيام بما عليها القيام به في غيابك. بقي علينا أنا وإيفيخنيا أن نختار واحدة منهما، هذه هي الحقيقة.

كانت إيفي تنظر إليَّ بطرف عينها، بينما كانت ريبيكا تقرأ. وكانت إيفا تنظر إلى أظفارها، يا لنزوتها هذه، حتى إنني كنت على وشك أن أقول لها إنها ستصبح رئيسة بالوكالة، وعليها التحكم بنزوتها تلك. إنها مشكلتنا نحن المدخنات عندما نترك التدخين؛ إذ لا نعود نجد ما نفعله بأيدينا. عندما أنهت ريبيكا القراءة، قالت إن أثاهاليا، رئيسة الجمعية الوطنية، قد اتصلت بها لتقول لها إن المعارضة، في ردها، تطرح وجوب أن يتم بأسرع ما يمكن عقد جلسة استثنائية للجمعية الوطنية. قالت إيفا إن ذلك منطقي، وأن البلاد لا يمكن أن تبقى بلا رأس. توافقت ممثلات (ح.ي.إ) مع المعارضة. وأضافت أنه علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أنه حتى إذا ما استفقتِ، فإنك ستكونين بحاجة إلى عدة شهور كي تستعيدي عافيتك. لم يكن ممكنًا تقدير مدى الضرر؛ وهل ستستطيعين العودة إلى الكلام، إلى الحركة.

أنا قلت إنه بناء على أن القانون لا يلحظ وضعًا غير محدد كالذي واجهنا، فإنه علينا رفض الدعوة إلى انتخابات ما دام الأطباء لم يتخذوا قرارًا حاسمًا بشأن الحالة. عندئذ اقترحت إيفيخنيا تعديلًا لتزويد البرلمان بسلطة تعيين وكيلة. لم يكن لمثل هذا القرار سابقة في فاغواس، ولكن هنالك سوابق مماثلة في بلدان أخرى. تحدثنا عن السخرية التي كانت ستخرج بها القذيفة ضدنا عندما ألغينا منصب نائب الرئيسة.

خوانا دي اركو: مرة أخرى رحن يقلبن الأمور، يتحسرن، ومرة أخرى كنت أنا من اضطررت إلى تركيز الاجتماع بسؤالهن من سيخترن منهن كرئيسة وكيلة.

مارتينا: تحدثنا كلتانا في الوقت نفسه. قلت أنا:- إيفا. وقالت إيفا:- ريبيكا...

خوانا دي أركو: فقلت أنا: لماذا لا نصوت؟ ولك أن تتخيلي أي جرأة تلك التي أقدمتُ عليها.

مارتينا: أنا غرقت في الصوفا حيث كنت أجل. أسندت ظهري إلى المسند. كانت عضلاتيَ توجعني. بدأت إيفا وإيفي المشي عبر غرفة المكتب، تمشيان مثلما كان يمشي الرجال في السابق وهم ينتظرون ميلاد ابن لهم. ظلت ريبيكا جالسة على الصوفا الطويلة مقابل منضدة المكتب. سوف أنفعل الآن مثلما يحدث لي كلما تذكرت ذلك. أسندتْ إيفا مؤخرتها إلى منضدة المكتب الرئاسي، نظرت إلينا جميعًا وابتسمت. قالت: لقد كان امتيازًا عظيمًا أن يكون من نصيبنا تولى الحكم كصديقات، كنساء، دون الاضطرار إلى تصنع الأمان حيال المعضلة التي علينا مواجهتها، كأشخاص واعين لواجبنا في الحفاظ على مشروع حزب اليسار الإيروتيكي. ولهذا السبب بالذات كان علينا أن نفكر في القرار الذي سنتخذه. علينا أن نفعل ذلك بأكثر الطرق اتزانًا. لسنا بحاجة لأن نصوت، ولا الصراخ منادين بأسماء، ولا التسرع. واحدة منا ستحل محل بيبيانا. وأرجو أن يكون ذلك لبضعة أيام فقط، ولكن قد يكون لوقت أطول، ولا بد للقرار من أن يُتخذ بالضرورة، وأن نضع بالاعتبار أسوأ الاحتمالات التي يمكن تخيلها، احتمال أن يكون الاستبدال نهائيًا. من منا لديها القدرات اللازمة؟ وما هي هذه القدرات؟ لم نكن في حالة حرب. وحالة الطوارئ التي تسبب بها بركان ميتري قد تم تجاوزها. هشاشتنا كحكومة

كانت من طبيعة أخرى: إنها ترتبط بروح المساواة التي أردنا أن نطبع ممارسة السلطة بها؛ روح مساواة تتطلب، مثلما ارتئينا، لحظة بداية من صدمة ورعب - هذا بالضبط ما قالته: shock and awe، كما في عمليات قصف العراق - حيث سيجرب الرجال الفقدان المطلق للسلطة، والتحول، حرفيًّا، إلى انتعال أحذية القهر المنزلية التي اختبرناها نحن النساء على امتداد قرون وقاومناها، ليس بالحرب، ولا بالقنابل، وإنما بتحويل أحشائنا إلى قلوب جريئة، وتعلمنا ممارسة الحب، وتحولنا إلى خبيرات في الحفاظ على النوع، ووجدنا في أقسى ظروف قمع غِنانا الفكري، الفسحة الصغيرة التي نتذكر فيها أن حريتنا، وما هو سامٍ وجميل في روحنا سيستمر إلى أن يأتي يوم نتمكن فيه، خطوة خطوة، وبوضع قدم أمام القدم الأخرى، من أن نبرز ونكشف للعالم طريقًا آخر، طريقًا جديدًا من الرفاقية، من التعاون، من الاحترام المتبادل. ربما نكون نحن الكنز السري للحياة. ربما يكون لمعاناتنا معنى: لقد أجبرونا على الحفاظ على أنفسنا من أجل هذه اللحظة من تاريخ البشرية، كي نكون نحن من نمسك الأعنة ونبدل مسار كوكبنا. فاغواس الصغيرة والفقيرة فاغواس، ونحن على رأسها، يمكن لها، **يجب عليها**، أن تثبت أنه يمكن لمنظمة اجتماعية تدعو إلى المساواة، تُغْني الرجال والنساء، قادرة على أن تحقق تكامل الأسرة بالعمل وبالقضاء على هذا الاستغلال القديم الجائر الذي يجري تعلمة، بكل أسف، في قلب المنزل بالذات، والذي كنا فيه نحن النساء ضحايا التكفير.

لهذا لم يكن بإمكاننا، في تلك اللحظة، التفكير بخفة.

كنا أنا وريبيكا وإيفيخينا وخوانا دي أركو ننظر إلى إيفا وفي حلوقنا جفاف. لقد عبرت بكلماتها عما نشعر به جميعنا. شعرنا بحنان عظيم ونحن نراها تتحمل مسؤولية المغزى التاريخي لتلك اللحظة. يا أماه،

فكرتُ، هذه التجربة التي ولدت بين صديقات في حديقة إيفيخنيا، في إحدى ليالي الأسبوع، ليلة نبيذ وسجائر ومزاح ومحبة، هي الآن سهم مُنطلق من المخيلة، ومن واجبنا تثبيته في الفضاء. ليس لما يمثله (ح.ي.إ.) كطريق جديد وحسب، وإنما كذلك من أجلك أنت يا بيبيانا؛ لأنك في سرير بالمستشفى، في كوما، ولا يمكن لي أو لأي واحدة منا أن نتسامح بترويتك تستيقظين لتجدي فشلًا. حزب اليسار الإيروتيكي سيستمر. علينا أن نحسن الاختيار.

إيفا وريبيكا، الأولى بنارها والثانية ببرودة أعصابها، تبدوان بطلتا تلك الطرفة عن التوءمين المهذبين اللذين لم يولدا لأن كلًّا منها كان يقول للآخر: تفضل أنت؛ فيرد الآخر: غير ممكن، تفضل أنت أولًا. عندئذ طلبتُ منهم أن يصمتن. إيفي وخوانا وأنا سوف نتولى الاختيار بينهما وينتهي الأمر بذلك. صوت خوانا بديل لصوت بيبيانا. وزعت خوانا علينا بطاقات بيضاء. فكان هناك صوتان لإيفا وصوت واحد لريبيكا. لم يُقل أي شيء إضافي. اتفقنا على أن ممثلات (ح.ي.إ.) في الجمعية الوطنية سيقترحن ترشيح إيفا. ولم تمانع هي.

فعانقتها ريبيكا. وتعانقنا جميعنا. هكذا جرت الأمور.

مدونة الوقح[٥]

لا أكاد أصدق! يا للأمور التي تحدث في فاغواس! لحسن الحظ أننا نحن الرجال قد تعافينا من وجع الرأس لأن هذه البلاد منهوكة بالفعل. الرئيسة لا تزال في كوما وفي أثناء ذلك تقوم الجمعية الوطنية النسوية (ما الذي سيقولة أريستوفانيس حول هذا؟)، في انتهاك سافر للدستور، باختيار من تحلّ محلها بالوكالة على حدّ قولهن، وبأصوات أغلبها من حزب اليسار الإيروتيكي (من هناك غيره)، يخترن الفاضلة ذات الشعر الأحمر، وزيرة الدفاع والمديرة السابقة لخدمات الأمن، إيفا سالفاتييرا، كي تحكمنا. في التعديل الدستوري الذي جرى تحت رعاية حكومتنا النسوية العظيمة، هن أنفسهن كن قد أقررن بصورة جلية أن **لا أحد** غير منتخب أو منتخبة مباشرة يمكنه تولي منصب الرئاسة. وبفرضها علينا إيفا سالفاتييرا، تكون الجمعية الوطنية قد خالفت ذلك التعديل الدستوري، ووضعن أنفسهن خارج الإطار الذي تحكمه قوانين أمتنا.

من المؤكد أن ما ذُكر أعلاه قد تم بطلب من هذه السيدة سالفاتييرا؛ لأنها، كما هو معروف، ليست عسكرية وحسب، وإنما هي العقل المدبر لنقل فاغواس إلى العصور الوسطى، مع ما يتضمنه ذلك من أقفاص

---

(٥) مدونة الوقح تُنشر على بوابة صحيفة إلكوميرثيو كل يوم إثنين. وقد نُشرت هذه التدوينة في أول يوم إثنين بعد أن اختارت الجمعية الوطنية إيفا سالفاتييرا من خلال الانتخاب.

يعرض فيها المجرمون، ووشوم كفر على جباههم، وأعمال السخرية التي تُفرض على السجناء.

لسنا نطلب الرحمة لمن يرتكبون جرائم بغيضَة، ولكن من غير المجدي مكافحة العنف ضد النساء بتطبيق هذه الأساليب البربرية غير الإنسانية ضد الرجال.

يمكن لإيفا سالفاتييرا أن تكون حزبية يسارية إيروتيكية جدًّا، وحواء جدًّا وسالفاتييرا جدًّا، ولكنها لا تنتمي إلى الفردوس الأرضي، وليس في نيتها إنقاذ أحد؛ بل على العكس: إنها مثلما كانت تاتشر في زمنها، مجرد سيدة حديدية.

لقد تعبنا، نحن رجال فاغواس، من هؤلاء الأمازونيات الليليات اللاتي يسعين لتحويل بلادنا إلى حضانة أطفال وتحويلنا نحن إلى خدم مطيعين لاحتياجاتهن.

من المُلّح ألا نسمح بأن يُخرق دستورنا. فلنعلن معارضتنا ولنطالب بانتخابات جديدة.

فلترجع النساء إلى بيوتهن!

توقف خوسيه ديلا آريتمِتيكا قبالة المستشفى. إنه يتوقف هناك كل صباح. وفكر: يا لمواظبة نساء الزهور. فيومًا بعد يوم يضعن زهورًا طازجة في الدلاء البلاستيكية التي على الرصيف.

كان ينتظر خروج الممرضات لشراء ثلجه المبشور وتبادل الحديث معه في لحظات فراغهن. فبهذه الطريقة كان يعرف كيف هي الحالة الصحية للرئيسة. إنها، حسب قولهن، لا تزال نائمة في تلك الغيبوبة التي لا أحد يدري أين تغيبها بينما البلاد تضطرب. لم يرق لجماعة المعارضة تعيين إيفا ذات الشعر الأحمر آمرة بالوكالة. لم يجد خوسيه تفسيرًا لذلك الحقد عليها. بدا له أنهم يريدون تحويلها إلى ذريعة للتخلص من النساء؛ لأنه هو، في كل مرة قابلها، لم يكن يرى فيها سوى شخصية متزنة، وطيبة. إنه يشم رائحة كريهة من موجة النقد والهجمات من وسائل الاتصال. صحيح أنه هو أيضًا غير معجب بمسألة وضع المجرمين في أقفاص، مهما كانوا أشرارًا؛ بل إنه لا يعرف لماذا لا يعجبه ذلك. وإذا ما ناقشه أحدهم في الأمر، لن عرف كيف يفسر موقفه. حتى إيفا سالفاتييرا نفسها لم تستطع تفسير ذلك. لقد قدمت له حججها ومع أنه فهم تلك الحجج إلا أنه، في العمق، العمق، لم يقتنع بها. ولكن التمسك بهذا الأمر من أجل القول إن هذه المرأة غير مؤهلة لتحل محل سانسون ما هو إلا طريقة للادعاء بأنهم أخلاقيون أو أنهم متيقظون، ولا يدري أي الأمرين هو الصحيح.

رن جرسه. اشترى منه رجل بدين وطويل ثلجًا مبشورًا بنكهة الأناناس، بعد ذلك مرَّت سيدة ومعها طفلة، واشترت منه آخر بنكهة التوت البري. فكّر: غريبٌ عدم خروج تشيليتا. فهي تخرج دومًا في مثل هذا الوقت لتحرك جسمها قليلًا، وتدخن سيجارة، وتتناول ثلجه المبشور. إنها ممرضة قسم العناية المركزة. وهي من حدثته عن الفتاة الغريبة - وهذه زبونته أيضًا - التي تتبادل المناوبة، ليلًا ونهارًا، مع صديق الرئيسة. تدعى خوانا دي أركو. وهي تمضي طوال الوقت مرتدية السواد، وبشعرها القصير المصمغ كي تبقيه منتصبًا. تأتي على دراجة نارية وتذهب للاستحمام وتغيير ملابسها؛ لأنها ترجع في المساء. إنها تشتري منه الثلج المبشور في مثل هذه الساعة. في اليوم الأول ظلت تنظر إليه باستغراب. ثم سألته: أنت كنت في الميدان يوم جرحوا الرئيسة، أليس كذلك؟ فأخبرها كيف قفز من عربته حين رأى الرئيسة تسقط إلى الوراء. وقد ابتسمت له ابتسامة واسعة. دون أن تدري لماذا يبدو كمن يشفق عليها. لقد كانت شابة، لكنها تحاول أن تظهر بمظهر المرأة المسنة، الناضجة. تريد أن تبدو كمن هي تسيطر جيدًا على نفسها.

مرّ صبي بجانبه ودسّ له ورقة في يده. فقرأها:

يا رجال فاغواس

لقد حان الوقت لإعادة النساء إلى بيوتهن

لن نسمح بالتحكم بنا لمزيد من الوقت بعد اليوم

الجميع إلى مظاهرة الرجال الأحرار

اليوم في الساعة السادسة مساء.

نقطة التجمع: ساحة الاستقلال

أيها الرجل الصديق! أي بلاد هي هذه التي لن تهدأ أبدًا! الصبية لم تخرج. سأل عنها عدة ممرضات، لكن أحدًا لم يعطه خبرًا يقينًا عنها. رجع عند الظهر إلى بيته لتناول الغداء ونوم قيلولة في أرجوحة نومه، وانتظار أن تصبح الساعة الخامسة والنصف كي يذهب للبيع في المظاهرة.

الطفو

طَفَتْ بيبيانا سانسون في الهواء، ما بين الرفوف، مثلما يطفو رواد الفضاء في المحطة الفضائية. لم تكن لديها فكرة عن الوقت الذي انتبهت فيه إلى أنها قادرة على الطفو بإرادتها. ربما حدث ذلك حين رأت الزيزان والأزهار المصنوعة من سعف النخيل؟ الحقيقة أن العنبر لم يعد يبدو لها شديد الظلمة كما في السابق. يمكن لها أن تقسم على أن حجمه قد تضاءل وأن يدًا خفية ومجهولة تفتح فتحات إنارة في سقف التوتياء، تسمح بدخول خيوط ضوء نحيلة، تُغرق محيط المكان فجأة في فضاء ضارب إلى بياض ضبابي. وفكرت: الهواء عكر. ومن الرفوف، رأت بغتة أشياء لا يمكنها التعرف عليها، ولكنها أحست بأنها تفقد الاهتمام بالتذكر. ثم ما لبثت أشياء أخرى أن ذكرتها بنتف من حياتها، مثل مواد دعاية حملة (ح.ي.إ.) الانتخابية: علب أقراص مضادة للصداع، وأكياس الحفاضات وضعن عليها لصاقات دعائية وأجهزة لفحص الحمل كتبت عليها شعارات الحملة.

رأت مرور مشاهد من حملتها: اجتماعات القرى الصغيرة مع الأمهات المبودرات والمتجملات اللاتي يُخرجن من جيوب مآزرهن جزم أوراق نقدية كي يساهمن في «فوزها». والصبايا اللاتي ينظرن إليها، ويقلدنها بارتداء الملابس الضيقة ومكشوفة الصدر، وبجزمتها العالية، ويغنين أغنية كتبها لهن «بيرّوسوبوبو» أجمل مغني روك في أمريكا اللاتينية:

إذا أردت التغيير

ابدأ بالمسير
خطوة خطوة، قَدَمَاً فقَدمًا
فلنمض إلى الأمام
لا تتردد

بيبيانا ستدعوك
ستدعوك إلى الحياة
خطوة خطوة، قَدَمَاً فقَدمًا
فلنمض إلى الأمام
إياك من التردد

رأت الراية البيضاء، وعليها رسم القدم ذات الأظفار الحمراء، تخفق بأيدي الجموع، رأتها الآن كما في كاميرا بطيئة، ثم كما في كاميرا سريعة مثلما هي في تلك الأفلام القديمة.

باغتها إحساس كفقاعات غليان هائج، فقاعات دم تتراقص في جسدها. مدّت ذراعيها، أحست بتيار بارد تحت ظهرها يسندها، يؤرجحها، تكورت على نفسها معتقدة أنها أمها من حديد، وأنها صغيرة وستجد في الصدر الأمومي صوت القلب ينبض في مسمعها.

عادت تتمدد بكل طولها؛ كم هو ممتع كونها منعدمة الوزن، تسلّم نفسها لدوامة النسيم الناعمة الفاترة التي تلفها. فتحت عينيها برهة، رأت سقف التوتياء يلمع فوق رأسها، والعوارض الخشبية، والمصابيح المتدلية تهتز كما لو أنها كائنات حية. تساءلت عما إذا كانت الأرض تهتز ولا تشعر هي باهتزازها لأنها تطفو. رأت جدرانًا تذوب وتتلاشى. استدار

جسدها. لمحت وجه أمير الصغير سيباستيان، كان ينظر إليها بعينين مفعمتين بالحنين، رأت الباب الذي عليها الهرب من خلاله وهي تقترب بأقصى سرعة، واجتازت قنطرة الباب المشتعلة.

الشغب

بينما هي تقرأ مجموعة من الوثائق، جالسة على كرسي المكتب الرئاسي الذي صارت تشغله منذ نحو أسبوع، سمعت إيفا سالفاتييرا صوت زجاج يتكسر، رفعت رأسها وانتبهت إلى أن ضوء المساء آخذ بالتحول إلى ليل. نهضت واقفة كي تطل من النافذة، وكان أن دخلت في تلك اللحظة سكرتيرتها فيولا، تتبعها شرطيتان من الأمن الشخصي.

ـ هيا أيتها الرئيسة، علينا أن نُخرجك من هنا، هنالك صخب في الخارج وهم يقذفون حجارة على النوافذ.

نظرت إليهن إيفا من وراء منضدة المكتب. أزاحت خصلة شعر ضاربة إلى الحمرة عن وجهها.

ـ تعالي أيتها الرئيسة، أرجوكِ ـ قالت لها الشرطية الأضخم حجمًا وهي تقترب منها وتمسكها من ذراعها.

أزاحت إيفا يد الشرطية بانزعاج. فتراجعت الفتاة خطوة إلى الوراء مذعورة.

ـ لا يمكن للوضع أن يكون سيئًا إلى هذا الحد ـ قالت إيفا وهي تنظر إليهن مؤنبة. ففي بعض الأحيان، يأتي ردّ فعلها على هذا النحو، إذا ما وضع أحدهم يده عليها بصورة غير متوقعة. تنفست بعمق. نهضت واقفة ووجهت نظرها نحو النافذة.

ـ ليسوا كثيرين ـ قالت الشرطية الشابة بارتباك ـ، ولكن يمكن لحجر جيد التسديد.

- أنت من حرسي الشخصي، ألا تعلمين أن الزجاج هنا مصفح؟ - نظرت إليها إيفا بقسوة - من المستحيل أن يُحدث الحجر أكثر من دوي.

- لقد كسروا زجاج سيارة متوقفة في الساحة.

- هنا ليس الساحة.

أطلت إيفا من النافذة. لم يكن عدد الرجال المتجمعين في الخارج كبيرًا، وجوههم مغطاة بطاقيات لا تُظهر سوى عيونهم، وكانوا يقذفون أحجارًا وقنابل صناعة بيتية.

كان هنالك صف من الشرطيات يتشكل أمام القصر الرئاسي.

- اتصلي لي بقائدة الشرطة - قالت آمرة وهي تنظر إلى جهاز الاتصال الذي تحمله رئيسة الأمن.

بعد لحظة كانت تتكلم معها. طلبت منها القائدة الشرطية المعذرة.

- أية معذرة؟ هنالك وضع متوتر، ألا يخطر لك تعزيز المقر الرئاسي؟

قال الصوت عبر جهاز الاتصال أنها لن تحاول التبرير، ولكنها قد حرّكت دوريات فقط لتغطية تجمع «**الرجال الأحرار**» في جادة الجامعة. وسوف ترسل وحدات مكافحة الشغب فورًا.

- لا بد من تفريق هؤلاء - قالت إيفا -. بخراطيم الماء، بمسدسات «التيزر»، بالغازات المسيلة للدموع؛ بكل ما هو ضروري دون الوصول إلى المبالغة. اعتقلوهم، ونظموا ضبوطًا بحقهم ثم أطلقوا سراحهم - قالت آمرة.

في تلك اللحظة دخلت مارتينا إلى المكتب.

- هنالك مظاهرات رجال في كل مكان يا إيفيتا. إنها مجموعات صغيرة، ولكنهم عدوانيون.

أشارت إيفا إلى فيولا والشرطيتين كي يتركوهما وحدهما. لأنها ستكون أكثر أمنًا هناك، قالت لهن. لا وجود لما يبرر انتقالها إلى الحجرة المصفحة. فخرجت النساء.

- إنني أتساءل أحيانًا كيف تصرفنا جميعنا خلال هذه السنوات - نهضت إيفا واقفة، غاضبة، وراحت تمشي من جانب إلى آخر - كيف يمكن القول إنهن لا يعرفن أن هذا الزجاج مصفح؟ إنها أمور لا أجد لها تفسيرًا.

- اتخاذ الاحتياطات أفضل من التحسر. أنا أتفهم منطقهن.

- إخراج الرئيسة من مكتبها إجراء لا يُتخذ إلا في حالات وقوع هجوم مباشر أو فتنة - قالت إيفا بصرامة -. وما يحدث لا يشبه ذلك بأي حال.

- إيفيخنيا وريبيكا آتيتان في الطريق - قالت مارتينا -؛ اتفقنا على أن نلتقي هنا.

- يبدو أن الأرنب قد خرج لنا من القبعة، أليس كذلك؟ - قالت إيفا مبتسمة بسخرية.

- هذا عبث، بلاهة، لا يمكن تفسيره. هل رأيتِ **مدونة الوقح**؟ ومثله، طلع الصباح اليوم على جميع المعلقين الذكور مطالبين بانتخابات. يقولون إن هذا ما يشترطه الدستور الذي عدلناه نحن أنفسنا، وإنهم لن يقبلوا برئيسة وكيلة بلا انتخابات، أيًّا تكن.

- يجب الاعتراف بأن الأسباب لا تنقصهم. لقد قمنا بذلك التعديل. وتعييني أنا كان مخرجًا اخترعناه. إنها ساعة صعبة.

تلمست مارتينا سوء مزاج زميلتها. فبدلت الإيقاع.

- لقد فسرنا بتوسع المسوغات في الحالة الخاصة بببيبيانا. إنهم يثيرون الصخب لمجرد رغبتهم في ذلك.

- لأنهم يريدون الإطاحة بنا. هذا هو الواقع الذي وراء ذلك، مسألة ببيبيانا.

- أأنت متأكدة؟

- لدي شكوكي.

- الشكوك لن تنفعنا في الوصول إلى أي شيء. هذه هي المشكلة.

نهضت وأطلت من النافذة. ولولة صفارات السيارات الشرطية تُسمع في الميدان. اقتربت منها مارتينا.

عدد كبير من الشرطة النسائية ممن يرتدين بدلات وخُوذ للمواجهات، ينزلن من شاحنات وسيارات جيب، ويشكلن نصف دائرة حول المتظاهرين. وجميعهن مسلحات بمسدسات «التيزر».

كانت مارتينا تنظر إلى إيفا. لم ترها قطّ بمثل هذا التوتر والغضب.

- سوف يرى هؤلاء الحمقى كيف هنّ النساء - قالت بصوت خافت وهي تضرب بيدها اليسرى راحة يدها اليمنى.

- اهدئي يا إيفيتا، اهدئي. لا تفقدي عذوبة طبعك.

- ألا يحدث لك أحيانًا أن تشعري بالكراهية نحو الرجال؟ أنا لا أكرههم واحدًا واحدًا، ولكنني حين أراهم هكذا، عنيفين، في جمع، لا أجد مفرًا من الاعتراف بأن إحساسًا عميقًا بالازدراء يتصاعد فيّ دون أن أدري من أين.

- اهدئي يا إيفيتا - أعادت مارتينا القول - ليست هذه هي اللحظة المناسبة. علينا أن نفكر في ما يجب فعله - التصقت بالنافذة - انظري إلى الشرطيات، وانظري إلى الرجال كيف يتقافزون كمن يريدون ضربهن، رباه، يا للكارثة.

في هذه اللحظة دخلت إيفيخنيا وريبيكا وهرعتا مسرعتين نحو النافذة.

كانت تسمع في الأسفل صرخات الحشد وضجيجه؛ وكانت الشرطيات يحاولن التقدم متلاصقات كي يغلقن الدائرة على الرجال الذين يوجهون إليهن الشتائم صارخين: نساء البراز، بنات العاهرات... واصلت إيفا ضرب قبضتها اليسرى براحة يدها اليمنى.

- سوف أنزل - قالت - هذا لا يطاق.

- ولا بأي حال - قلنَ الثلاث معًا - فأنت لم تعودي وزيرة الدفاع، إنكِ الرئيسة الآن. لا تنسِ ذلك. لم يعد هذا عملك - أمسكت بها مارتينا من ذراعها. فأفلتت إيفا ذراعها من يد مارتينا.

وفي الأسفل، كانت الشرطيات لا يزلن يتقدمن مستعينات بتُرُوسهن. وصار هناك عدة رجال يصرخون متقلبين على الأرض بفعل شحنات مسدسات التيزر؛ فقد كانت شحنات المسدسات الكهربائية توجه إلى أكثرهم جرأة في الصراخ، فتخلفه مشلولًا لبعض الوقت، ولكن دون أن يوقف سبحة شتائمه: ساحرات، قوادات، عاهرات، الكلام المعهود، ولكن بعدوانية لم تكن تتبدى في الأزمنة الطيبة.

من جهة القصر الرئاسي، شقت جماعة أخرى من الشرطيات، بلا خُوذ، طريقها وسط الجمع الصاخب، ورحن يضعن الأصفاد في أيدي من يجلسون على الأرض محاولين استعادة قواهم بعد تلقيهم الصدمات الكهربية. ثم يدفعن كل من يسيطرن عليه نحو سيارات الدورية. كانوا حوالى خمسين رجلًا، ليسوا كثيرين، كما قالت رئيسة الأمن.

وشيئًا فشيئًا سيطر الصمت على الساحة. وبصفارات الإنذار المولولة في الليل، راحت سيارات الدورية تنطلق بحمولتها من الرجال الغاضبين والمُتَحَدِّين.

قُرع الباب ودخلت قائدة الشرطة الوطنية، فيرونيكا ألفير، مشعثة الشعر ومتعرقة. وقفت باستعداد أمام إيفا وقالت:

- تم إخلاء الميدان بصورة تامة. لقد أُنجزتْ المهمة.

كبحت مارتينا نفسها من القول لها أن تجلس وتتناول كأسًا من الماء. كانت الشرطية امرأة قوية، طويلة القامة، نحيفة، لكنَّ ساعديها عضليان. لا شك في أنها تمارس رياضة رفع الأثقال.

هزت إيفا رأسها في إشارة إلى أنها قد أُبلغت بالأمر. ماذا جرى لها؟ فكرتْ ريبيكا. ثم سمعتها تقول، شكرًا، وتضيف: خذوا أقوال الجميع ثم أطلقوا سراحهم. بقيت القياديات الأربع وحدهن. تهاوت إيفا على الكرسي. غطت وجهها بيديها للحظة.

ـ حسنًا، لقد قضي الأمر ـ قالت وهي تهز شعرها.

تبادلت إيفيخنيا ومارتينا وريبكا النظر. فنادرًا ما رأين إيفا الهادئة، باردة الأعصاب، تفقد السيطرة على نفسها.

ـ توجد مظاهرات في عدة مناطق من المدينة ـ قالت ريبيكا ـ. علينا التفكير في ما يجب عمله.

ـ لا شيء ـ قالت مارتينا ـ. هنالك الحق في التعبير، وتشكيل الجمعيات. لا يمكننا عمل أي شيء؛ نستطيع التدخل فقط إذا حدث تخريب متعمد أو هجمات على الممتلكات العامة أو الخاصة. هذا ما تهتمون به أنتم، أما أنا فأهتم بأن يكون الرجال والنساء متماثلين وأن يكون لهم الحق في التظاهر.

في اليوم التالي خرج مزيد من الرجال إلى الشارع. وقد كانوا في هذه المرة، مثلما ستعلن مارتينا، من جماعة الذكور المنتصبين التحررين المتحدين. أجروا استعراضًا في الشارع الرئيسي بصورة سلمية، وكانوا يحملون أشكال قضبان هائلة مرسومة على ألواح كرتون كبيرة وأخريات مصنوعة من قماش بيج ومحشوة بالقطن.

ومن الأرصفة، شاهدت النساء مرورهم، فكان بعضهن يضحكن، وآخريات يُخرجن لهم ألسنتهن.

توالت المظاهرات يومًا بعد يوم. وكان الرجال يصرخون فيها: انتخابات! انتخابات!

نهضت ليتيسيا مونتيرو مبتسمة عن الصوفا حيث كانت تشاهد التلفزيون، سكبت كأس نبيذ لنفسها وكأس ويسكي لزوجها، قدمت له الكأس وقرعت كأسها بكأسه. الأمر يمضي على ما يرام، قالت له.

- أيتها المرأة ضعيفة الإيمان - قال وهو يوجه لها غمزة - قلت لك أن تصبري.

- أتذكر ذلك - قالت -، أعترف بذلك، قل لي، على سبيل المثال، ما الذي سيحدث الآن.

- سيأخذ هذا بالتعاظم، إنها مسألة أيام.

- وما الذي تظنه سيحدث؟

- سيكون عليهن أن يتنازلن.

- امممممم...

- اللهم إلا إذا كانت لديكِ فكرة أفضل.

- النساء - قالت ليتيسيا - يجب إخراج النساء، لم يخرج حتى الآن سوى الرجال.

- إيجاز شديد - قال زوجها وهو يفتح كفَّه ليضربها بكفِّها وأضاف:-
.Give me five

- إذا لم يحدث ذلك، فلن ينفع الأمر، يجب أن تخرج إلى الشارع صديقات نساء المعارضة اللاتي في الجمعية الوطنية؛ وأن يرونهنّ، ويسمعونهنّ. أنهن منبهرات بهؤلاء الساحرات، من يدري أي سائل سحري يخلطنه لهنّ مع القهوة.

ـ أنا مستعد لأن أقدم كل الموارد اللازمة: وسائل النقل، وكل ما تحتاجين إليه، ولكن عليكِ أنتِ أن تتولي تنظيم الجناح النسوي.

ابتسمت ليتيسيا بخبث.

ـ لا تقلق بهذا الشأن ـ قالت ـ لا تظن أنني لم أتعلم شيئًا منك خلال هذه السنوات كلها، ولكنني أخبرني شيئًا: ماذا جرى لرجل المسدس؟

ـ قلت لك إنه لا علاقة لي بالأمر، شخص آخر هو من تولى هذه المسألة، أما أنا فكانت لي مشاركة لا يمكن الكشف عنها... حسنًا، إلى حدّ ما. أعرف أن هنالك اتفاقًا، نحن سنتولى الإنفاق على زوجته إذا ما ألقي القبض عليه، هذا هو الشيء الوحيد الذي طلبه، أن نؤمن لها نفقاتها وأن نراقبها؛ لأنها ذهبت إلى حيث تعيش أمها ولا يريدها أن تُركب له قرونًا.

(مواد تاريخية)

استنساخ كامل لمقابلة
السيد خوسيه ديلا آريتمتيكا الثالثة

(صوت تحريك كراسٍ)

خ. آ.: صباح الخير أيتها السيدة الرئيسة، أقدم لك التهاني بالمنصب.

إ. س.: شكرًا يا دون خوسيه. اجلس، تفضل. (صوت تحريك كراسٍ). انظر يا دون خوسيه، لقد أرسلت في طلبك لأننا بحاجة مستعجلة لأن نعرف من وراء هذه القلاقل، لدينا شكوك بأن هناك علاقة بينها وبين المدعو ديونيسيو الذي حدثتني عنه، زوج إرنيستينا. أرسلنا في طلبه، استجوبناه، لكنه تصنع الجنون؛ تحدَّثَ إلينا عن ذلك الأمر نفسه الذي أخبرتنا أنت به، عن أن السيدة العذراء كانت تبكي، وأنها تظهر له في المغسلة وهو يغسل يديه كل صباح لأننا نتسببُ لها بآلام، لكنه أنكر أن يكون هو نفسه من قام بمحاولة الاغتيال. هناك بعض من كانوا في الميدان ممن يظنون أنهم تعرفوا إليه، ولكننا لا نمتلك ما يكفي من الأدلة لاعتقاله. ألا ترى أنه يمكن لإرنيستينا، زوجته، أن تقدم لها أثرًا ما؟

خ. آ.: لقد حاولتْ ابنتي ذلك معها، لكنها قالت لها إنها لا تعرف شيئًا.

إ. س.: وهل تصدقها أنت؟

خ. آ.: (همهمات متقطعت تعبر عن الشك) ممم، آآآي... لا أدري... الحقيقة... لقد راودتني بعض الشكوك بشأن انفصالها عنه قبل شهر من محاولة الاعتداء على الرئيسة.

إ. س.: سوسنة ترى أنها تنظر إليك كما لو أنك والدها، وربما يمكن لحضرتك أن تقنعها بقول ما تعرفه، وبالنظر إلى ما صار إليه الوضع، سيكون من المُلح معرفة ذلك.

خ. آ.: أتفهم الأمر. فأنا أيضًا تقلقني الزوبعة التي أثاروها بحجة انتخابكِ. يبدو أنهم يبحثون عن ذرائع.

إ. س.: نتفهم أن إرنيستينا لم تعد إلى زوجها، ولكن يبدو أن هنالك تقاربًا، وأنه هو بحث عنها.

خ. آ.: يمكن ذلك، وبما أنها حادة الطبع وتكرر الخطأ، فإنها لا تفهم أنه ليس لهذا الرجل من التزام... انظري، لا أستطيع أن أعدك بأي شيء، ولكن دعيني أرى ما يمكنني فعله.

خبر أول على الصفحة الرئيسية في جريدة الكوميرثيو

وكالة أنباء إيفي، ٢٠ نوفمبر

من بيلار مورينو

إذا كان الرجال بالأمس، فإن النساء هنّ من خرجن اليوم إلى الشوارع في فاغواس للمطالبة بإجراء انتخابات وللاحتجاج على ما يرين أنه «تعيين» غير شرعي للوزيرة إيفا سالفاتييرا كرئيسة بالوكالة.

جماعة كبيرة من النساء، من مختلف الفئات الاجتماعية، خرجت من الكاتدرائية ومن كنائس أخرى وسارت حتى مبنى الجمعية الوطنية، وكانت تقرع على القدور، مع أبواق وطبول.

ومن جهة أخرى، قامت نساء مؤيدات للحزب الحاكم (ح.ي.إ.) بالتجمع على الأرصفة لرؤية مرور المظاهرة. وبينما كانت المتظاهرات يوجهن الشتائم إلى أولئك المراقبات، فقد عمدت الأخيرات إلى رميهن بالزهور والتلويح براياتهن المعروفة التي تحمل رسم قدم صغيرة.

«لسنا على أي خلاف من نساء أخريات»، قالت كريستينا بيسكوس، حين قابلناها على الرصيف، وكانت ترمي أزهار أقحوان صفراء تحملها في سلة. ومن المعروف أن صناعة الزهور هي أهم المنجزات

الاستعراضية لحكومة (ح.ي.إ.) النسوي. لقد غطت فاغواس أهم الأسواق في العالم، وهنالك مفاوضات لشراء طائرتي بوينغ ٧٦٧ إضافيتين لتغطية الطلب المتزايد على الزهور.

ومن جهتها، أعلنت وزيرة الحريات غير المشروطة، مارتينا ميليينديث، أن مكتبها مفتوح لاستقبال طلبات الأهالي الذين يريدون التظاهر مؤيدين أو معارضين. وحسب ما أخبرتنا به، فإن هناك نشاطين مخطط لهما ليوم غد قد مُنحا تصريحًا: النشاط الأول جرت الدعوة إليه تحت اسم: نحن النساء ننهض واقفات، ويتمثل في اضطجاع حاشد في ساحة الجمهورية (وفي أي مكان ترغب أي امرأة الاضطجاع فيه) ونهوض حاشد أيضًا، حين تدقَ الأجراس معلنة الثانية عشر ظهرًا. أما النشاط الثاني فيجري في الأحياء؛ حيث ستجول فرق نسائية على البيوت والقيام بعملية بيديكور لأقدام النساء وطلاء أظفار من ترغب منهنّ باللون الأحمر.

قصة خوانا دي أركو

الوقت يمضي بطيئًا في المستشفى، ولكنني ولدتُ مزودة بصبر طويل. كم من الشهور تطلبها نشر قضبان النافذة الحديدية بواسطة مبرد عندما هربتُ من العبودية الجنسية التي كنت غارقة فيها؟ لم أعد أتذكر ذلك الزمن. كم من الوقت انقضى قبل أن أعود لأعرف أخبار رفيقتيّ اللتين أضعتهما في تلك الليلة التي رافقتني فيها بيبيانا؟ يا لأمور الحياة! لو أنهما تحملتا الانتظار بصبر في المكان الذي حددته لهما لكانت القصة قد اختلفت. لكنهما لم تصبرا. ولهذا فإن إحداهما ما زالت تنتقل من تيس إلى تيس، أما الأخرى فانتهت، لقد ماتت. من السهل جدًّا أن تموت إحدانا إذا كانت جميلة وفقيرة. زلةُ قدم، وجهٌ تسيئين قراءته، قليلٌ من الثقة بالشخص الخطأ وتنتهين أيتها الحزينة. وبالمقابل، كم كنت أنا محظوظة! إنني أشعر أحيانًا بأنه ليس عدلًا أن يكون كل ذلك الحظ الجيد من نصيب شخص واحد. ولهذا لن أسمح أبدًا أن تعاني هذه المرأة الراقدة في الفراش ما دمتُ على قيد الحياة. إنني خوانا دي أركو، فارستها الجوالة، وأنا قادرة على اجتراح أي شيء في سبيلها. أظن أنها لا تعرف ذلك، وهذا أفضل. لو أن لدينا إدراكًا كاملًا لمقدار ما يمكن لمجرد لفتة تضامن أن تعنيه لإنسان آخر، فإننا سنعيد النظر في حياتنا كلها؛ لأنه لا بد من معرفة ما عناه تدخل بيبيانا بالنسبة لي.

لقد كان ذلك واردًا. إنني أتذكره جيدًا. أتذكر ما حدث بالضبط، حين فتحت بيبيانا عينيها. كنت أجلس على الكرسي مسندة ظهري، بلا حذاء،

قدماي تستندان إلى حافة السرير، والكتاب فوق ساقيّ، وكنت غارقة في أفكاري. الحقيقة أنني كنت هناك دون أن أكون هناك. كنتُ أبحر في ذهني. يكفيني أن أسمع في الآلة نبضات قلبها كي أطمئن. لا أحتاج إلى رؤيتها. فهي في نهاية المطاف مستمرة على هذه الحال منذ شهرين. لقد كنتُ أُجري لها تمارين حركة، أحرك ساقيها، ذراعيها، وأساعد الممرضة التي تحممها، أدلك رأسها، أكلمها، أقرأ لها. ولا أخرج إلا عندما يأتي إمير. ولكنه انفعالي جدًّا. لا يكاد يمضي خمس عشرة دقيقة إلى جانب بيبيانا إلا ويبدأ بالبكاء. إنه يحزنني. فتلك التي تخرج منه هي دموع رجل. كان يعاني أشد المعاناة لرؤيتها على تلك الحال، ولكنه يأتي بكثرة. يذهب إلى واشنطن، ولا يتخلف عن المجيء في نهاية الأسبوع. يناوب محلي يومي السبت والأحد. ليس لأنني بحاجة لمن يناوب بدلًا مني، ولكن لأنه رجلها. وفي بعض الأحيان كانت تأتي سيليستي أيضًا. فقد كان علي القيام بعملي أحيانًا، ولكن شيئًا فشيئًا راحت مارتينا والأخريات يؤدين بدلًا مني بعض مهامي الأخرى. فوجودي مع بيبيانا يطمئنهن عليها؛ ويمكنهن بذلك الانكباب على أعمالهن بلا قلق. وهذا أمر مهم جدًّا، وقد كان واضحًا تمامًا بالنسبة إلي.

ولكن، مثلما قلت، حين فتحت عينيها، لم أتحرك. ظللتُ متجمدة، أنتظر. كانت الساعة حوالي الثالثة بعد الظهر. الشمس تدخل من النافذة، والضوء المسلط على السرير لا يدع مجالًا للشك في أنني أرى عيني بيبيانا المفتوحتين. تحركتُ ببطء شديد؛ أنزلت ساقيّ بتمهل وانحنيت إلى الأمام كي أقترب. لا تكوني فظة، قلتُ لنفسي. بنعومة، بنعومة. رحت أقترب من وجهها، إلى أن قدَّرت أن وجهي قد تأطر في حدقتي عينيها. همستُ لها: بيبي، بيبي.

في العادة، وبدافع الاحترام، كنت أدعوها «الرئيسة»، ولكن بدا لي مضحكًا أن أدعوها بلقب الرئيسة في تلك الظروف، فكان أن قلت لها: بيبي.

نظرتْ إلى. آي، رباه! هذا ما يعنيه أن شخصًا يحب أحدهم ويرى هذا الأحدهم! أشخاص كثيرون أعرفهم ومن المستحيل، بل من مستحيل المستحيلات أن يروا؛ لا يحسنون الرؤية. يظنون أنهم يرون، لكنهم لا يرون إلا الشيء نفسه وحسب، إنهم يبحثون عن انعكاس صورتهم؛ أما بيبيانا؛ فقد رأتني.

بدا ذلك كما لو أنها تلمسني. أحسست بعينيها تجوبان جبهتي، إبر شعري المصمغ، قوس قزح حاجبي، أنفي، فمي، قرطيّ أذني. ستضحكون، ولكن تلك النظرة كانت حسية: كانت ترسمني كما لو أنها مستكشفة آخذة باكتشاف قارة ضائعة، كما لو أنها تلحسني بتلذذ ومزيد من التلذذ. فابتسمتُ كما لو أنها تدغدني. مررت بيدي على جبينها: مرحبا، قلت لها، مرحبًا بيبي. فابتسمت هي أيضًا. وقالت لي كذلك: مرحبا، مرحبا بلا صوت تقريبًا، مرحبًا خمنتُها أكثر مما سمعتُها. وفكرتُ: لا بد أن تكون حنجرتها جافة جدًّا. ولكنني كررت القول لها «مرحبا» لا أدري كم من المرات، ببطء، وهي كذلك، إلى أن بدأت أسمع بصعوبة الكلمات تتشكل في حنجرتها. أهلًا بكِ، قلتُ ببطء. فابتسمت، ولم يعد جسدي يتسع لي من السعادة، لأنني شعرت بأننا نتواصل، وأنها موجودة معي بكامل جسدها، وأنها تعرف أنني هناك؛ بل إن لديها حس المزاح أيضًا، بسبب الطريقة التي ابتسمت بها حين قلت لها «أهلًا بك».

قبلتُ جبينها، شددت على يدها. ورد هي بالشد على يدي. فعلتُ ذلك بوهن، لكنني أحسست بأصابعها تتشابك مع أصابعي. انتظرتُ هنيهة. لم

أستدعِ أحدًا. أردت هذه اللحظة لي وحدي. إنها لحظتي، تعويضي عن أنه لم يخامرني قطّ أي شك في أنها ستعود. كانت عيناها تتحركان. نظرتْ إلى السقف، إلى النوافذ.

عندئذ تجرأتُ على السؤال.

- أتعرفين من أنا؟ - همستُ خائفة، ناظرة إلى عينيها، متيحة لها أن تراني.

- أعرفك تمامًا - قالت لي.

أعرفك تمامًا.

لم تقل نعم، ولم تحرك رأسها بالإيجاب. قالت هذه العبارة الطويلة، المعقدة، شديدة التعقيد: أعرفك تمامًا.

- من أنا؟ - سألتها.

- خوانا دي أركو - ردتْ عليّ بصوت مبحوح، لزج، يكاد لا يُسمع.

أعرف أنه كان عليّ ألا أستسلم للبكاء، ولكن ماذا تريدون أن أقول لكم؛ أحسست بالدموع تتدفق كما لو أن دماغي كان ممتلئًا بِبِرك وآبار ينتظر إفراغها. هناك، إلى جانبها، غطيت وجهي بيدي وبكيت من أعماق روحي؛ أفلَّتُ غمّ شهرين من السهر عليها، وبكيت قبل كل شيء لأن موجة سعادة غامرة لم أعرفها من قبل قد اجتاحتني، سعادة الحب العميق تجاه هذه المرأة؛ لأنني باستعادتها استعدتُ نفسي؛ لأنها لم تعرف من أنا وحسب؛ بل قالت **أعرفك تمامًا**. وهذا كان أكثر من جيد. لقد كان بهجة، احتفالًا، عيدًا.

استدعيتُ الأطباء، واتصلت بسيليستي، وإمير، ومارتينا، وريبيكا، وإيفا، وإيفيخنيا.

وخلال وقت قصير امتلأت الغرفة بآلات وأطباء. طلبوا منا أن ننتظر خارجًا. تجمعنا في الممر، نتعانق ونبكي. كان مشهدًا جنونيًا. اتصل إمير مجددًا. قال إنه سيأتي على أول طائرة.

ديونيسيو والمؤامرة

لدى خروجه من مكتب إيفا سالفاتييرا، تذكر خوسيه آريتمتيكو الاضطراب الذي سادت بيته حين عُرف أن الشرطة قد استدعت ديونيسيو للإدلاء بأقواله.

- لقد تركته إرنيستينا في الوقت المناسب - قال يومذاك، دون أن يتمكن من تجنب خفقة شُبهة غير مريحة تحط على كتفه.

- منذ شهر بالضبط كما لو أنها كانت تشم شيئًا - قالت ميرثيديس.

ذهب مباشرة للبحث عن إرنيستينا. إنها تعيش مع أمها منذ أن تركت ديونيسيو، على بُعد خمس وأربعين دقيقة مشيًا على الأقدام. لقد تحمَّلَته إرنيستينا سنوات طويلة، فكَّر، تحمَّلته اثني عشر عامًا، ولاحظ كيف تركته في التوقيت الدقيق، قبل محاولة اغتيال الرئيسة بالضبط. تساءل عما إذا كانت إرنيستينا تعرف شيئًا. ومثل إيفا، كان هو نفسه أيضًا يفكر بأن أحدًا كان وراء محاولة الاغتيال. لا يمكن لأحد أن يقنعه بأنه لم يكن هنالك هرٌّ مخفي في القضية. ليس هرًّا بمعنى هر، قال لنفسه.

لم يستطع تَقَبّل ديونيسيو قَطّ. وقد قال ذلك بوضوح لإرنيستينا مذ رآها مفتونة مثل وعل مبهور ببريق العريس المذكور. لقد كان مداهنًا يتظاهر بالرقي ويفتتن برواية قصص سائق متأنق، عن الأمكنة التي يذهب إليها مع رؤسائه إلى الخارج. يعود حاملًا هدايا لإرنيستينا: ملابس وأقراط زينة وغيرها من هذه الأشياء التي تفتن النساء. ويأخذها إلى «الأندية الليلية» لأنه كان عربيدًا مفتونًا بالشرب. وكانت تدافع عنه بالقول إنه لا يفعل ذلك إلا في نهاية الأسبوع؛ وليس هنالك أي سوء في أن يكون

الرجل سعيدًا. وهو يستحق تناول بعض الكؤوس لأنه شغيل جيد. فكان هو، خوسيه، يقول لها: لا تكوني شديدة الثقة يا إرنيستينا. والحقيقة أن عدم الثقة التي يشعر بها كانت تسند على حاسة الشم فقط، ولأن جلده يقشعر حين يراه ينحني نحو الفتاة ويهمس لها بأشياء في أذنها؛ ذلك أن عيني الرجل وجسده لا يعملان بانسجام متطابق. كان يقوم بالإيماءات الصحيحة ولكن نظراته تقوم بحسابات عن كيفية تحكمه بروحها وحياتها وقلبها. وكانت ميرثيديس تشعر بالقلق منه أيضًا. فخوسيه وزوجته يحبان إرنيستينا كما لو أنها ابنة أخرى من بناتهما لأنهما رأياها تكبر. ومنذ الطفولة كانت هي وابنتهما سوسنة صديقتين لا تفترقان، كلتاهما متشابهتان في تكاسلهما، وفي كونهما تلميذتين سيئتين، وجيدتين في الرياضة. كانت سوسنة سمينة مع ملامح الذهول الدائمة على وجهها، بينما كانت إرنيستينا نحيفة وطويلة، طويلة القامة، ويبدو واضحًا أنها ستكون جميلة، وكان لون عينيها أكثر صفرة من كل ما رآه في حياته. صداقتها مع سوسنة، ومحبتهما لها، كل ذلك سبب لهما المرارة مذ تزوجت إرنيستينا. فقد بدأت تأتي وعليها آثار كدمات، شفة مشقوقة، آثار دم جاف في الأنف، أو سن ناقص. فكانت تلجأ إليهم، تقسم أنها سوف تترك ديونيسيو، لكنها ترجع إليه مرة بعد أخرى لأنه، كما تقول، يبكي أمامها ويقسم لها. وعندما أتى الأبناء، عرف أن لا خلاص لها. لو أنها درست لاستطاعت أن تعمل، لكن إرنيستينا لم تكن تتقن عمل أي شيء. بينما استفادت ابنته سوسنة من لياقتها البدنية ودخولها سلك الشرطة. ومع مرور الوقت، صارت رؤية مجيء إرنيستينا مضروبة مسألة تتكرر كل شهرين أو ثلاثة شهور. لم يتوقف المدعو ديونيسيو عن ضربها حتى وهي حبلى، ثم منعها بعد ذلك عن الذهاب إليهم، ومن زيارتهم. فكان خوسيه يمر كل مساء على بيتها، وهو يبيع الثلج المبشور، كي يعرف

على الأقل كيف حالها، وكان يزداد قلقًا لأن حكايات إرنيستينا تمضي من سيئ إلى أسوأ. وفي إحدى المرات قالت له إن الرجل يعذبها. يأخذ ثلجًا ويلصقه على جسدها إلى أن يحرقها. أخبر سوسنة بذلك فجاءت الشرطة واقتادته مخفورًا، ولكن ذلك كان أسوأ. ذهبت إرنيستينا لإخراجه من الاعتقال وصار هو أشد هياجًا معها. ذوى جمالها كله. وكانت محزنة رؤيتها كيف تتحطم، كانت تقضي الوقت في غسل الملابس، وتبدو منهوكة ومتردية، وتزداد نحولًا وإرهاقًا.

الشيء الوحيد الذي أسعدها، وهذا أمر لفت انتباهه، كان حملة حزب اليسار الإيروتيكي؛ فكلما اقتربت النساء من بيتها، صارت تتبادل الحديث معهن من الحديقة في أول الأمر، ولكنها دعتْهن في ما بعد إلى الدخول، وتفاعلت معهن. وفي تلك الأثناء، كان ديونيسيو قد أحدث جرحًا عميقًا في يدها بسكين، وبسبب ذلك ذهبت إرنيستينا إلى حيث تعيش أمها، وأوقفته لأول مرة عند حده بصرامة. فأقسم ديونيسيو، وهو يبدي الأسف، على أنه سوف يغير سلوكه. انضم إلى طائفة «دع البكاء». ووجد محادثته الدينية الكبرى: صار يتكلم بلغات، يؤدي الصلوات بصوت عالٍ ويقرأ الكتاب المقدس الذي صار يحمله تحت إبطه دومًا - «إبط القديس»، هكذا كان يسميه بينه وبين نفسه - وأفضل ما فعله هو التوقف عن الشراب. رجعت إرنيستينا إليه. وكانت تؤكد أنه قد تحوّل إلى شخص آخر. ولكن عندما بدأت الحملة الانتخابية تصل أوجها، وقالت إرنيستينا إنها ستصوت لحزب اليسار الإيروتيكي، ثارت ثائرة ديونيسيو من جديد. هؤلاء نساء خاطئات، آكلات رجال، لا همّ لهن سوى تقويض الدين والعادات الحميدة، إنهن أبالسة، راح ديونيسيو يحلف كذبًا. وفي أحد الأيام ظهرت سوسنة وهي ترتدي بلوزة عليها شعار (ح.ي.إ.)، خوسيه يتذكر ذلك جيدًا، فطردها ديونيسيو من بيته. تمكنت إرنيستينا من

التصويت أخيرًا، وبدا كما لو أن الأمور قد صارت أفضل؛ لأن إرنيستينا سجلت اسمها من أجل رعاية أطفال في حضانة الحي. فحين تذهب نساء كل حي إلى العمل، يخترن «أمًّا متطوعة» ممن يبقين في البيت، ويتركن الأطفال عندها. كانت الدولة تقدم للأمهات المتوطوعات تعويضًا من أجل تأهيل حيز من البيت للأطفال. وتزودهن بطعام وألعاب، وتدفع راتبًا متواضعًا للتي أو الذي يتولى تلك المهمة؛ لأنهن يقلن إن الأمومة هي مسألة استعداد وقابلية ولا علاقة لها بجنس من يمارسها، فهنالك رجال يمكن لهم أن يكونوا نساء. وهذا ما حدث عندما أقروا قانون تقديم إعانة مالية «للأمهات المتطوعات»؛ فقد تقدم رجال ممن أوقفوا عن العمل في الدولة، والحقيقة أن أداءهم في رعاية الأطفال لم يكن سيئًا. جميعهم وجميعهن كانوا يتلقون التدريب والدعم المادي. بدا كما لو أن هذه المهنة قد فُصلت خصيصًا على مقاس إرنيستينا. تساعد جارتها وتتقاسمان الراتب. وقد فكر خوسيه بأن ذلك العمل جاء مواتيًا تمامًا لإرنيستينا، وكذلك الأجواء، لا بد له من الاعترف بذلك. فالنساء اللاتي في مثل حالتها، ممن يتلقين سوء معاملة أزواجهن، وجدن في تلك الحكومة متنفسًا لهن؛ لأنها لا تتسامح مع الإساءات. إنه يعرف ذلك جيدًا من خلال سوسنة التي تعمل في الوحدات الخاصة. فإذا كان معهودًا من قبل أن تدافع النساء المعنفات عن أزواجهن حين تأتي الشرطة، فإن ذلك لم يعد ينفع الآن. فليس لأي اعتراض تبديه المرأة أي نفع؛ لأنهم يأخذونها هي أيضًا. ويدخلانهما كليهما إلى مراكز خاصة لإعادة التربية؛ حيث يقضيان اليوم كله في الاستماع إلى أحاديث، ولقاء أطباء نفسانيين، وفي النهاية يجعلونهم يوقعون على وثيقة يتعهدون فيها بالاحترام المتبادل تحت طائلة العقوبة، وستكون العقوبة هذه المرة بسجن المعتدي، وفي حال تكرر الجرم، يعيدونهم مرة أخرى إلى برنامج إعادة التربية؛

وباختصار، لا يتركونهم بسلام. أما النساء اللواتي يقررن ترك أزواجهن فيساعدونهن بأن يقدمن لهن مكانًا يعشن فيه إلى أن يجدن عملًا، أو يرسلونهن إلى حقول زراعة الزهور ليتعلمن المهنة، وهناك توجد مدارس ورياض أطفال بديعة للأبناء. في هذا الموضوع كانت **الإيروتيكيات** جيدات جدًّا، ولماذا الإنكار. هو لا يفهم جيدًا السبب في أن النساء يجدن صعوبة في الاعتراف بذلك. فنحن الرجال نتأجج غيظًا، فكَّر، نتقد مثل الفلفل الحار حيال اضطرارنا إلى الاعتراف بأن النساء قد أصبن وأحسن صنعًا.

وفكّر: عسى ألا تسمح الإيروتيكيات بأن ينتزعوا السلطة منهن هكذا بسهولة. فإيفا ذات الشعر الأحمر يمكنها القيام بعمل بيبيانا سانسون على أحسن وجه. وهناك شيء آخر لا بد من قوله لصالحهن؛ ففي الأحزاب السابقة لم يكن يرى وجود بدلاء للقادة؛ إنهم هم أنفسهم دومًا؛ الوجوه نفسها، الأسماء نفسها، وحتى القمصان نفسها يستخدمونها حملة بعد حملة.

كان يقترب من بيت أم إرنيستينا. إنه بيت فخم جدًّا في حي مبانيه متشابهة إلى حدّ التطابق، ومرتبة في صفوف حول حديقة عامة. كانت السيدة فيرا قد أمضت سنوات خارج البلاد تعمل كمدبرة منزل في سويسرا. وهي تعيش الآن حياة مريحة بفضل ما وفرته من نقود. إنه يتذكرها على الدوام كامرأة مبادرة. لقد تعرف عليها منذ زمن بعيد في محل لبيع المرطبات اعتاد الذهاب إليه بصورة يومية تقريبًا لقتل الظمأ وتبادل الحديث مع الزبائن المعهودين. تحولا إلى صديقين ومن خلالهما نُسجت صداقة بين سوسنة وإرنيستينا، صداقة الطفولة التي ما زالت مستمرة.

طرق الباب وفتحت له دونيا فيرا. عانقها وانتبه إلى أن رائحة كولونيا وخزامى تفوح منها، ولكنها أقل انفتاحًا وترحيبًا من المعتاد. كان واضحًا أنها متوترة ومغمومة. في البيت البديع والعينين الصفراوين يضرب القلق جذورًا. ومع ذلك، فقد لاحظ بوضوح أنها سعيدة برؤيته.

ظهرت إرنيستينا بعد قليل. حيته بلطف. بدت أكثر نضارة، وأكثر طمأنينة. ما جاء بكَ إلى هذه الأنحاء؟ لم نركَ منذ فترة.

انتظر إلى أن نهضت دونيا فيرا وذهبت لأمورها وتركتهما على انفراد، وما إن اختفت عن أنظارهما حتى أبدى الجدية، أوقف الحيث العادي الخفيف.

قال هامسًا:

- إرنيستينا، ما جئت أطلبه منك مهم جدًّا. أريد أن أعرف ما الذي يحدث. هناك من يريدون التخلص من الحكومة، وهم يتآمرون، وهذا لا يناسبنا، ألا ترين ذلك؟

- من هم يا دون خوسيه؟

- أنا لا أعرفهم. وهذا ما أريد معرفته - ونظر إليها بثبات.

أخفضت هي بصرها.

- أظن أنكِ تعرفين شيئًا لم تقوليه؛ وأظن أنك قد تركت ديونيسيو لهذا السبب؛ لأنك تعرفين أن ثمة شيئًا بين يديه.

نهضت إرنيستينا واقفة.

- ألا تريد تناول شيء بارد؟

- تعالي هنا، اجلسي. لا تزعجي نفسك - قال متحكمًا بلهفته كيلا يخيفها.

عادت للجلوس. قضمت أحد أظفارها.

- أتعرف كيف هي حال الرئيسة؟

- ما زالت في حالة سيئة. ما زالت في غيبوبة.

- وهل تعجبك هذه الأخرى التي نصَّبوها؟

- أجل. لقد عرفتها. إنها شخصية جيدة. إذا كنت تعرفين شيئًا يا إرنيستينا، أرجوكِ أن تخبريني به. لن يعرف أحد أنك أنت من قلتِهِ. أقسم لك بأقدس ما لدي. وأنت تعرفين كم أحبك وأقدرك.

- أجل، أجل، أعرف ذلك - قالت وهي تحني رأسها وتنظر إلى تنورتها. ثم نظرت إليه فجأة - إنني خائفة. فهم أناس أشرار.

- أتصور أنهم كذلك - ابتسم دون خوسيه ديلا آريتمتيكا - لهذا السبب بالذات، تذكري أن أحدنا لا يخطئ فقط في عمل الأشياء وإنما قد يخطئ كذلك حين لا يعمل ما يجب عليه عمله.

طويلة كانت عملية إقناع إرنيستينا بأن كلامها لن يعرضها للخطر. تسلح خوسيه آريتمتيكا بالصبر. تناول العشاء في البيت لأن دونيا فيرا فاجأته بإعدادها العشاء. وظل إلى ما بعد ذهاب السيدة للنوم. كان التعب يبدو على إرنيستينا، ولكنها لم تقل أي كلام محدد، مجرد تلميحات، مخاوف. وعند منتصف الليل، مثل ساندريلا إنما دون فقدان الحذاء، كلمته أخيرًا عن خيمينيث. الذي كان قاضيًا، قالت له. سائق هذا السيد حضر عدة بحثًا عن ديونيسيو.

- بل إنه بدأ يغازلني أنا - أضافت - ولهذا عرفتُ من هو رئيسه، وما هي صفقاته. قال لي السائق إنهم يبحثون عن ديونيسيو لتكليفه بعمل، ولكنه لم يحدد ذلك العمل. كان الرجل يتكلم بنبرة مسمومة كلما ورد ذكر (ح.ي.إ.)، مما كان يغضبني. لقد خرج ديونيسيو معه في عدة ليال. بعد ذلك بدأ بحكاياته عن أنه يرى السيدة العذراء. لم يرق لي ذلك. بدا لي أنه

يتظاهر بالجنون متعمدًا من أجل سبب ما. وفي اليوم الذي وجدتُ فيه المسدس مخبأً تحت قطعة حطب، بالمصادفة فقط، فكرتُ عندئذ أنه من الأفضل لها أن تغادر البيت. لقد راودتني الهواجس. خفت على أبنائي.

- هل عرف ديونيسيو أنكِ وجدتِ المسدس؟

- لا يا دون خوسيه. أنا لست بلهاء. لم أقل له شيئًا. ولم ألمس المسدس. مجرد رؤيته كانت كافية لي.

- سوف نقوم بعمل شيء الآن. أنت ستبقين هنا. لا تخرجي ولا ترسلي الصغار إلى المدرسة.

- أرأيت؟ أرأيت لماذا لم أشأ إخبارك؟ - أجهشت إرنيستينا.

أمسك بها من ذراعها.

- أقسم لك بأمي وبأبي اللذين في السماء بأنه يلحق بكِ أي ضرر. ما طلبته منك من أجل الاحتياط فحسب. ولهذا اليوم فقط. لا تفتحي الباب أبدًا، ولا تردي على الهاتف. إذا التزمتِ بكل هذا لن تتعرضي لأي خطر. وأنا سأخبرك عندما ينقضي هذا الغم. اتفقنا؟

هزت إرنستينا رأسها موافقة.

عدالة

خرج خوسيه ديلا آريتمتيكا من بيت دونيا فيرا عند الفجر. ترك هناك عربة الثلج المبشور. وصل إلى الناصية، وأوقف سيارة أجرة. كانت إيفا قد أعطته عنوان بيتها. وقالت له إنه إذا ما توصل إلى أية معلومات في لقائه من إرنيستينا، عليه المجيء لإخبارها مهما كان الوقت.

لم يشعر قطّ في حياته كبائع متجول بخليط المشاعر التي تتراقص في هذه اللحظة ما بين صدره وظهره. كان يشعر بالخوف، ولكنه يشعر بالاعتزاز أيضًا. وإذا كان يشعر للحظات بأنه تجسيد حي لشرلوك هولمز أو جيمس بوند، متنكر بزي رجل فقير، فإنه يرغب في لحظات أخرى أن يتوارى أو يغوص في صدر ميرثيديس الحاني. رباه، ما الذي فعلته؟ سأورط نفسي مع أشد المافيات فسادًا وقسوة في هذه البلاد. سأعرض أسرتي للخطر، وكذلك إرنيستينا. أيتها العذراء دائمة الغوث، ساعديني. أيها القديس كريستوبال، أنت يا من حميتني في خضم حركة المرور، لا تتخلَّ عني الآن، وأنت يا سان باسكوال بايلون... كان يهمس، ثم يأخذ بالارتعاش من البرد فجأة، وتصطك أسنانه.

- يبدو واضحًا أنك غير معتاد على الاستيقاظ باكرًا - قال له سائق سيارة الأجرة - هكذا هي برودة ساعات الصباح الباكر.

- مَمَمعك ححقق - قال - أأأنا لا أستيقظ بَبَاكرًا عَعَادة.

نزل من السيارة عند ناصية الشارع؛ حيث بيت إيفا. لا يريد أن يعرف السائق إلى أين هو ذاهب.

وبعد اللف والدوران الذي قام به الحراس من أجل أن يتوصلوا إلى أن خوسيه ديلا آريتمتيكا ليس شخصًا مختلًا، ووافقوا على أنه عليهم أن

يوقظوا الرئيسة، انقضى أكثر من نصف ساعة. لحسن الحظ أنهم اتصلوا بالنقيبة غارسيا، فسمحت هي بأن يسمحوا له بالدخول، وتولت بنفسها إيقاظ إيفا من نومها.

استقبلته مرتدية بيجامة رياضية وبخُفٍّ منزلي. قدمت له قهوة، وأعارته سترة. لم يشأ أن يقول إي شيء قبل أن يدخلا إلى غرفة المكتب في البيت. وهناك، وراء باب مغلق، أخبرها بكل ما يعرفه.

تنشطت هي فورًا مزيحة عنها النعاس. وفي أقل من خمس عشرة دقيقة استدعت الضباط. امتلأ البيت بالناس، ولكنه ظل في حجرة المكتب، لا يسمع سوى وقع الخطوات، وتوالى مجيء السيارات وتوقفها.

خرجت إيفا لتستبدل ثيابها. تأخرت في الرجوع. كان خوسيه قد بدأ يغفو حين عادتْ مجددًا إلى المكتب.

- دون خوسيه، سوف نقوم بعملية الآن بالذات من أجل إلقاء القبض على أولئك الأشخاص.

الفضل الذي قدمته حضرتك لا مثيل له، ولا أدري كيف أشكرك باسم جزب اليسار الإيروتيكي، وباسم فاغواس - قالت له - سوف نكافئك بما تستحقه، ولكنني أريدك أن تعرف حاليًا، وأطلب منه ألا تخبر به أحدًا، أن الرئيسة بيبيانا قد خرجت من الغيبوبة هذه الليلة والأطباء يعتقدون أنها ستستعيد عافيتها تمامًا.

الوجه النحيل، الهرم بصورة مبكرة بفعل الشمس، وجه خوسيه ديلا آريتمتيكا الطيب، تمدد في ابتسامة واسعة. رفع يده إلى فمه مثل طفل منفعل، وضحك. الشكر للرب، الشكر للرب، يا للخبر الطيب، يا للخبر العظيم.

- وحضرتك، لن تظلي رئيسة إذًا؟

- هذا ما أظنه يا دون خوسيه، وآمل ألا أظل. وإذا أدرت رأيي بصراحة، فإنني أفضل عملي السابق.

يجب عليها أن تغادر، قالت له، ولكنها ستكلف النقيبة غارسيا بأن تضعه في غرفة فيها تلفزيون ملون وأفلام كي يستريح بقية اليوم. يمكنه الاتصال ببيته، ولكنها تفضل عدم خروجه إلى الشارع.

- وهذا ما نصحتُ به إرنيستيتا أيضًا.

- أحسنت صنعًا - قالت له - أنا أرى أنه يجب عليك أن تترك عملك في بيع الثلج المبشور وتأتي للعمل معي - غمزت له بعينها وخرجت.

لن يكون ذلك سيئًا. ليس سيئًا بأي حال، فكر خوسيه وهو يضحك وحده. وفكر: أظن أنني بدأت العمل في بيع الثلج المبشور كي أظل أتجول بفضول. ومن المؤكد أنني أحمل مهنة التحري في دمي.

في خوف من إغماض العينين

أبهرها البريق. ومع ذلك، شيئًا فشئًا، راحت بيبيانا تتعرف على الضوء، رأته كما لو أنها تراه أول مرة. عيناها ثابتتان على ذرات الغبار التي تطفو في أحزمة الأشعة الداخلة من النافذة. كم هي متدفقة، فكّرتْ، وكيف تغمر كل شيء مثل هواء مشتعل. أحست أنها ثقيلة، سفينة راسية معلقة في الضياء. سمعت البيب بيب الصادر عن الآلات، تنبهت لجسدها الموجوع، المُثَقّب، أنبوب مسبار في الأنف، وفي الذراع أنبوب السيروم، الإزعاج في مجاري البول. ظلَت جامدة بعينين مفتوحتين لوقت أطول. إنني في المستشفى. لقد اجتزت التجربة. لستُ ميتة. وببطء، بالتنقيط، تعرفت على وعيها. بدا لها أنها تسمع، كما لو أن هنالك آلة تدار بإليه غير مرئية، صرير كيانها يستعيد راحته في داخلها، وبدأ دوران العجلات المسننة، والتعرف على نفسها. أنا بيبيانا سانسون، عمري أربعون سنة. وماذا لو كان هذا غير صحيح؟ ومن ستكون إذا لم يكن هذا غير صحيح؟

وكانت قد بدأت تشعر بالغم حين رأت وجه خوانا دي أراكو يطل على عينيها.

ـ أهلًا بكِ ـ سمعت الكلام ـ أتعرفين من أنا؟

أعرفك تمامًا. هكذا أجابت ولم تسمع الردّ. حاولت من جديد.

بعد ذلك جاء الأطباء. والاختبارات. ثم مارتينا وسيليستي وإيفا وإيفيخنيا وريبيكا. أذكر أسماءهن واحدة واحدة، براحة هائلة. ما الذي نسيته؟ ما هو مقدار ما ضاع مني؟

حملوها على محفة نقالة عبر الممر. أدخلوها في الآلة البيضاء، في تلك الكبسولة الفضائية. ثم الممر مرة أخرى. لقد كانت متعبة جدًا. تريد أن تنام، ولكن إغماض عينيها يثير فيها الرعب؛ إذ يختفي الناس الذين تحبهم، جميعهم سعداء برؤيتها، كما لو أنها عائدة من رحلة طويلة.

تشبثت بيد سيليستي. الأطباء يريدون منها أن تضغط بيديها، أن تحرك قدميها. إنها تحس باليمنى واليسرى بصعوبة.

- لا تتركني أنام أيها الطبيب - قالت مطالبة - أشعر بنعاس شديد.

- ابذلي جهدًا للبقاء مستيقظة لهنيهة فقط - قال الطبيب.

- مارتينا - سمعت أحدهم - تعالي يا مارتينا وحدثيها. ساعديها على ألا تنام.

حدثتها مارتينا عن إمير. إنه في الطريق، قالت لها. أنت تعرفين من هو، أليس كذلك؟

أكدت بيبيانا ذلك مبتسمة. فقالت مارتينا: ما هذا، وأنا التي كنت آمل أن تستيقظي سحاقية، وضحكت، ولكنكِ متعلقة بالجنس الآخر ولا خلاص لكِ.

- فاغواس - قالت بيبيانا - حدثيني عن فاغواس.

أطلعتها مارتينا على آخر التطورات بصورة مبسطة قدر استطاعتها، على الاتفاقيات مع الاتحاد الأوروبي، ومشاكل غزارة الأمطار في المنطقة الأطلنطية من البلاد، ولكنها توسعت قدر استطاعتها في قضايا خفيفة.

- من الذي يحكم الآن؟ - سألتها بيبيانا.

- إيفا، إيفا هي التي تحكم.

أغمضت بيبيانا عينيها. وعندئذ غلبها النعاس.

الاستقالة

أخبر أهالي فاغواس بعودة بيبيانا سانسون بعد أيام قليلة من خروجها من الغيبوبة. ما لم يكن ينتظره أحد، سواء زميلاتها في حزب اليسار الإيروتيكي، أو إمير، أو سيليستي، هو أن تقرر الاستقالة من منصبها كرئيسة للبلاد.

- أجننتِ يا امرأة؟ - مارتينا هي أشد المعارضات. وكانت تتحكم بنفسها كيلا تصرخ، لكنها لا تكاد تتمكن من ذلك. كانت تلف وتدور في تلك الغرفة ببيت بيبيانا كوحش في قفص.

- لست مجنونة يا مارتينا. إنه قرار لا رجعة عنه.

- أظن أنه علينا الانتظار بضعة أيام - قالت إيفا محاولة المصالحة - أنت لا تعرفين يا بيبيانا المشكلة التي وقعنا بها من أجل تعييني. وإذا ما استقلتِ، فإن المعارضة ستدعو بكل تأكيد إلى انتخابات جديدة.

- لا أرى أي سوء في ذلك - قالت بيبيانا - لا شك لدي في أننا سنكسبها.

- فلننظر في الأمر - قال إمير - ولنحاول أن نكون عقلانيين. لو كان لديك أي عائق جسدي لبدا الأمر منطقًا. لكن الأطباء يقولون إنك خلال شهرين أو ثلاثة شهور ستتمكنين من المشي دون أن تعرجي. ودماغك في حالة جيدة بصورة تامة.

- يجب ألا تكون لفاغواس نصف رئيسة - قالت بيبيانا - لقد قلت إنه قرار لا رجعة عنه.

- إذا لم يكن ثمة مشاكل، فيجب اختلاقها - قالت ريبيكا.

- إيفي، رتبي لي ظهورًا تلفزيونيًا - قالت بيبيانا - غدًا بالذات.

كان خوسيه دي آرتيمتيكا يتناول الغداء، ويتابع الأخبار في التلفاز بسعادة لم يشعر بمثلها إلا في مرات قليلة. فديونيسيو والزوجان مونتيرو، وخيمينث ومجموعة أخرى من الأشخاص سيُحَاكمون. لقد تمكنت إيفا، في عملية متزامنة، من اعتقالهم جميعًا. أنزلوا خيمينيث من طائرته الخاصة، وكان جاهزًا للإقلاع في المطار. لقد أخبره بالأمر واشٍ ما. ولكن إيفا نفسها، ذات الشعر الأحمر، وكأن ألف شيطان قد استحوذ على حماستها للعدالة، فدخلت بسيارتها الجيب، وبأقصى سرعة، إلى مدرج المطار، وتوقفت أمام الطائرة بالضبط، مانعة إياها من الحركة. ثم صعدت فوق غطاء محرك سيارة الجيب والمسدس في يدها، وأجبرت الطيار على فتح الباب وإخراج خيمينيث إلى السُّلّم. إما أن تُخرجه أو أدمر الطائرة وتذهبون جميعكم في كرة من اللهب إلى الجحيم، قالت له متوعدة.

صار الأشرار قيد الاعتقال. أما إرنيستينا وأولادها فنقلوهم إلى بيت لحمايتهم. وقد وافقت هي على تقديم شهادتها.

وكان خوسيه ينتظر أن تتصل به إيفا في أي لحظة لتكلفه بمهته الأولى كتحري رسمي، بعد أن بدأت الآن عملية إعادة الاعتبار إلى الرجال مجددًا من أجل أن يعملوا في الدولة.

كادت الشوكة تفلت من يده حين رأى ظهور وجه بيبيانا سانسون على الشاشة. نحيلة، يكاد لا يظهر على رأسها سوى شبح تجعيدات شعر (تبدو جميلة حتى وهي شبه صلعاء، فكّر خوسيه)، تحيي شعبها، تشكره على تضامنه، وعلى الزهور. كانت خطبة مؤثرة، وفجأة، أُصيب بالذهول. غير ممكن، فكَّر. فقد قالت: أريد أن أقول لكم إنني، بعد تفكير طويل،

قررت الاستقالة. ثم أضافت: شفائي التام سيستغرق وقتًا طويلًا. ولقد انتظرتم ما يكفي. وأنتم تستحقون رئيسة بكامل قواها البدنية والذهنية.

أما ميرثيديس التي هرعت لرؤية الخطاب، فقد أغلقت فمها بيديها.

- رباه! بعد كل السعادة التي شعرنا بها، تأتينا الآن بهذا الخبر.

يمكن القول إنه خلال دقيقة، بينما النساء يستوعبون الخبر، خيم صمت عظيم على فاغواس كلها.

ولكن التخلي عن كونها رئيسة لم يكن هو قدر بيبيانا سانتوس.

ففي ذلك المساء بالذات، وكما لو أن عازف مزمار غير مرئي من هاملين قد عزف لحنه السحري، فبدأ سيل جارف من النساء والرجال، الشباب والشيوخ، بالسير نحو القصر الرئاسي. بصمت، آلاف وآلاف الأشخاص تجمهروا تحت شرفة المكتب البيضاوي. ما يكونون يحملون بطاطين ولا لافتات. ولا يصرخون بهتافات، بل يأتون بكل بساطة ويتوقفون هناك. اتصلت مارتينا بإمير.

فطلب ألا يقولوا شيئًا لبيبيانا. يجب الانتظار، هذا ما قاله متحكمًا بالانفعال الذي أثاره فيه الخبر، بينما القلق يدفعه إلى الذهاب ليرى بعينيه ذلك التحرك العجيب.

في حوالي الساعة السادسة مساء، ترك بيبيانا ومعها سيليستي وخرج. ومن شرفة المكتب، إلى جانب خوانا دي أركو، أخيرًا، وفي حالة غبطة ونشوة غير محدودة، رأى الشوارع على امتداد البصر، تغص بالناس. ففي الساحة، كانت الحشود قد اقتحمت كل الأمكنة المتاحة: الحديقة العامة المجاورة، الأبنية المتاخمة. وكانت الإذاعة تقدم تقارير عن أن أهالي المناطق الداخلية من البلاد يتوجهون نحو العاصمة.

ـ قَدَمٌ أمام القدم الأخرى ـ همس إمير لنفسه، وذهب لإحضار بيبيانا.
لقد كان يعرفها. ويعرف أنها لن تستطيع مقاومة ذلك الدليل على المحبة.
وكان على حق.
لقد عادت بيبيانا إلى الرئاسة نزولاً عند المطالبة الشعبية.

لدي رصاصة مستقرة في الجمجمة. ستظل معي طوال ما تبقى من حياتي. أعرف أنها موجودة، ومعرفة ذلك تحذير لا يمكنني تجاهله. لقد كان العلاج واستعادتي عافيتي طويلًا. فساقي اليسرى تأخرت شهورًا قبل أن تستعيد الحركة وتنتمي إلى من جديد، ولكنني رجعت بوعيي من حجرة الذكريات الحاضرة دومًا. لم أضِعْ في الطريق. رجعت بذكرياتي وبذاكرة سليمة، مع القدرة الغريبة على عدم نسيان ما في ذلك العنبر من أشياء نَسيتْ ما هو الزمن. لم يبدُ لي ذلك قدرة استثنائية في البدء. وبقراءة قصص خيالية عن أناس استيقظوا من الكوما متمتعين بقدرة على استشفاف المستقبل أو رؤية أشباح وأشياء من هذا القبيل، ضحكت مع إمير من مدى البخل الذي كانت عليه غيبوبتي.

ولكن يجب الانتباه إلى كم هو ممكن تعلمه من الماضي. إننا جيدون في نسيان الدروس التي يتضمنها، ماهرون جدًّا في إخفاء أخطائنا، وتصديق أننا لم نقترفها قطّ من أجل أن نعود، بهذه الطريقة، إلى اقترافها مرة بعد أخرى. ليست سهلة هذه القدرة التي تزودت بها. فقد اجعلني حذرة جدًّا، وأكثر احتراسًا مما كنت عليه في أي وقت آخر، أظن أنني قد تحولت إلى واحدة من تلك «الأرواح القديمة» التي نتعرف عليها في الأشخاص الحكماء. في بعض الأحيان أشعر بالحنين إلى اندفاع اللبوة الذي أوصلني إلى اتخاذ قرارات بناء على ضربة حدس وحسب، لكنني أعرف أنني لم أفقد الشجاعة على اتخاذ القرارات، وما فقدته هو السرعة في توجيه ضربة المخلب القاصمة.

لست نادمة على جنون إرسال الرجال إلى بيوتهم، وإخراجهم من وظائف الدولة. أقر بأنه كان إجراء متطرفًا. لحسن الحظ أن فاغواس، على الرغم من أنها بلد صغير، إلا أنها استطاعت اجتراح ترف أن تنشيء بصورة مصطنعة ذلك المختبر الذي نخلط فيه الهويات والأدوار وفق ما شاءته أهواؤنا. لقد دفعتُ ثمنًا. ولست أجرؤ على طرحه كمطلب لا بد منه من أجل أن يعترف المجتمع بالنساء، ومن أجل أن تعترف النساء، قبل أي شيء، بأنفسهن، لكن ما أعرفه أن معنى ذلك كان، في بلادي، تغييرًا عميقًا يستحق العناء بالمطلق. لم يعد هنالك رجل يرى في كيّ الملابس وغسلها، وفي الطهو أو رعاية الأطفال عملًا مشينًا يحطّ من كرامته. أفراد عائلات فاغواس الجديدة يتقاسمون الأعمال المنزلية. وقد زادوا عدد قاعات الطعام المشتركة في الأحياء، وكذلك أعداد الأمهات المؤهلات ومن لديهن استعداد مسبق للأمومة، وصارت هنالك حضانة أطفال في كل مركز عمل، وحتى «محطات استراحة»، من تلك التي كانت تحلم إيفيخنيا بإنشائها من أجل ترك الأطفال فيها حين يضطر أحدهم إلى الذهاب للتسوق أو يضطر إلى القيام بمعاملات خارج البيت. وهكذا لم يعد على الأبناء والأمهات والآباء أن يفترقوا عن بعضهم البعض إلى أن يحين موعد ذهاب الأطفال إلى المدرسة الرسمية عند بلوغهم الثانية عشرة من العمر. وفي أثناء ذلك، يتولى كل مركز عمل تقييم الأمومة كمساهمة في بناء المستقبل والزمن الذي تكرسه الأمهات والآباء لأطفالهم باعتباره الضمانة لمجتمع سليم. لقد اختفت العصابات؛ وصارت قليلةً مشاكل المخدرات، إننا بلاد أزهار، ووفرة في الأغذية، وأناس يهتمون ببعضهم بعضًا، ويحترمون التنوع في الحب وتعبيراته؛ لقد فعلت «سعادتنا» مفعولها. إننا أغنى اقتصاديًا لأننا لا نؤجل تربية أناسنا، وفيهم وفي حياتهم قررنا أن نستثمر مواردنا. إننا أكثر غنى لأننا،

قبل كل شيء، ألغينا الطريقة الأقدم في الاستغلال: استغلال نسائنا، وهكذا لن يتعلم أحد هذه الطريقة في الاستغلال منذ الطفولة. هنالك ظواهر طبعًا؛ فلسنا مجتمع الكمال. الحقيقة أن اعترفنا بإنسانيتنا يعني معرفة أنه سيكون هناك على الدوام نضالات وتحديات جديدة، ولكن لابأس، إننا نتقدم. بوضع قدم أمام القدم الأخرى.

*** انتهى ***

شكر وامتنان

أول شكر أوجهه إلى أمي، غلوريا بيريّرا. منذ طفولتي جعلتني أشعر بالفخر لكوني امرأة. بفضلها لم أشعر قط بأن جنسي هو نقيصة، وبفضلها باركتُ جنسي مذ وعيت على كوني ما أنا عليه.

في عقد الثمانينيات في نيكاراغوا، أثناء الثورة الساندينية، وُجِدتُ بالفعل جماعة نسائية، مجموعة صديقات، شكلنا معًا ما أسميناه (ح.ي.إ.)، حزب اليسار الإيروتيكي.

كل واحدة منا كان لها موقع متوسط الأهمية في البنى الحكومية أو الحزبية أو الجماهيرية. وقد اتفقنا في ما بيننا على مناقشة وممارسة إستراتيجية لتنشيط مسألة الحقوق الفردية للمرأة في محيط تأثيرنا. وقد استمرت الجماعة لعدة سنوات وكانت تجربة ممارسة رفاقية وإبداعية مشتركة أغنتنا جيمعًا. ومع الزمن تفرقنا في ميادين أخرى؛ بل واتخذنا مواقف سياسية متناقضة تمامًا، ولكنني أظن أن أيًّا منا لم تتأسف أو تندم على ما كنا «نطهوه» معًا في اجتماعاتنا. ولهذا أشكر صوفيا مونتينيغرو، وميلو بارغاس، وماليْنا دي مونتي، وإيفون سيو، وآنا كريكيّون، وفيلما كاستيّو، وريتا أراوس، ولورديس بولانيوس، والبا بالاثيوس وأولجا إسبينوسا على الذكريات التي أفادت في استلهام هذا الكتاب.

خلال كتابة الرواية اعتمدتُ على دعم حاسم، وتعليقات واقتراحات صائبة، من أشخاص قريبين جدًّا مني، ولولا تشجيعهم ودعمهم لما كان

هذا الكتاب على ما هو عليه. أتقدم إلى بيبيانا سوايا، ومارتا تشافيس، وضاليا سوليس وكارلا برافيساني بالشكر لاقتراحاتهن ودعمهن الذي لا يقدر بثمن. ولزوجي، تشارلز كاستالدي، ووكيلي وصديقي غييرم شافالزون، أدين لنصائحمها بشأن هذا الكتاب وتصحيحاتهما وتحريرهما الذي أوصله إلى نهاية سعيدة.

في حياتي اليومية أدين بشكر خاص لدولوريس أورتيغا، ولبناتي مريم، وميليسا، وآدريانا، وأختي ليفيانا. فهن، كل منهن على طريقتها، رافقنني في هذه المهمة وحولن أوقاتي التعيسة إلى أوقات سعادة.

أشكر أخيرًا جميع النساء الاستثنائيات اللاتي مهدن الطريق للإنصاف، ومن أحطن بحياتي؛ من أعرفهن شخصيًّا ومن نورنني بكلماتهن؛ جميعهن شاركن في شق هذا الطريق الذي نجتازه نحن النساء المعاصرات الملتزمات بأن يحولنّ، إلى واقع، حلمَ المساواة والعدالة الذي تأجل طويلًا والذي لنا الحق فيه، والذي سنتمكن، دون شك، من التوصل إليه، ليس من أجل سعادتنا نحن فقط، وإنما من أجل خيرٍ، وانسجامٍ، واخضرارٍ غير مسبوق لهذا الكوكب الجميل الذي تسكنه.

الفهرس

◆ طبعت بمطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ◆

أشكر أخيراً جميع النساء الاستثنائيات اللاتي مهدن الطريق للإنصاف، ومن أحطن بحياتي؛ من أعرفهن شخصيًا ومن نورنني بكلماتهن؛ جميعهن شاركن في شق هذا الطريق الذي نجتازه نحن النساء المعاصرات الملتزمات بأن يحولنّ، إلى واقع، حلمَ المساواة والعدالة الذي تأجل طويلاً والذي لنا الحق فيه، والذي ستتمكن، دون شك، من التوصل إليه، ليس من أجل سعادتنا نحن فحسب، وإنما من أجل خيرٍ وانسجامٍ، واخضرارٍ غير مسبوق لهذا الكوكب الجميل الذي نسكنه.

جيوكوندا بيللي




ISBN# 9789779116112
6 221149 048232



